بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (٩٣-١٠٣) من التفسير الميسّر

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)

كل الأطعمة الطيِّبة كانت حلالا لأبناء يعقوب عليه السلام إلا ما حرَّم يعقوب على نفسه لمرض نزل به، وذلك مِن قبل أن تُنَزَّل التوراة. فلما نُزِّلت التوراة حرَّم الله على بني إسرائيل بعض الأطعمة التي كانت حلالا لهم؛ وذلك لظلمهم وبغيهم. قل لهم -أيها الرسول-: هاتوا التوراة، واقرؤوا ما فيها إن كنتم محقين في دعواكم أن الله أنزل فيها تحريم ما حرَّمه يعقوب على نفسه، حتى تعلموا صدق ما جاء في القرآن من أن الله لم يحرم على بني إسرائيل شيئًا من قبل نزول التوراة، إلا ما حرَّمه يعقوب على نفسه.

فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)

فمَن كذب على الله من بعد قراءة التوراة ووضوح الحقيقة، فأولئك هم الظالمون القائلون على الله بالباطل.

قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

قل لهم -أيها الرسول- صَدَق الله فيما أخبر به وفيما شرعه. فإن كنتم صادقين في محبتكم وانتسابكم لخليل الله إبراهيم عليه السلام فاتبعوا ملَّته التي شرعها الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها الحق الذي لا شك فيه. وما كان إبراهيم عليه السلام من المشركين بالله في توحيده وعبادته أحدًا.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)

إن أول بيت بُني لعبادة الله في الأرض لهو بيت الله الحرام الذي في «مكة» ، وهذا البيت مبارك تضاعف فيه الحسنات، وتتنزل فيه الرحمات، وفي استقباله في الصلاة، وقصده لأداء الحج والعمرة، صلاح وهداية للناس أجمعين.

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

في هذا البيت دلالات ظاهرات أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظَّمه وشرَّفه، منها: مقام إبراهيم عليه السلام، وهو الحَجَر الذي كان يقف عليه حين كان يرفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل، ومن دخل هذا البيت أَمِنَ على نفسه فلا يناله أحد بسوء. وقد أوجب الله على المستطيع من الناس في أي مكان قَصْدَ هذا البيت لأداء مناسك الحج. ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه وعن حجِّه وعمله، وعن سائر خَلْقه.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)

قل -أيها الرسول- لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: لِمَ تجحدون حجج الله التي دلَّتْ على أن دين الله هو الإسلام، وتنكرون ما في كتبهم من دلائل وبراهين على ذلك، وأنتم تعلمون؟ والله شهيد على صنيعكم. وفي ذلك تهديد ووعيد لهم.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

قل -أيها الرسول- لليهود والنصارى: لِمَ تمنعون من الإسلام من يريد الدخول فيه تطلبون له زيغًا وميلا عن القصد والاستقامة، وأنتم تعلمون أن ما جئتُ به هو الحق؟ وما الله بغافل عما تعملون، وسوف يجازيكم على ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إن تطيعوا جماعة من اليهود والنصارى ممن آتاهم الله التوراة والإنجيل، يضلوكم، ويلقوا إليكم الشُّبَه في دينكم؛ لترجعوا جاحدين للحق بعد أن كنتم مؤمنين به، فلا تأمنوهم على دينكم، ولا تقبلوا لهم رأيًا أو مشورة.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

وكيف تكفرون بالله -أيها المؤمنون-، وآيات القرآن تتلى عليكم، وفيكم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يبلغها لكم؟ ومَن يتوكل على الله ويستمسك بالقرآن والسنة فقد وُفِّق لطريق واضح، ومنهاج مستقيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه، خافوا الله حق خوفه: وذلك بأن يطاع فلا يُعصى، ويُشكَر فلا يكفر، ويُذكَر فلا ينسى، وداوموا على تمسككم بإسلامكم إلى آخر حياتكم؛ لتلقوا الله وأنتم عليه.

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

وتمسَّكوا جميعًا بكتاب ربكم وهدي نبيكم، ولا تفعلوا ما يؤدي إلى فرقتكم. واذكروا نعمة جليلة أنعم الله بها عليكم: إذ كنتم -أيها المؤمنون- قبل الإسلام أعداء، فجمع الله قلوبكم على محبته ومحبة رسوله، وألقى في قلوبكم محبة بعضكم لبعض، فأصبحتم بفضله إخوانا متحابين، وكنتم على حافة نار جهنم، فهداكم الله بالإسلام ونجَّاكم من النار. وكما بيَّن الله لكم معالم الإيمان الصحيح فكذلك يبيِّن لكم كل ما فيه صلاحكم؛ لتهتدوا إلى سبيل الرشاد، وتسلكوها، فلا تضلوا عنها.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (٩٣-١٠٣)

الكلمة	المعنى
إسرائيل	يعقوب عليه السلام
حنيفا	مائلا عن الشرك إلى التوحيد
بِبَكّة	في مكة المكرمة
آياتٌ بيناتٌ	علاماتٌ ظاهراتٌ
مقام إبراهيم	الحجر الذي قام عليه إبراهيم لما أراد بناء الكعبة
تبغونها عِوَجا	تطلبون لدين الله ميلا عن الحق إلى الباطل، ولأهله ضلالا عن الهدى
يعتَصم بالله	يتوكّل على الله، ويتمسّك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
هُدِي	وُفّق لسلوك طريق الهداية
واعتَصموا بحبل الله	وتمسّكوا بالكتاب والسنة
فألّف	فَجَمَع
شَفَا حُفرة	طرَف حُفرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ٩٣-١٠٣

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الثالثة والتسعين وحتى الآية الثالثة بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى: (كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعدها استثناء (إلا ما حرم إسرائيل)، ولا يصح الوقف قبل الاستثناء.

وهل يصح الوقف على قوله (إلا ما حرم إسرائيل على نفسه)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لماذا؟ لأن الجار والمجرور في قوله (من قبل أن تنزّل التوراة) متعلقٌ بما قبله يعني بالتحريم، فإنه حرم من قبل أن تنزل التوراة، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (من قبل أن تنزّل التوراة)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الخبرية التي فيها الإخبار عن أن الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه من قبل تنزيل التوراة قد انتهت، ثم بدأ بجملةٍ طلبيةٍ قال (قل فأتوا بالتوراة) وبدأ بمحاجتهم فيما قالوه، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعدها شرطٌ جوابه محذوفٌ دل عليه ما قبله، يعني أن قوله (إن كنتم صادقين) جوابه (فأتوا بالتوراة فاتلوها) فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ في قوله (مَن)، وفعل الشرط (افترى على الله الكذب من بعد ذلك)، الجواب (فأولئك هم الظالمون)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (قل صدق الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن هذه جملةٌ خبريةٌ أعقبتها جملةٌ أمريةٌ في قوله (فاتبعوا)، وانتهت الجملة الخبرية هنا. وإذا تأملنا فإن هذه الجملة الخبرية هي كذلك جوابٌ لما ادعوه من تحريم ما أحل الله لهم، فأخبر الله أنهم قد افتروا على الله الكذب وأن الله سبحانه قد صدق، فصح

الوقف هنا، ثم ابتدأ جملةً أمريةً في أمرهم باتباع ملة إبراهيم الذي انتسبوا إليه زورًا وبهتانًا، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن أمرهم باتباع ملة إبراهيم قد انتهى هنا، ثم بين بعد ذلك بجملةٍ خبريةٍ ما كان عليه إبراهيم عليه السلام من أنه (ما كان من المشركين)، وإن كانت هذه الجملة الخبرية قد تضمنت إلزامهم وإقامة الحجة عليهم ألا يقعوا في الشرك وهم يدّعون الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام، إلا أنها لأنها فارقت الجملة التي قبلها في كونها خبرًا بعد أمرٍ صح الوقف قبلها، وإن كان الوصل هنا أولى، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إنّ أول بيتٍ وضع للناس للّذي ببكة مباركًا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا النحاس والأشموني دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء، ونصا على أن الوقف هنا صحيحٌ على تقدير: وهو هدًى للعالمين، يعني أن جملة (وهدًى للعالمين) جملةٌ مستأنفةٌ، وذكرا أنه إن جعلت (هدًى) هنا معطوفةً على (مباركًا) فإنه لا وقف، وهذا هو الأقرب، أن (وهدًى) معطوفة على (مباركًا)، وبالتالي لا وقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (فيه آياتٌ بينات)، (مقام إبراهيم)، (ومن دخله كان آمنًا):

هذه ثلاثة مواضع للوقف في هذه الآية اختلف فيها علماء الوقف والابتداء، فمنهم من جوّز الوقف في الثلاثة المواضع، ومنهم من جوّز الوقف في الموضع الأول والثالث، ومنهم من جوّز الوقف في الموضع الثاني والثالث، ومنهم من لم يجوّز الوقف إلا في الموضع الثالث وهو الأخير.

نأتي إلى بيان ما يتعلق بهذه المواضع الثلاثة:

(فيه آياتٌ بيناتٌ) صحح الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، على معنى: منها مقام إبراهيم، فيكون (مقام) هنا خبر مبتدأ محذوفٍ تقديره: منها، وإذا تأملنا فإن (مقام إبراهيم) تحتمل أن تكون بدلاً من (آيات)، يعني (فيه آياتٌ بيناتٌ) هذه الآيات هي (مقام إبراهيم)، أو نقول هي عطف بيان، وإذا جعلناها بدلاً أو عطف بيان فإنه لا وقف على قوله (فيه آياتٌ بيناتٌ)، وهذا لعله هو الأقرب والله أعلم، أنه لا وقف في هذا الموضع.

الموضع الثاني: (مقام إبراهيم): هنا يأتي السؤال: هل الآيات التي ذكرها الله سبحانه وتعالى بينها بقوله (مقام إبراهيم) وانتهى، ثم ابتدأ جملةً شرطيةً في قوله (ومن دخله كان آمنًا) لا علاقة لها بالآيات، وبالتالي تكون (ومن دخله) جملة مستأنفة؟ بناءً على هذا يصح الوقف.

أو أن (من دخله كان آمنًا) هذا من جملة الآيات، وتكون جملة (ومن دخله) جملةً معطوفةً على (مقام إبراهيم) وبالتالي لا وقف هنا؟ والأمر هنا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

أما الوقف على قوله (ومن دخله كان آمنًا) فعليه عامة علماء الوقف والابتداء، وهو نهاية جملة الشرط في قوله (ومن دخله كان آمنًا)، ويصح الوقف عليه لأن بعده بيان حكمٍ جديدٍ فيما يتعلق بالحج إلى بيت الله الحرام.

وهل يصح الوقف على قوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي فيها بيان وجوب وفرضية الحج قد انتهت هنا، وابتدأ بعدها جملةً شرطيةً بقوله (ومن كفر)، والشرط يصح الابتداء به عادةً، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الأنصاري والأشموني دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الواو في قوله (والله شهيدٌ على ما تعملون) تحتمل أن تكون حاليةً يعني: لم تكفرون بآيات الله والحال أن الله شهيدٌ على أعمالكم، وتحتمل أن تكون مستأنفة، بمعنى أن عتابهم قد انتهى، ثم بين الله أنهم شهيدٌ على أعمالهم، قال (لم تكفرون بآيات الله) وانتهى الاستفهام هنا، ثم بين أنه شهيدٌ على أعمالهم، والأمر هنا محتملٌ، والوقف له وجهٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لماذا؟ لأن قوله (تبغونها عوجًا) جملةٌ حاليةٌ، وهي حالٌ من فاعل (تصدون)، فتصدون باغين لها عوجًا، فهي من تتمة الجملة ومن تتمة بيان حالهم، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (تبغونها عوجًا وأنتم شهداء)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الاستفهام قد انتهى في قوله (لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجًا وأنتم شهداء)، ثم ابتدأ بعد ذلك جملةً مبدوءةً بالنفي، والنفي يصح الابتداء به عادةً، وفيها واوٌ تحتمل العطف والاستئناف، وعلى كلا الاحتمالين يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ في قوله (إنْ)، وفعل الشرط (تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب)، ما النتيجة؟ وأين الجواب؟ (يردوكم بعد إيمانكم كافرين) فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وفيكم رسوله) جملةٌ معطوفةٌ على (وأنتم تتلى عليكم آيات الله)، والعطف هنا وثيق الصلة، ووجه ذلك أنه سبحانه بين أن أسباب الثبات متوفرةٌ عندهم فكيف يقعون في الكفر مع ذلك، فذكر سببين من أسباب الثبات: أنهم تتلى عليهم آيات الله، وأن فيهم رسول الله، فلذلك لم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وفيكم رسوله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الاستفهام قد انتهت، وهي التي ابتدأت بقوله (وكيف تكفرون) مع ما ارتبط بها من الحال، ثم ابتدأ بعدها جملةً شرطيةً في قوله (ومن يعتصم) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى أمرهم بأمرٍ ونهاهم عن نهيٍ، فصح الفصل بين الأمر والنهي، أمرهم بأن يتقوا الله حق تقاته، ونهاهم أن يموتوا إلا وهم مسلمون، ومن نظر إلى أن هذا النهي هو من تتمة الأمر يعني أن من اتقى الله حق تقاته لن يموت إلا وهو مسلمٌ وأن من اتقاء الله حق تقاته ألا نموت إلا ونحن مسلمون، لم يصحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (واعتصموا بحبل الله جميعًا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن هذا أمرٌ أُعقب بنهيٍ في قوله (ولا تفرقوا)، وهما معطوفان على بعضٍ، لكن إذا تأملنا فإن هذا النهي هو من تتمة الأمر يعني: أن من تتمة الاعتصام بحبل الله ألا نتفرق، فليس هو نهيًا مستقلاً في موضوعٍ مستقلٍ، إنما هو من تتمة الاعتصام بحبل الله، فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تفرقوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق قد انتهى الأمر به هنا، ثم ابتدأ بتذكيرهم نعمةً من نعمه عليهم، وذكر هذا الإنعام عليهم بشيءٍ من التفصيل، فصح الوقف هنا، وإن كانت الواو في قوله (واذكروا نعمة الله عليكم) واو عطفٍ إلا أنه من باب عطف الجمل، وجملة (واذكروا) قد ارتبط بها تفصيل ذكر ما أنعم به عليهم، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (واذكروا نعمة الله عليكم)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، ووجهه أن قوله (إذ كنتم أعداءً) هو من باب بيان وتفسير النعمة التي يريد الله سبحانه وتعالى أن يذكّرهم إياها، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إذ كنتم أعداءً)؟

الجواب: لا يصح، لأن بيان النعمة لم يأت بعد، وإنما هو بيان حالهم قبل النعمة، وقوله (فألّف بين قلوبكم) معطوفٌ على (كنتم أعداءً) فلم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (فألّف بين قلوبكم)؟

الجواب: لا يصح، لأن ذكر الإنعام لم ينته بعد، ولأن قوله (فأصبحتم) معطوفٌ على قوله (فألّف بين قلوبكم) فلم يصح الوقف هنا أيضًا.

وهل يصح الوقف على قوله (فأصبحتم بنعمته إخوانًا)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، إذ اعتبروا أن هذا نهاية بيان إنعامه عليهم، والله سبحانه وتعالى قد ذكر إنعامًا دنيويًا وإنعامًا أخرويًا، وهذا نهاية بيان الإنعام الدنيوي (إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا) يعني في الدنيا، ثم بدأ بيان الإنعام الأخروي في قوله (وكنتم على شفا حفرةٍ من النار) يعني: أنكم استحقيتم دخول النار فأنقذكم منها بهذا الدين وهو الإسلام، فمن نظر إلى هذا التفريق بين الإنعام الدنيوي والأخروي صحح الوقف هنا، واعتبر الواو في قوله (وكنتم) واوًا استئنافيةً،

ومن نظر إلى أنه كله من باب بيان الإنعام عليهم، وأن الواو في قوله (وكنتم) واوٌ حاليةٌ أو عاطفةٌ لم يصحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فأنقذكم منها)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد انتهى بيان الإنعام الدنيوي والأخروي هنا، ثم ابتدأ جملةً مستأنفةً على تقدير: يبين الله لكم آياته بيانًا كذلك، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ٩٣-١٠٣

(كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل...):

قال ابن كثير: ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان:

إحداهما: أن إسرائيل، عليه السلام، حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغا في شريعتهم، فله مناسبة بعد قوله: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}، فهذا هو المشروع عندنا وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه، كما قال: {وآتى المال على حبه}، وقال {ويطعمون الطعام على حبه}.

المناسبة الثانية: لما تقدم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح وتبين زيف ما ذهبوا إليه. وظهور الحق واليقين في أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى -شرع في الرد على اليهود، قبحهم الله، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله، عز وجل، قد نص في كتابهم التوراة أن نوحا عليه السلام، لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك. وكان الله عز وجل، قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك. وكان التسري على الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم، وقد فعله الخليل إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعا وقد فعله يعقوب، عليه السلام، جمع بين الأختين، ثم حرم ذلك عليهم في التوراة. وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح، عليه السلام، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم فما بالهم لا يؤمنون؟ تفسير ابن كثير (٢/ ٧٦).

(إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة):

قال ابن عباس: أخذه -يعني إسرائيل- عرقُ النسا، فكان لا يبيتُ بالليل من شدّة الوجع، وكان لا يؤذيه بالنهار، فحلف لئن شفاه الله لا يأكل عِرقًا أبدًا، وذلك قبل أن تنزل التوراة. فقال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم: نزلت التوراة بتحريم الذي حرم إسرائيل على نفسه. قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم: (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين)، وكذبوا، ليس في التوراة. تفسير الطبري (٦/ ١٠).

وعن ابن عباس: أن عصابة من اليهود حضرت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا أيّ الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرضَ مرضًا شديدًا، فطال سقمه منه، فنذر لله نذرًا لئن عافاه الله من سقْمه ليحرّمنّ أحبّ الطعام والشراب إليه، وكان أحبّ الطعام إليه لُحمان الإبل، وأحبّ الشراب إليه ألبانها؟) فقالوا: اللهم نعم. مسند أحمد (٤/ ٢٧٧)، تفسير الطبري (٦/ ١٥).

(قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين):

قال الزجاج: في هذه الآية أعظم دلالة لنبوة محمد نبينا صلى الله عليه وسلم، أخبرهم أنه ليس في كتابهم، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة فأبوا، يعني عرفوا أنه قال ذلك بالوحي. تفسير القرطبي (٤/ ١٣٥-١٣٦).

وقال السعدي: وهذا من أبلغ الحجج، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للحق فهو الواجب، وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان، تبين كذبه وافتراؤه، وظلمه وبطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود. تفسير السعدي (ص: ٩٧٠).

(فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا):

قال البغوي: وإنما دعاهم إلى اتباع ملة إبراهيم لأن في اتباع ملة إبراهيم اتباعه صلى الله عليه وسلم في جميع ما جاء به. تفسير البغوي (١/ ٤٧١).

(وما كان من المشركين):

قال الطبري: وإنما قال جل ثناؤه: (وما كان من المشركين)، يعني به: وما كان من عَدَدهم وأوليائهم. وذلك أن المشركين بعضهم من بعض في التظاهر على كفرهم، ونصرةِ بعضهم بعضًا. فبرأ الله إبراهيم خليله أن يكون منهم أو من نصرائهم وأهل ولايتهم. تفسير الطبري (٦/ ١٨).

(إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين):

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام» قال: قلت: ثم أي؟ قال «المسجد الأقصى» قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه». صحيح البخاري (٤/ ١٤٥)، صحيح مسلم (١/ ٣٧٠).

وقال ابن تيمية: والبيت زاده الله تشريفا وتعظيما ومهابة وبرا، وله الشرف من وجوه كثيرة:

منها: نفس البقعة شرفها الله على غيرها، كما شرف في بقية الأنواع بعض أشخاصها وكما خص بعض الناس بنوع من الفضل.

ومنها: أن الله بوأه لخليله إبراهيم خير البرية، فليس بعد محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيم الذي بناه ودعا الناس إليه.

ومنها: أنه جعل على الناس حج البيت، حتى حجه الأنبياء كموسى ويونس وغيرهما.

وفيه آيات كثيرة: مثل مقام إبراهيم، ومثل الأمان الذي جعله للناس والطير والوحش، ومثل إهلاك الجبابرة الذين قصدوا انتهاكه، إلى غير ذلك من العلامات والدلالات على حرمته وعظمته. {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} فلا يقتل الجاني فيه عند أحمد وأبي حنيفة، وكان الكفار يعظمونه حتى ليلقى الرجل قاتل أبيه فلا يقتله. والإسلام زاده حرمة. المستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٣).

قال ابن القيم: وصفه بخمس صفات:

أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض.

الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق.

الثالث: أنه هدى، وصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى.

الرابع: ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية.

الخامس: الأمن لداخله.

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه، وإن شطت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله: {وطهر بيتي للطائفين} لكفى بهذه الإضافة فضلا وشرفا، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حبا له وشوقا إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين، يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطرا أبدا، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبا وإليه اشتياقا، فلا الوصال يشفيهم، ولا البعاد يسلبهم، كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشُوقة ... إليه وهل بعد الطواف تداني

وألثُم منه الركنَ أطلب برد ما ... بقلبيَ من شوق ومن هيمان

فو الله ما أزداد إلا صبابة ... ولا القلب إلا كثرة الخفقان

فيا جنة المأوى ويا غاية المنى ... ويا منيتي من دون كل أمان

أبت غلباتُ الشوق إلا تقربا ... إليك فما لي بالبِعاد يدان

وما كان صدي عنك صدَ ملالة ... ولي شاهد من مقلتي ولساني

دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا ... فلبّى البكا والصبر عنك عصاني

وقد زعموا أن المحب إذا نأى ... سيَبلى هواه بعد طول زمان

ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا ... دواء الهوى في الناس كل أوان

بلى إنه يَبلى التصبر والهوى ... على حاله لم يَبله الملوان

وهذا محب قاده الشوق والهوى ... بغير زمام قائد وعنان

أتاك على بُعد المزار ولو ونت ... مطيته جاءت به القدمان. بدائع الفوائد (٢/ ٤٥-٤٦).

وقال ابن عاشور: وإنما كانت الأولية موجبة التفضيل لأن مواضع العبادة لا تتفاضل من جهة العبادة، إذ هي في ذلك سواء، ولكنها تتفاضل بما يحف بذلك من طول أزمان التعبد فيها، وبنسبتها إلى بانيها، وبحسن المقصد في ذلك، وقد قال تعالى في مسجد قباء: (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه)، وقد جمعت الكعبة جميع هذه المزايا. التحرير والتنوير (٤/ ١٥).

(للذي ببكّة):

قال البغوي: قال جماعة: هي مكة نفسها، وهو قول الضحاك، والعرب تعاقب بين الباء والميم، فتقول: سبد رأسه وسمده، وضربة لازب ولازم.

وقال الآخرون: (بكة) موضع البيت، ومكة: اسم للبلد كله، وقيل: بكة موضع البيت والمطاف، سميت بكة؛ لأن الناس يتباكّون فيها، أي: يزدحمون، يبكّ بعضهم بعضا، ويصلي بعضهم بين يدي بعض، ويمر بعضهم بين يدي بعض. وقال عبد الله بن الزبير: سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي تدقها فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله. تفسير البغوي (١/ ٤٧٢).

(مباركا):

قال الألوسي: (مباركا) أي: كثير الخير لما أنه يضاعف فيه ثواب العبادة، قاله ابن عباس.

وقيل: لأنه يغفر فيه الذنوب لمن حجه وطاف به واعتكف عنده.

وقال القفال: يجوز أن تكون بركته ما ذكر في قوله تعالى: (يُجبى إليه ثمرات كل شيء).

وقيل: بركته دوام العبادة فيه ولزومها. تفسير الألوسي (٢/ ٢٢٢)

(وهدى للعالمين):

قال السعدي: والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به، وأما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله تعالى في قوله {فيه آيات بينات} أي: أدلة واضحات، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما مَنَّ به على أوليائه وأنبيائه. تفسير السعدي (ص: ١٣٨).

(فيه آيات بينات...):

قال ابن جزي: (فيه آيات بينات) آيات البيت كثيرة، منها الحَجَر الذي هو مقام إبراهيم، وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت، فكان كلما طال البناء ارتفع به الحجر في الهواء حتى أكمل البناء، وغرقت قدم

إبراهيم في الحجر كأنها في طين، وذلك الأثر باق إلى اليوم... ومنها إهلاك أصحاب الفيل، ورد الجبابرة عنه، ونبع زمزم لهاجر أم إسماعيل بهمز جبريل بعقبه، وحفر عبد المطلب لها بعد دثورها، وأن ماءها ينفع لما شرب له، إلى غير ذلك. التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٦٠).

(مقام إبراهيم):

قال ابن جزي: مقام إبراهيم قيل: إنه بدل من الآيات أو عطف بيان، وإنما جاز بدل الواحد من الجمع لأن المقام يحتوي على آيات كثيرة لدلالته على قدرة الله تعالى، وعلى نبوة إبراهيم، وغير ذلك. وقيل: الآيات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، فعلى هذا يكون قوله: (ومن دخله) عطفا، وعلى الأول استئنافا. وقيل: التقدير منهن مقام إبراهيم، فهو على هذا مبتدأ، والمقام هو الحجر المذكور، وقيل: البيت كله، وقيل: مكة كلها. التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٦٠).

وقال ابن كثير: وقد كان ملتصقا بجدار البيت، حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى}. تفسير ابن كثير (٢/ ٧٩).

وقال السعدي: {مقام إبراهيم} يحتمل أن المراد به المقام المعروف... والآية فيه قيل أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات. وقيل إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه، ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها. تفسير السعدي (ص: ١٣٩).

(ومن دخله كان آمنا):

قال ابن تيمية: وأما قوله تعالى: {ومن دخله كان آمنا} فهذا من البيت. كما قال تعالى: {أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم}، وقال تعالى: {فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف}، وقال تعالى: {أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء}، فكانوا في الجاهلية يقتل بعضهم بعضا خارج الحرم، فإذا دخلوا الحرم أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يُهِجه، وكان هذا من الآيات التي جعلها الله فيه كما قال: {فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا} والإسلام زاد حرمته. فمذهب أكثر الفقهاء أن من أصاب حدا خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم لم يقم عليه الحد حتى يخرج منه، كما قال ابن عمر وابن عباس. وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد وغيرهما؛ لما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرا، وإنها لم تَحلّ لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ثم قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس). ومن ظن أن من دخل الحرم كان آمنا من عذاب الآخرة مع ترك الفرائض من الصلاة وغيرها ومع ارتكاب المحارم فقد خالف إجماع المسلمين، فقد دخل البيت من الكفار والمنافقين والفاسقين من هو من أهل النار بإجماع المسلمين. مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٤٣).

وقال ابن القيم: {ومن دخله كان آمنا}، وهذا إما خبر بمعنى الأمر لاستحالة الخلف في خبره تعالى، وإما خبر عن شرعه ودينه الذي شرعه في حرمه، وإما إخبار عن الأمر المعهود المستمر في حرمه في الجاهلية والإسلام، كما قال تعالى: {أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم}، وقوله تعالى: {وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء}، وما عدا هذا من الأقوال الباطلة فلا يلتفت إليه كقول بعضهم: {ومن دخله كان آمنا} من النار، وقول بعضهم: كان آمنا من الموت على غير الإسلام ونحو ذلك، فكم ممن دخله وهو في قعر الجحيم. زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٣٩١).

وقال ابن باز: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} يعني وجب أن يؤمن، وليس المعنى أنه لا يقع فيه أذى لأحد، ولا قتل، بل ذلك قد يقع، وإنما المقصود أن الواجب تأمين من دخله، وعدم التعرض له بسوء. مجموع فتاوى ابن باز (٣/ ٣٨٠).

(ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا):

قال ابن العربي: هذا من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب، إذا قال العربي: لفلان علي كذا فقد وكده وأوجبه. قال علماؤنا: فذكر الله سبحانه الحج بأبلغ ألفاظ الوجوب؛ تأكيدا لحقه، وتعظيما لحرمته، وتقوية لفرضه. أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٣٧٤).

وقال البغوي: ولوجوب الحج خمس شرائط: الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والاستطاعة، ولا يجب على الكافر ولا على المجنون، ولو حجا بأنفسهما لا يصح؛ لأن الكافر ليس من أهل القربة، ولا حكم لفعل المجنون، ولا يجب على الصبي ولا على العبد، ولو حج صبي يعقل، أو عبد يصح حجهما تطوعا، ولكن لا يسقط به فرض الإسلام عنهما، فلو بلغ الصبي أو أعتق العبد بعد ما حج واجتمع في حقه شرائط وجوب الحج، عليه أن يحج ثانيا.

ولا يجب على غير المستطيع لقوله تعالى: (من استطاع إليه سبيلا)، غير أنه لو تكلف فحج يسقط عنه فرض الإسلام، والاستطاعة نوعان، أحدهما: أن يكون قادرا مستطيعا بنفسه، والآخر: أن يكون مستطيعا بغيره.

أما الاستطاعة بنفسه، فأن يكون قادرا بنفسه على الذهاب، ووجد الزاد والراحلة. وتفصيله: أن يجد راحلة تصلح لمثله، ووجد الزاد للذهاب والرجوع، فاضلا عن نفقته ونفقة عياله ومن تلزمه نفقتهم وكسوتهم لذهابه ورجوعه، وعن دين يكون عليه، ووجد رفقة... ويشترط أن يكون الطريق آمنا، فإن كان فيه خوف من عدو مسلم أو كافر أو رصدي يطلب شيئا لا يلزمه... ولو لم يجد الراحلة لكنه قادر على المشي، أو لم يجد الزاد ولكن يمكنه أن يكتسب في الطريق لا يلزمه الحج، ويستحب لو فعل، وعند مالك يلزمه.

وأما الاستطاعة بالغير: فهي أن يكون الرجل عاجزا بنفسه، بأن كان زمنا أو به مرض غير مرجو الزوال، لكن له مال يمكنه أن يستأجر به من يحج عنه، يجب عليه أن يستأجر. تفسير البغوي (١/ ٤٧٤-٤٧٥)

عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تعجلوا إلى الحج – يعني الفريضة – فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له). مسند أحمد (٥/ ٥٨).

عن عكرمة: (ومن يبتغ غير الإسلام دينًا)، فقالت الملل: نحن المسلمون! فأنزل الله عز وجل: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)، فحجَّ المسلمون، وقعدَ الكفار. تفسير الطبري (٦/ ٥٧١).

(من استطاع إليه سبيلا):

عن ابن عباس قوله: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)، والسبيل، أن يصحّ بدن العبد، ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يُجْحف به. تفسير الطبري (٦/ ٣٨).

قال السعدي: أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلا، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث. وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها. تفسير السعدي (ص: ٩٧١).

وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال: لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فلينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين. الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ٢٧٥).

(ومن كفر فإن الله غني عن العالمين):

قال القرطبي: وأنكرت الملحدة الحج، فقالت: إن فيه تجريد الثياب وذلك يخالف الحياء، والسعي وهو يناقض الوقار، ورمي الجمار لغير مرمى وذلك يضاد العقل، فصاروا إلى أن هذه الأفعال كلها باطلة، إذ لم يعرفوا لها حكمة ولا علة، وجهلوا أنه ليس من شرط المولى مع العبد، أن يفهم المقصود بجميع ما يأمره به،

ولا أن يطلع على فائدة تكليفه، وإنما يتعين عليه الامتثال، ويلزمه الانقياد من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود. ولهذا المعنى كان عليه السلام يقول في تلبيته: (لبيك حقا حقا تعبدا ورقا لبيك إله الحق). تفسير القرطبي (٤/ ١٤٣).

وقال ابن تيمية: أخبر في القرآن أنه غني عن خلقه، لن يبلغوا نفعه فينفعوه، كما يبلغ بعضهم نفع بعض، كما قال: (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين)، وقال (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم)، وقال موسى: (إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد) بعد أن أخبرهم أن ربهم تأذن (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)، وقال سليمان: (هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم). جامع المسائل لابن تيمية (٦/ ٢٣٥-٢٣٦).

سبب نزول: (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله...):

عن زيد بن أسلم، قال: مرّ شأسُ بن قيس = وكان شيخًا قد عَسَا في الجاهلية، عظيمَ الكفر، شديد الضِّغن على المسلمين، شديدَ الحسد لهم = على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه. فغاظه ما رأى من جَماعتهم وألفتهم وصَلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع مَلأ بني قَيْلة بهذه البلاد! لا والله ما لنا معهم، إذا اجتمع ملأهم بها من قرار! فأمر فَتى شابًّا من يهودَ وكان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، وذَكّرهم يَوْم بعاث وما كان قبله، وأنشدْهم بعض ما كانوا تقاوَلوا فيه من الأشعار =وكان يوم بُعَاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفرُ فيه للأوس على الخزرج= ففعل. فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجُلان من الحيَّين على الرُّكَب: أوسُ بن قَيْظي، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس - وجبّار بن صخر، أحد بني سَلمة من الخزرج. فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رَدَدْناها الآن جَذَعَةً! وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاحَ السلاحَ!! موعدُكم الظاهرة =والظاهرةُ: الحَرَّة= فخرجوا إليها. وتحاوز الناس. فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغَ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من

أصحابه حتى جاءهم، فقال: (يا معشرَ المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُرِكم بعد إذْ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمرَ الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكَوْا، وعانقَ الرجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رَسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدوِّ الله شَأس بن قيس وما صنع. فأنزل الله في شأس بن قيس وما صنع: (قل يا أهل الكتاب لم تكفرُون بآيات الله والله شهيدٌ على ما تعملون * قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا) الآية. وأنزل الله عز وجل في أوس بن قَيْظيّ وجبّار بن صخر ومَنْ كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس بن قيس من أمر الجاهلية: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين) إلى قوله: (أولئك لهم عذابٌ عظيم). تفسير الطبري (٦/ ٥٥-٥٦).

(من آمن تبغونها عوجا):

قال برهان الدين الكرماني: قوله {من آمن تبغونها عوجا} ليس ههنا (به) ولا واو العطف، وفي الأعراف {من آمن به وتبغونها} بزيادة (به) وواو العطف؛ لأن القياس (آمن به) كما في الأعراف؛ لكنها حذفت في هذه السورة موافقة لقوله {ومن كفر} فإن القياس فيه أيضا (كفر به)، وقوله {تبغونها عوجا} ههنا حال، والواو لا تزداد مع الفعل إذا وقع حالا، نحو قوله {ولا تمنن تستكثر}، و {دابةُ الأرض تأكل منسأته}، وغير ذلك، وفي الأعراف عطف على الحال، والحال قوله {توعِدون}، و {تصدون} عطف عليه، وكذلك {تبغونها عوجا}. أسرار التكرار في القرآن (ص: ٩٢).

(وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله):

قال السعدي: ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لثبات المؤمنين على إيمانهم، وعدم تزلزلهم عن إيقانهم، وأن ذلك من أبعد الأشياء، فقال: {وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله} أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجبها، والجزم بمقتضاها، وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصا والمبين لها أفضل الخلق

وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فصلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلّغ البلاغ المبين، فلم يُبق في نفوس القائلين مقالا، ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالا. تفسير السعدي (ص: ١٤١).

وقال أيضا: أنتم يا معشر المؤمنين بعدما من الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله الذي هو دينه، يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية، وأفضل مطلوب. تفسير السعدي (ص: ٩٧١).

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته):

قال ابن تيمية: قال السلف: ابن مسعود وغيره: كالحسن، وعكرمة، وقتادة، ومقاتل: حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى. وبعضهم يرويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم. وفي تفسير الوالبي عن ابن عباس قال: هو أن يجاهد العبدُ في الله حق جهاده، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم، وأن يقوموا له بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

وفي الآية الأخرى: {فاتقوا الله ما استطعتم} وهذه مفسرة لتلك. ومن قال من السلف هي ناسخة لها، فمعناه أنها رافعة لما يظن من أن المراد من حق تقاته: ما يعجز البشر عنه، فإن الله لم يأمر بهذا قط. ومن قال إن الله أمر به، فقد غلط. ولفظ النسخ في عرف السلف يدخل فيه كل ما فيه نوع رفع لحكم، أو ظاهر، أو ظن دلالة حتى يسموا تخصيص العام نسخا، ومنهم من يسمي الاستثناء نسخا إذا تأخر نزوله. منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٩٠).

قال السعدي: وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم} وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جدا، يجمعها فعل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه. تفسير السعدي (ص: ١٤١).

عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ({يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون}، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت، لأمرت على أهل الأرض عيشهم، فكيف من ليس لهم طعام إلا الزقوم). مسند أحمد (٤/ ٤٦٧)، سنن الترمذي (٤/ ٢٨٨)، سنن ابن ماجه (٢/ ١٤٤٦).

(ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون):

قال ابن كثير: أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذا بالله من خلاف ذلك. تفسير ابن كثير (٢/ ٨٧).

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا):

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا، فيرضى لكم: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال). صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٠).

قال عبد الله بن مسعود: (إن هذا الصراط محتضر، تحضره الشياطين ينادون: يا عباد الله، هذا الطريق فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله القرآن). سنن الدارمي (٤/ ٢٠٩١)، تفسير الطبري (٧/ ٧٢).

عن عبد الله بن مسعود قال: (إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه. سنن الدارمي (٤/ ٢٠٨٩-٢٠٩٠).

عن عبد الله بن مسعود أنه قال: (يا أيها الناس، عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمرَ به، وإنّ ما تكرهون في الجماعة والطاعة، هو خيرٌ مما تستحبون في الفرقة). تفسير الطبري (٧/ ٧٥)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٥٩٨).

قال البقاعي: {جميعا} لا تدعوا أحدا منكم يشذ عنها، بل كلما عثرتم على أحد فارقها ولو قيد شبر فردوه إليها، ولا تنظروه، ولا تهملوا أمره، ولا تغفلوا عنه فيختل النظام، وتتعبوا على الدوام، بل تزالوا كالرابط ربطا شديدا حزمة نبل بحبل، لا يدع واحدة منها تنفرد عن الأخرى، ثم أكد ذلك بقوله: {ولا تفرقوا}. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ١٦).

وقال السعدي: أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام. تفسير السعدي (ص: ١٤٢).

(واذكروا نعمة الله عليكم):

قال السعدي: وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرا له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها. تفسير السعدي (ص: ١٤٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ٩٣-١٠٣

١- من أقوى الحجج عند مناظرة المخالف: الاحتجاج عليه بما ورد في المصادر التي يعتمدها هذا المخالف ويحتجّ بها، فذلك أقطع لحجّته، وأسرع في دحض شبهته، وأبين لتناقضه (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين).

٢- احذر من نسبة شيء ليس من الدين إلى الدين، فإن ذلك من افتراء الكذب على الله، وهو عين الظلم الذي يبوء صاحبه بالخسران العظيم (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون).

٣- الله سبحانه صادق في أخباره كلها، فيجب عليك أن تتلقى أخبار الله بالتصديق الجازم والتسليم التام، سواء منها ما وقع في الماضي منذ بدء الخليقة، وما يجري في الكون حالا، وما سيكون في المستقبل إلى قيام الساعة والحساب والجزاء (قل صدق الله).

٤- المسجد الحرام أعظم موضع على وجه الأرض، فهو أول بيت وضع للناس، وفيه من البركات الدينية لمن تعبّد لله فيه ما لا يحصى، وهو مصدر هداية وسعادة وفلاح للمؤمنين، وفيه من الآيات البينات على قدرة الله وعظمته، وعلى مكانته عند الله الشيء الكثير، ومنها مقام إبراهيم عليه السلام، ومن دخله فإنه يجب أن يؤمّن من الأذى والتخويف، وهو وحده موضع حجّ المسلمين وعمرتهم وطوافهم، فلذلك تشتاق إليه نفوس المؤمنين، فإذا يسّر الله لك زيارته فكن معظما لحقه، مقدّسا لحرمته، مجتنبا الوقوع في أي معصية فيه، حذرا من الاعتداء على أحد من الناس فيه بقول أو فعل، مجتنبا قطع شجره أو تنفير صيده (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا).

٥- بادر إلى أداء فريضة الحج متى ما تيسّر لك، فإن في ذلك مسارعة إلى الخيرات، ومنافسة في الطاعات، وأنت لا تدري ما يعرض لك في قابل الأيام، فالبدار البدار، واستعن على ذلك بكثرة الدعاء (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا).

٦- اعلم أنك بإيمانك وطاعتك وتقواك إنما تنفع نفسك، فإن أعرضت فإنك لا تضر إلا نفسك، ولن تضر الله شيئا، والله غني عنك وعن عبادتك، فاعمل بشرع الله لتحقق مصالحك في دنياك وآخرتك (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين).

٧- احذر من أولئك الذين يصدون عن سبيل الله بالطرق الملتوية، والشبهات المصطنعة، فيشككونك في شيء من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بعض الأحكام الشرعية، وقد يتظاهرون بمظهر الإصلاح والتجديد، فاحذرهم فإنهم إنما يريدون أن يردوك بعد إيمانك كافرا، فانجُ بدينك (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون * يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين).

٨- كيف يقع في الكفر من يجد بين يديه كتاب الله وسنة وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فإنك إن تمسّكت بهما حقا رسخت قدمك في الإيمان رسوخ الجبال الرواسي، فلا يتزعزع إيمانك حينها لشبهة تمرّ أو مصيبة تنزل، ولا يقدر أهل الكفر كلُهم بجحافلهم وخيلهم ورجلهم أن يردّوك عن دينك، أو يُزحزحوك عنه قيد أنملة (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم).

٩- اجعل تقوى الله نصب عينيك في كل ما تأتي وتذر، وذلك بطاعته وشكره وذكره، وعدم عصيانه وكفره ونسيانه، واعلم أنك بملازمتك للتقوى في حال صحتك وشبابك وغناك وأمنك توفّق للخاتمة الحسنة، فإن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

١٠- يجب علينا جميعا أن نتمسّك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ونتعاون على ذلك، ونكون صفا واحدا مجتمعين على الحق والهدى، وذلك لا يتحقق إلا بلزوم غرز العلماء العاملين، والصدور عن أقوالهم، والأخذ بآرائهم، ولنحذر من أن نتفرّق شيعا وأحزابا وجماعات وفرقا، واعلم أننا إذا تفرّقنا أحدثنا خروقا في سفينة الإسلام فتبدأ بالغرق أمام سفن الأعداء، بل الواجب علينا إن وقع أحد منا في مخالفة في عقيدة أو عمل أن ننصحه بالتي هي أحسن، ونأخذ بيده

نحو جادّة الصواب بالرفق واللين، حتى لا يُحدث خرقا في السفينة فتغرق، فبذلك تظهر قوة المسلمين، ويهابهم أعداؤهم، والله المستعان (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا).

١١- اذكر نعمة الله عليك في كل شيء، واعلم أن الله يحب منك ذلك، وأنك تزداد محبة لله بذلك، وأعظم نعمه على الإطلاق: نعمة الهداية للإسلام الذي جمع الله به قلوب المؤمنين فأصبحوا إخوة متعاونين، ونجّاهم الله به من النار، ولولا فضل الله عليك ورحمته لكنت من الكافرين الذين يعيشون في الدنيا حياة البهائم، ثم يخلّدون في النار في الآخرة (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١٠٤-١١٥) من التفسير الميسّر

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)

ولتكن منكم -أيها المؤمنون- جماعة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف، وهو ما عُرف حسنه شرعًا وعقلا وتنهى عن المنكر، وهو ما عُرف قبحه شرعًا وعقلا وأولئك هم الفائزون بجنات النعيم.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)

ولا تكونوا -أيها المؤمنون- كأهل الكتاب الذين وقعت بينهم العداوة والبغضاء فتفرَّقوا شيعًا وأحزابًا، واختلفوا في أصول دينهم من بعد أن اتضح لهم الحق، وأولئك مستحقون لعذابٍ عظيم موجع.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)

يوم القيامة تَبْيَضُّ وجوه أهل السعادة الذين آمنوا بالله ورسوله، وامتثلوا أمره، وتَسْوَدُّ وجوه أهل الشقاوة ممن كذبوا رسوله، وعصوا أمره. فأما الذين اسودَّت وجوههم، فيقال لهم توبيخًا: أكفرتم بعد إيمانكم، فاخترتم الكفر على الإيمان؟ فذوقوا العذاب بسبب كفركم.

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)

وأما الذين ابيضَّتْ وجوهم بنضرة النعيم، وما بُشِّروا به من الخير، فهم في جنة الله ونعيمها، وهم باقون فيها، لا يخرجون منها أبدًا.

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)

هذه آيات الله وبراهينه الساطعة، نتلوها ونقصُّها عليك -أيها الرسول- بالصدق واليقين. وما الله بظالم أحدًا من خلقه، ولا بمنقص شيئًا من أعمالهم؛ لأنه الحاكم العدل الذي لا يجور.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

ولله ما في السموات وما في الأرض، ملكٌ له وحده خلقًا وتدبيرًا، ومصير جميع الخلائق إليه وحده، فيجازي كلا على قدر استحقاقه.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)

أنتم - يا أمة محمد - خير الأمم وأنفع الناس للناس، تأمرون بالمعروف، وهو ما عُرف حسنه شرعًا وعقلا وتنهون عن المنكر، وهو ما عُرف قبحه شرعًا وعقلا وتصدقون بالله تصديقًا جازمًا يؤيده العمل. ولو آمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من عند الله كما آمنتم، لكان خيرا لهم في الدنيا والآخرة، منهم المؤمنون المصدقون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم العاملون بها، وهم قليل، وأكثرهم الخارجون عن دين الله وطاعته.

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)

لن يضركم هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب إلا ما يؤذي أسماعكم من ألفاظ الشرك والكفر وغير ذلك، وإن يقاتلوكم يُهْزَموا، ويهربوا مولِّين الأدبار، ثم لا ينصرون عليكم بأي حال.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

جعل الله الهوان والصغار أمرًا لازمًا لا يفارق اليهود، فهم أذلاء محتقرون أينما وُجِدوا، إلا بعهد من الله وعهد من الناس يأمنون به على أنفسهم وأموالهم، وذلك هو عقد الذمة لهم وإلزامهم أحكام الإسلام، ورجعوا بغضب من الله مستحقين له، وضُربت عليهم الذلَّة والمسكنة، فلا ترى اليهوديَّ إلا وعليه الخوف والرعب من أهل الإيمان؛ ذلك الذي جعله الله عليهم بسبب كفرهم بالله، وتجاوزهم حدوده، وقَتْلهم الأنبياء ظلمًا واعتداء، وما جرَّأهم على هذا إلا ارتكابهم للمعاصي، وتجاوزهم حدود الله.

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)

ليس أهل الكتاب متساوين: فمنهم جماعة مستقيمة على أمر الله مؤمنة برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، يقومون الليل مرتلين آيات القرآن الكريم، مقبلين على مناجاة الله في صلواتهم.

يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)

يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالخير كله، وينهون عن الشر كلِّه، ويبادرون إلى فعل الخيرات، وأولئك مِن عباد الله الصالحين.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

وأيُّ عمل قلَّ أو كَثُر من أعمال الخير تعمله هذه الطائفة المؤمنة فلن يضيع عند الله، بل يُشكر لهم، ويجازون عليه. والله عليم بالمتقين الذين فعلوا الخيرات وابتعدوا عن المحرمات؛ ابتغاء رضوان الله، وطلبًا لثوابه.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١٠٤-١١٥)

الكلمة	المعنى
إلا أذى	إلا ضررا يسيرا يؤذي أسماعكم فقط
يولّوكم الأدبار	يهربوا منكم وينهزموا
ثُقِفُوا	وُجِدُوا
بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس	بعهد وأمان من الله ومن الناس
وباءُوا	ورَجَعُوا
ليسوا سواء	ليس أهل الكتاب بِمُستوِين
أمةٌ قائمة	طائفةٌ مستقيمة ثابتة على الحق
آناءَ الليل	ساعاتِ الليل
فلن يُكفرُوه	فلن يُحرموا أجره

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١٠٤-١١٥

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الرابعة بعد المائة وحتى الآية الخامسة عشرة بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى: (ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعدها جملة معطوفة عليها عطفًا وثيق الصلة في قوله (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر بأن تكون منا أمةٌ يجمعون هذه الأوصاف الثلاثة، فهم يدعون إلى الخير، وهم يأمرون بالمعروف، وهم ينهون عن المنكر، فلا وقف بين هذه الجمل، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وينهون عن المنكر)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن قوله (وأولئك هم المفلحون) خبرٌ بعد أمرٍ، أين الأمر؟ في قوله (ولتكن منكم أمة)، ثم أخبر عن هذه الأمة الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أنهم هم المفلحون، فصحّ الفصل بين الأمر والخبر، هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى الجملة في قوله (وأولئك هم المفلحون) جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ) أيضًا خبرٌ بعد نهيٍ، النهي في قوله (ولا تكونوا...) إلى آخر الجملة، ثم أخبر عن هؤلاء الذين يتفرقون ويختلفون من بعد ما تأتيهم البينات أن لهم عذابًا عظيمًا، هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى قوله (وأولئك) جملةٌ مستأنفةٌ، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (يوم تبيضّ وجوهٌ وتسودّ وجوهٌ) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بيان ما يحصل يوم القيامة من ابيضاض الوجوه واسودادها قد انتهى هنا، ثم جاء بعدها بتفصيلٍ لذلك، وبيانٍ وتفسيرٍ لمن يبيض وجهه ومن يسود

وجهه، وابتدأ ذلك بجملةٍ شرطيةٍ، فصح الوقف هنا والابتداء بقوله (فأما الذين اسودت وجوههم...) إلى آخر الجملة.

وهل يصح الوقف على قوله (أكفرتم بعد إيمانكم)؟

نص على الوقف هنا الأشموني تجويزًا، ونص الأنصاري على أن الوقف هنا صالحٌ، ولم ينص عليه غيرهما من علماء الوقف والابتداء، ولم توضع هنا أي علامةٍ للوقف في المصاحف المطبوعة، وإذا تأملنا فإن جملة الشرط التي ابتدأت بقوله (فأما الذين اسودت وجوههم) قد انتهت عند قوله (أكفرتم بعد إيمانكم) فإن جواب الشرط مقدرٌ: فيقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم، ثم ذكر جزاءهم بفاءٍ دالةٍ على شرطٍ محذوفٍ، فهو جواب شرطٍ مقدرٍ، كأنه قال: فإذا كفرتم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، فالوقف هنا محتملٌ، والوصل أولى، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (هم فيها خالدون) تحتمل أن تكون جملةً مستأنفةً وتحتمل أن تكون حالاً، كأنه قال: ففي رحمة الله خالدين فيها يتنعمون، ولعل هذا أقرب، ومن ناحيةٍ أخرى فإن جملة (هم فيها خالدون) مملوءة بالضمائر العائدة إلى الجملة التي قبلها، فالأوجه هنا عدم الوقف، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي فيها بيان أن آيات الله تتلى على رسوله صلى الله عليه وسلم بالحق قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً مستأنفةً مبدوءةً بالنفي في قوله (وما الله يريد ظلمًا للعالمين)، والنفي والاستئناف يصح الابتداء بهما، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ولله ما في السماوات وما في الأرض) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الله سبحانه وتعالى بين في هذه الآية أن له ملك السماوات والأرض، ثم بين أن إليه ترجع الأمور، فهو سبحانه بين أمرين: الأمر الأول أنه يملك ما في السموات وما في الأرض، والأمر الثاني أن جميع الناس يرجعون إليه للحساب والجزاء يوم القيامة، وبينهما فرقٌ فصح الفصل بينهما لذلك، هذا من ناحيةٍ معنويةٍ، ومن الناحية اللفظية فإن قوله (وإلى الله

ترجع الأمور) جملةٌ تحتمل أن تكون استئنافًا وهو الأقرب، وتحتمل أن تكون معطوفةً عطف جمل، وعلى كلا الوجهين يصح الوقف، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك النحاس، وذلك أن قوله (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) هو كالشرط لهذه الخيرية، فليست الخيرية خيريةً مطلقةً حتى نقوم بهذه الأمور وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، أو يقال: إن الخيرية لهذه الأمة خيريةٌ مطلقةٌ لأنها من صفتها أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وعلى كلا الوجهين لا وقف على قوله (أخرجت للناس) والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (تأمرون بالمعروف) أو على قوله (وتنهون عن المنكر)؟

الجواب: لا يصح، لأنها جملٌ معطوفاتٌ على بعضٍ عطفًا وثيق الصلة، لأن وصف الأمة بالخيرية قائمٌ على هذه الأوصاف الثلاثة كاملةً أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

وهل يصح الوقف على قوله (وتؤمنون بالله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وبيان ذلك أن الأوصاف التي وصفت بها هذه الأمة والتي استحقت الخيرية لأجلها قد انتهت هنا، ثم ابتدأ جملةً شرطيةً في بيان ما يتعلق بأهل الكتاب بقوله (ولو آمن أهل الكتاب...) إلى آخر الجملة، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت، فأداة الشرط (لو)، وفعل الشرط (آمن أهل الكتاب)، وجواب الشرط (لكان خيرًا لهم)، وهي جملة تحضيضٍ على الإيمان وحثٍ لهم على الإيمان، ثم بين حالهم من الإيمان، فصح الفصل بين حثهم على الإيمان وبين بيان حالهم.

الآية التي تليها: (لن يضروكم إلا أذى) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن جملة النفي قد انتهت، وهي جملة (لن يضروكم إلا أذى)، ثم جاءت جملة شرطية مبدوءة بقوله (وإن يقاتلوكم) فصح الفصل بين جملة النفي وجملة الشرط، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الله سبحانه وتعالى بين في الجملة الأولى أن

الضرر الذي يحصل منهم مجرد أذى يسير، ثم بين في الجملة الثانية حالهم عند القتال، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (ثم لا يُنصرون) جملة مستأنفة وليست معطوفة، وإن كانت (ثم) أداة للعطف، لكنها هنا من باب ترتيب الأخبار وليست للعطف، ودليل ذلك أنها جاءت مرفوعةً، بدليل إثبات النون في قوله (يُنصرون)، ولو كانت معطوفةً على جواب الشرط في قوله (يولوكم) لكانت: ثم لا ينصروا بحذف النون للجزم، لأنها معطوفةٌ على مجزومٍ وهو قوله (يولوكم)، فلما صارت مرفوعة بإثبات النون دل على أنها منقطعة عن الجملة التي قبلها لا معطوفةٌ عليها، هذا من ناحيةٍ لفظيةٍ، ومن ناحيةٍ معنويةٍ التولي الذي يحصل منهم مترتبٌ على المقاتلة، أما نفي النصر فهو منفيٌ عنهم أبدًا سواءً قاتلوا أم لم يقاتلوا، لأن سببه وقوعهم في الكفر، فليس نفي النصر مترتبٌ على المقاتلة، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها (ضُربت عليهم الذلة أينما ثُقفوا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي دون غيره من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن بعدها قوله (إلا بحبلٍ من الله) وهي استثناءٌ، والأصل أنه لا يصح الوقف قبل الاستثناء، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (وباؤوا بغضبٍ من الله) جملةٌ معطوفةٌ على قوله (ضُربت عليهم الذلة)، وبينهما فاصلٌ بالاستثناء في قوله (إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس)، وهي كذلك جملةٌ مستقلةٌ قائمةٌ بنفسها، فالعطف بينها وبين الجملة السابقة ليس عطفًا وثيق الصلة، وذلك لأنها جملةٌ قائمةٌ بنفسها في بيان حكمٍ في أنهم رجعوا بغضبٍ من الله، ولأنه فصل بينها وبين ما عطفت عليه باستثناءٍ مرتبطٍ بالجملة الأولى فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وباؤوا بغضبٍ من الله)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (وضُربت عليهم المسكنة) معطوفةٌ أيضًا على جملة (ضُربت عليهم الذلة)، والعطف هنا ليس وثيق الصلة، لأنه خبرٌ مستقلٌ في أنه ضربت عليهم المسكنة، وهو خبرٌ قائمٌ بنفسه، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وضُربت عليهم المسكنة)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) جملة مستأنفة فيها بيان سبب ما وقعوا فيه من الذلة والمسكنة والغضب من الله سبحانه وتعالى، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ويقتلون الأنبياء بغير حقٍ) جملةٌ معطوفةٌ عطفًا وثيق الصلة على قوله (يكفرون بآيات الله)؛ لأنها من باب بيان سبب ما وقعوا فيه وما حصل لهم من الذلة والمسكنة والغضب، فالسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله، وأنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، فعوقبوا بما عوقبوا به لوقوعهم في هذين الأمرين، فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويقتلون الأنبياء بغير حق)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء؛ لأن جملة (ذلك بما عصوا) جملةٌ مستأنفةٌ، وإن كانت قد تضمنت بيان سبب ما حصل لهم، إلا أنها جملةٌ مستقلةٌ بنفسها لفظيًا لأن فيها مبتدأً وخبرًا، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ليسوا سواءً) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن جملة (ليس) قد تمت هنا، فـ(ليس) لها اسمٌ وخبرٌ، اسمها (الواو) وخبرها (سواءً)، وتقديره: ليس أهل الكتاب سواءً، ثم إذا نظرنا في الجملة التي تليها وهي قوله (من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ) فهي جملةٌ مستأنفةٌ اشتملت على مبتدأ مؤخر في قوله (أمةٌ قائمةٌ) وخبرها مقدمٌ في قوله (من أهل الكتاب)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (من أهل الكتاب أمةٌ قائمة)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى وصف هذه الأمة بعدة أوصافٍ، بدأها بقوله (يتلون آيات الله آناء الليل)، ثم وصفهم بأنهم (يسجدون)، ثم وصفهم بأنهم (يؤمنون بالله واليوم الآخر)، ثم وصفهم بأنهم (يأمرون بالمعروف)، ثم وصفهم بأنهم (ينهون عن المنكر)، ثم وصفهم بأنهم (يسارعون في الخيرات)، فلا يصح الفصل بين هذه الأوصاف وإن كانت جملاً معطوفاتٍ على بعضها، لأن هذه

الأ،وصاف من تتمة بيان حال هذه الأمة القائمة المستقيمة على أمر الله سبحانه وتعالى، إلا أنه يصح الوقف على رأس الآية في قوله (وهم يسجدون) وهو رأس آية.

وهل يصح الوقف على قوله (ويسارعون في الخيرات)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن أوصاف هذه الأمة القائمة قد انتهت هنا، ثم ابتدأ بعد ذلك جملةً مستأنفةً في قوله (وأولئك من الصالحين) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية الأخيرة: (وما يفعلوا من خيرٍ فلن يُكفروه) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، أين الشرط؟ في قوله (ما)، فعل الشرط (يفعلوا من خير)، جوابه (فلن يُكفروه)، ثم جاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله عليمٌ بالمتقين)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١٠٤-١١٥

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر):

قال ابن تيمية: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا} إلى قوله: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون} فمن الأمر بالمعروف: الأمر بالائتلاف والاجتماع؛ والنهي عن الاختلاف والفرقة. مجموع الفتاوى (٣/ ٤٢١).

وقال أيضا: هؤلاء الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أطباء الأديان، الذين تشفى بهم القلوب المريضة، وتهتدي بهم القلوب الضالة، وترشد بهم القلوب الغاوية، وتستقيم بهم القلوب الزائغة، وهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى. جامع المسائل لابن تيمية (٥/ ٢٣٧).

وقال أيضا: هذه الآية بها استدل المستدلون على أن شيوخ الدين يقتدى بهم في الدين، فمن لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين ولا ممن يقتدى به. مجموع الفتاوى (١١/ ٥١٠).

وقال أيضا: قال تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون}. فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله؛ ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة، فأمته لا تجتمع على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز لم يطالب به. وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به؛ ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا، وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى؛ فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب؛ فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة وفي الوقوع أخرى.

وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم؛ لكنها فرض على الكفاية وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما

جاء به الرسول والجهاد في سبيل الله وتعليم الإيمان والقرآن. وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦٥-١٦٧).

وقال أيضا: صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، قال الله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر}، وقال تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}، وقال تعالى: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}، وقال تعالى عن بني إسرائيل: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}، وقال تعالى: {فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون}، فأخبر الله تعالى أن العذاب لما نزل نجى الذين ينهون عن السوء وأخذ الظالمين بالعذاب الشديد. وفي الحديث الثابت: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم} وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده). وفي حديث آخر: (إن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ولكن إذا ظهرت فلم تُنكر ضرّت العامة). مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٠٦-٣٠٧).

وقال ابن كثير: والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان). وفي رواية: (وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)... وعن حذيفة بن اليمان، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعُنّه فلا يستجيب لكم). تفسير ابن كثير (٢/ ٩١)

وقال السعدي: ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع، كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين، وتفقد أهل الأسواق، ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: {ولتكن منكم أمة} إلخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العُدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه. تفسير السعدي (ص: ١٤٢).

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا). صحيح البخاري (٣/ ١٣٩).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)، ثم قال: {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم} إلى قوله {فاسقون}، ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا». سنن أبي داود (٤/ ١٢١)، سنن الترمذي (٥/ ١٠٣)، مسند أحمد (٦/ ٢٥١).

(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات):

قال ابن تيمية: كره النبي صلى الله عليه وسلم من المجادلة ما يفضي إلى الاختلاف والتفرق، فخرج على قوم من أصحابه وهم يتجادلون في القدر، فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان وقال: (أبهذا أمرتم؟ أم إلى هذا دعيتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض). مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٧١).

وقال ابن القيم: الله سبحانه ذم الاختلاف في كتابه، ونهى عن التفرق والتنازع، فقال: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه}، وقال: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات}، وقال: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء}، وقال: {وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم}، وقال: {فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون}، والزبر: الكتب، أي كل فرقة صنفوا كتبا أخذوا بها وعملوا بها ودعوا إليها دون كتب الآخرين كما هو الواقع سواء...
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»، وقال: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا»، وكان التنازع والاختلاف أشد شيء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان إذا رأى من الصحابة اختلافا يسيرا في فهم النصوص يظهر في وجهه حتى كأنما فقئ فيه حب الرمان ويقول: «أبهذا أمرتم». إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٩٧).

وقال ابن عثيمين: النهي عن التفرق بعد ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدل على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للتفرق، وذلك أن الناس إذا كانت لهم مشارب متعددة مختلفة تفرقوا، فهذا يعمل طاعة، وهذا يعمل معصية، وهذا يسكر، وهذا يصلي، وما أشبه ذلك، فتتفرق الأمة، ويكون لكل طائفة مشرب، ولهذا قال: (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا). إذن لا يجمع الأمة إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلو أن الأمة أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، وتحاكمت إلى الكتاب والسنة، ما تفرقت أبداً، ولحصل لهم الأمن. شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٠٩).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحب منكم أن ينال بحبوحة الجنة، فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد). مسند أحمد (١/ ٣١٠) سنن الترمذي (٤/ ٣٥).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني: الأهواء -، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله). مسند أحمد (٢٨/ ١٣٤)، وسنن أبي داود (٤/ ١٩٨).
وفي لفظ: قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي). سنن الترمذي (٤/ ٣٢٣).

(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه):
قال البغوي: قال أهل المعاني: ابيضاض الوجوه: إشراقها واستبشارها وسرورها بعملها وبثواب الله تعالى، واسودادها: حزنها وكآبتها وكسوفها بعملها وبعذاب الله، يدل عليه قوله تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة)، وقال تعالى: (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة)، وقال: (وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة)، وقال: (وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة). تفسير البغوي (١/ ٤٩٠).

قال ابن تيمية: قال بعض السلف: لو ادهن صاحب البدعة كل يوم بدهان، إن سواد البدعة لفي وجهه. وهذه الأمور تظهر يوم القيامة ظهورا تاما. قال تعالى: (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين * وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون}، وقال تعالى: {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون} قال ابن عباس وغيره: تبيضّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفرقة. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٤٩٠-٤٩١).

(فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم):

قال البغوي: فإن قيل: كيف قال (أكفرتم بعد إيمانكم)، وهم لم يكونوا مؤمنين؟

قيل: حكي عن أبي بن كعب أنه قال: أراد به الإيمان يوم الميثاق، حين قال لهم ربهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، يقول: أكفرتم بعد إيمانكم يوم الميثاق؟

وقال الحسن: هم المنافقون تكلموا بالإيمان بألسنتهم، وأنكروا بقلوبهم.

وقال عكرمة: هم أهل الكتاب آمنوا بأنبيائهم وبمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث، فلما بعث كفروا به. تفسير البغوي (١/ ٤٩٠).

وقال الطبري: وأولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بالصواب، القولُ الذي ذكرناه عن أبي بن كعب أنه عنى بذلك جميع الكفار، وأنّ الإيمان الذي يوبَّخُون على ارتدادهم عنه، هو الإيمان الذي أقروا به يوم قيل لهم: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)، وذلك أن الله جل ثناؤه جعل جميعَ أهل الآخرة فريقين: أحدهما سودًا وجوهه، والآخر بيضًا وجوهه. فمعلوم -إذ لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان- أن جميع الكفار داخلون في فريق من سُوِّد وجهه، وأن جميع المؤمنين داخلون في فريق من بُيِّض وجهه. فلا وجه إذًا لقول قائل: عنى بقوله: (أكفرتم بعد إيمانكم)، بعض الكفار دون بعض، وقد عمّ الله جل ثناؤه الخبرَ عنهم جميعهم، وإذا دخل جميعهم في ذلك، ثم لم يكن لجميعهم حالة آمنوا فيها ثم ارتدوا كافرين بعدُ إلا حالة واحدة، كان معلومًا أنها المرادة بذلك. تفسير الطبري (٧/ ٩٥-٩٦).

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليّ منكم، وسيؤخذ ناس دوني، فأقول: يا رب مني ومن أمتي، فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك، والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم). فكان ابن أبي مليكة يقول: «اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن عن ديننا». صحيح البخاري (٨/ ١٢١)، صحيح مسلم (٤/ ١٧٩٤).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا». صحيح مسلم (١/ ١١٠).

(وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله):

قال الألوسي: وإنما عبر عن ذلك بالرحمة إشعارا بأن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى فإنه لا ينال ما ينال إلا برحمته تعالى ولهذا ورد في الخبر «لن يدخل أحدكم الجنة عمله فقيل له: حتى أنت يا رسول الله؟ فقال: حتى أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته». تفسير الألوسي (٢/ ٢٤٢).

وقال السعدي: وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين. تفسير السعدي (ص: ١٤٣).

(وما الله يريد ظلما للعالمين * ولله ما في السماوات وما في الأرض):

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: أنه يعاقب الذين كفروا بعد إيمانهم بما ذكر أنه معاقبهم به من العذاب العظيم وتسويد الوجوه، ويثيب أهلَ الإيمان به الذين ثبتوا على التصديق والوفاء بعهودهم التي عاهدوا عليها بما وصفَ أنه مثيبهم به من الخلود في جنانه، من غير ظلم منه لأحد الفريقين فيما فعل، لأنه لا حاجة به إلى الظلم، وذلك أن الظالم إنما يظلم غيره ليزداد إلى عزه عزة بظلمه إياه، أو إلى سلطانه سلطانًا، أو إلى ملكه ملكًا... فأما من كان له جميع ما بين أقطار المشارق والمغارب، وما في الدنيا والآخرة، فلا معنى لظلمه أحدًا، فلا يجوز أن يظلم شيئًا، لأنه ليس من أسبابه شيء ناقصٌ يحتاج إلى تمام، فيتم ذلك بظلم غيره، تعالى الله علوًّا كبيرًا. ولذلك قال جل ثناؤه عَقِيب قوله: (وما الله يريد ظلمًا للعالمين)، (ولله ما في السماوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور). تفسير الطبري (٧/ ٩٨-٩٩).

(كنتم خير أمة أخرجت للناس):

قال الطبري: فإن سأل سائل فقال: وكيف قيل: (كنتم خير أمة)، وقد زعمتَ أن تأويل الآية: أنّ هذه الأمة خيرُ الأمم التي مضت، وإنما يقال: (كنتم خير أمة)، لقوم كانوا خيارًا فتغيَّروا عما كانوا عليه؟

قيل: إنّ معنى ذلك بخلاف ما ذهبتَ إليه، وإنما معناه: أنتم خير أمة، كما قيل: (واذكروا إذ أنتم قليل)، وقد قال في موضع آخر: (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم)، فإدخال (كان) في مثل هذا وإسقاطها بمعنى

واحد، لأن الكلام معروف معناه. ولو قال أيضا في ذلك قائل: (كنتم) بمعنى التمام، كان تأويله: خُلقتم خير أمة، أو: وجدتم خير أمة، كان معنى صحيحًا. تفسير الطبري (٧/ ١٠٦).

قال عمر بن الخطاب: لو شاء الله لقال: (أنتم)، فكنا كلنا، ولكن قال: (كنتم) في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صنع مثل صنيعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. تفسير الطبري (٧/ ١٠١).

وقال ابن تيمية: والشريعة التي بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الشرائع؛ إذ كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والمرسلين، وأمته خير أمة أخرجت للناس. قال أبو هريرة في قوله تعالى {كنتم خير أمة أخرجت للناس} كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة. يبذلون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس فهم خير الأمم للخلق، والخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ١٣٨).

وقال أيضا: أخبر أن هذه الأمة خير الأمم لبني آدم: فإنهم يعاقبونهم بالقتل والأسر، ومقصودهم بذلك الإحسان إليهم، وسوقهم إلى كرامة الله ورضوانه، وإلى دخول الجنة. منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٣٨).

وقال أيضا: وأفضل الأمم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}، وقال تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي في المسند (أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله). مجموع الفتاوى (١١/ ٢٢١).

قال ابن كثير: والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. تفسير ابن كثير (٢/ ٩٤).

وقال أيضا: وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه أشرف خلق الله، أكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيا قبله ولا رسولا من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء). فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: (نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهورا، وجعلت أمتي خير الأمم). تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن. تفسير ابن كثير (٢/ ٩٤).

(تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله):

قال ابن تيمية: قال بعض السلف: هم خير أمة إذا قاموا بهذا الشرط، فمن لم يقم بهذا الشرط فليس من خير أمة.

قال: واتفق أئمة الدين على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر واجب على الناس، لكنه فرض على الكفاية كالجهاد وتعلم العلم ونحو ذلك، فإذا قام به من يستكفى به سقط عن الناس، وكان الأجر والدرجة لمن قام به. ومن كان عاجزا عما أمر الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأراد أن يقوم به وجب على غيره أن يعاونه، حتى يحصل المقصود الذي أمر الله به ورسوله، كما قال تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان).

فكل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله يتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمعروف اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، والمنكر اسم جامع لكل ما يكرهه ويسخطه. وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لعقوبة الدنيا قبل الآخرة، فلا يظن الظان أنها تصيب الظالم الفاعل للمعصية دونه مع سكوته عن الأمر والنهي، بل تعم الجميع...

أن يفعل ذلك عبادة لله، وطاعة لله ورسوله، وطلبا للنجاة من عقاب الله، ونصحا لعباد الله، لا يفعله لطلب العلو والرئاسة على الناس، ولا لعداوة أو حقد في نفسه على المأمور والمنهي، ولا لغرض يناله بذلك، يكون أمره بالمعروف معروفا غير منكر، ونهيه أيضا معروف غير منكر. وإلا فمتى أراد أن يزيل منكرا بمنكر كان كمن يريد غسل الخمر بالبول، ومن فعل ذلك فقد يكون خسرانه أكثر من ربحه، وقد يكون أقل أو أكثر. والله أعلم. جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٣٨١-٣٨٢).

وقال أيضا: ومن استقرأ أخبار العالم في جميع الفرق تبين له أنه لم يكن قط طائفة أعظم اتفاقا على الهدى والرشد، وأبعد عن الفتنة والتفرق والاختلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين هم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك، إذ يقول تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}، كما لم يكن في الأمم أعظم اجتماعا على الهدى، وأبعد عن التفرق والاختلاف، من هذه الأمة، لأنهم أكمل اعتصاما بحبل الله، الذي هو كتابه المنزل، وما جاء به من نبيه المرسل. وكل من كان أقرب إلى الاعتصام بحبل الله، وهو اتباع الكتاب والسنة، كان أولى بالهدى والاجتماع والرشد والصلاح وأبعد عن الضلال والافتراق والفتنة. منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٦٤).

قال ابن كثير: فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم... ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون). تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٣).

وقال السعدي: يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله، وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس. تفسير السعدي (ص: ١٤٣).

فضائل أمة الإسلام:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة). صحيح مسلم (٢/ ٥٨٥).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجنة حرمت على الأنبياء حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي». مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٧)، المعجم الأوسط (١/ ٢٨٩).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أو آخره). مسند أحمد (١٩/ ٣٣٤)، سنن الترمذي (٤/ ٤٤٩).

عن عبد الله بن مسعود، قال: كنا مع النبي في قبة، فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة» قلنا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة» قلنا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة» قلنا: نعم، قال: «والذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر» صحيح البخاري (٨/ ١١٠)، صحيح مسلم (١/ ٢٠١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أهل الجنة عشرون ومائة صف: ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم). مسند أحمد (٣٨/ ٢٤)، سنن الترمذي (٤/ ٢٦٤).

عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب». صحيح البخاري (٨/ ١٠٠)، صحيح مسلم (١/ ١٩٧)

(لن يضروكم إلا أذى):

قال ابن تيمية: الأذى المطلق هو باللسان، كما قال تعالى: {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا}، وقال تعالى: {لن يضروكم إلا أذى}، وقال: {ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن}، وقال: {لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا} الآية، وقال: {ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي}، إلى قوله: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا} الآية، ثم ذكر الصلاة عليه والتسليم خبرا وأمرا وذلك من أعمال اللسان، ثم قال: {إن الذين يؤذون الله ورسوله} إلى قوله: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر)، وهذا

كثير. وقد تقدم أن الأذى اسم لقليل الشر وخفيف المكروه بخلاف الضرر، فلذلك أطلق على القول. الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٧٤).

(وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار):

قال ابن تيمية: الجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماء من وجوه:

أحدها: أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم؛ لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله لأن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله.

الثاني: أن ذلك أنفع للكفار أيضا، فإنهم قد يؤمنون من الخوف ومن أسر منهم... وهذا من معنى كون محمد ما أرسل إلا رحمة للعالمين، فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه، حتى المكذبين له هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره، ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين، قال: (لا، أستأني بهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له).

الوجه الثالث: أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله، وأكثر لهم، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك. جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ٣٣٨-٣٣٩).

(ثم لا ينصرون):

قال الطبري: وإنما رفع قوله: (ثم لا ينصرون) وقد جَزم قوله: (يولوكم الأدبار)، على جواب الجزاء، ائتنافًا للكلام، لأن رؤوس الآيات قبلها بالنون، فألحق هذه بها، كما قال: (وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) رفعًا، وقد قال في موضع آخر: (لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا) إذْ لم يكن رأس آية. تفسير الطبري (٧/ ١١٠).

(ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس):

قال ابن تيمية: اليهود – من حين ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس – لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام، والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه. مجموع الفتاوى (١/ ٣٠١).

وقال أيضا: لما كان أصل دين اليهود الكبر عاقبهم بالذلة: {ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا}. ولما كان أصل دين النصارى الإشراك لتعديد الطرق إلى الله أضلهم عنه؛ فعوقب كل من الأمتين على ما اجترمه بنقيض قصده {وما ربك بظلام للعبيد}. مجموع الفتاوى (٧/ ٦٢٨).

وقال السعدي: {وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ} أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم، كما شوهد حالهم سابقا ولاحقا، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين، إلا بنصر الدول الكبرى، وتمهيدهم لهم كل سبب. تفسير السعدي (ص: ٩٧٢).

(ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون):

قال ابن تيمية: جعل ذلك بالمعصية والاعتداء، والمعصية: مخالفة الأمر، وهو التقصير. والاعتداء: مجاوزة الحد. مجموع الفتاوى (٣/ ٣٦١).

وقال ابن كثير: {ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} أي: إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وقيضوا لذلك: أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله عز وجل، والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فعياذا بالله من ذلك. تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٤).

عن قتادة: (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون): اجتنِبُوا المعصية والعدوان، فإن بهما أهلِك مَنْ أُهْلك قبلكم من الناس. تفسير الطبري (٧/ ١١٨).

(ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة):

سبب النزول:

عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سَعْية، وأَسَيْد بن سعية، وأسد بن عُبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فآمنوا وصدَّقوا ورغبوا في الإسلام، ورسخوا فيه، قالت أحبار يهود وأهل الكفر

منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا أشرارنا! ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله) إلى قوله: (وأولئك من الصالحين). تفسير الطبري (٧/ ١٢٠-١٢١).

وعن ابن مسعود، قال: أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، قال: (أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم)، قال: وأنزل هؤلاء الآيات: (ليسوا سواء من أهل الكتاب)، حتى بلغ: (وما تفعلوا من خير فلن تكفروه والله عليم بالمتقين). مسند أحمد (٦/ ٣٠٤).

(يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون):

قال ابن عطية: وقيام الليل لقراءة العلم المبتغى به وجه الله داخل في هذه الآية، وهو أفضل من التنفل لمن يرجى انتفاع المسلمين بعلمه. تفسير ابن عطية (١/ ٤٩٣).

وقال ابن رجب: وقت التهجد من الليل أفضل أوقات التطول بالصلاة، وأقرب ما يكون العبد من ربه، وهو وقت فتح أبواب السماء، واستجابة الدعاء، واستعراض حوائج السائلين.

وقد مدح الله تعالى المستيقظين بالليل لذكره ودعائه واستغفاره ومناجاته فقال الله تعالى: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}، وقال الله تعالى: {والمستغفرين بالأسحار}، وقال الله تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون}، وقال الله تعالى: {والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما}، وقال الله تعالى: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون}، وقال تعالى: {من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون}، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا}، وقال تعالى: {ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا}، وقال تعالى: {يا أيها المزمل، قم الليل إلا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه}.

قالت عائشة رضي الله عنها لرجل: "لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو قالت: كسل صلى قاعدا"، وفي رواية أخرى عنها قالت: "بلغني عن قوم يقولون: إن أدينا الفرائض لم نبال أن لا نزداد، ولعمري لا يسألهم الله إلا عما افترض عليهم، ولكنهم قوم يخطئون بالليل والنهار، وما أنتم إلا من نبيكم، وما نبيكم إلا منكم، والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الليل، ونزعت كل آية فيها قيام الليل.

فأشارت عائشة رضي الله عنها إلى قيام الليل فيه فائدتان عظيمتان:

الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتأسي به، وقد قال الله عز وجل: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}.

وتكفير الذنوب والخطايا، فإن بني آدم يخطئون بالليل والنهار، فيحتاجون إلى الاستكثار من مكفرات الخطايا، وقيام الليل من أعظم المكفرات، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: (قيام العبد في جوف الليل يكفر الخطيئة) ثم تلا: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع} الآية. خرجه الإمام أحمد وغيره. لطائف المعارف (ص: ٤٠-٤١).

(يؤمنون بالله واليوم الآخر):

قال السعدي: وخص الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم. تفسير السعدي (ص: ١٤٤).

(ويسارعون في الخيرات):

قال السعدي: وصفهم بالهمم العالية {و} أنهم {يسارعون في الخيرات} أي: يبادرون إليها فينتهزون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير، ومعرفتهم بفوائده وحسن عوائده. تفسير السعدي (ص: ١٤٤).

وقال أيضا: والمسارعة إلى الخيرات، قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها، وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب. تفسير السعدي (ص: ٩٧٢).

(والله عليم بالمتقين):

قال الطبري: والله ذو علم بمن اتقاه لطاعته واجتناب معاصيه، وحافظٌ أعمالهم الصالحة حتى يثيبهم عليها ويجازيهم بها، تبشيرًا منه لهم جل ذكره في عاجل الدنيا، وحضًّا لهم على التمسك بالذي هم عليه من صالح الأخلاق التي ارتضاها لهم. تفسير الطبري (٧/ ١٣٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١٠٤-١١٥

١- ورد الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والثناء على أهله في هذا المقطع ثلاث مرات، فما موقعك من هذه الشعيرة العظيمة؟ وهل أنت من أهلها؟ وهل تقوم بها بعلم وحكمة وحلم؟ فإن كنت مقصرا في ذلك – وكلنا كذلك – فتدارك هذا النقص والتقصير، واحرص على تكميل غيرك كما تحرص على تكميل نفسك، لتساهم في بناء مجتمع مؤمن معتز بإيمانه، واعلم أنك بذلك تعمل على ترسيخ إيمانك، وتقوية إسلامك، وتعزيز ديانتك، فتكون من أهل الفلاح، ومن أهل الخيرية، ومن أهل الصلاح (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)، (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)، (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين).

٢- الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لجمع كلمة المسلمين على الحق والهدى، وتركه سبب للتفرق والاختلاف والتنازع، وليس الأمر بالعكس كما يظن البعض، بل لا اجتماع في الحقيقة إلا على التوحيد والتقوى والطاعة، وما عدا هذا فهو اجتماع صوري سرعان ما ينفرط عقده، فإن الله قال بعد أن أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم).

٣- اعمل من الصالحات ما يكون سببا لابيضاض وجهك يوم القيامة فرحا وسرورا واستبشارا ونضرة ونعيما، وأهم الأعمال الصالحة: التمسك بالسنة والجماعة، والبعد عن البدعة والفرقة (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه)، (وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون).

٤- اعلم أن الله له ملك السماوات والأرض، وإليه يرجع الناس كلهم للحساب والجزاء، فما بالك بجزائك إن قدمت عليه مؤمنا محسنا وقد رضي عنك من له ملك السماوات والأرض؟ (ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله تُرجع الأمور).

٥- احمد الله أن جعلك من خير أمة أخرجت للناس، واعلم أنك لو قضيت عمرك كله ساجدا لله شكرا على هذه النعمة فقط دون غيرها من النعم لما أدّيت شكرها، فكن شكورا لله في كل أحوالك بقلبك

ولسانك وجوارحك، واجعل لسانك يلهج دائما بحمد الله وشكره والثناء عليه (كنتم خير أمة أخرجت للناس).

٦- كن منصفا في حكمك على المجموعات والطوائف والأمم، وفي وصفك لهم، ولا تعمّم عليهم حكما لا ينطبق على جميعهم، ولا تذمّهم بشيء يخرج عنه بعضهم، فإن الله قال عن أهل الكتاب الذين كانوا قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)، وقال بعد أن ذمّ أكثرهم: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة...) فما أجمل الإنصاف! وما أصعبه على النفوس!

٧- اليهود من أجبن الناس وأضعفهم في القتال، ولا يملكون إلا الأذى بالكلام، كيف وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله؟ وإنما تسلّطوا علينا لضعف إيماننا من ناحية، ولأنهم وجدوا حبلا من الناس يقف معهم ضد المسلمين من ناحية أخرى، ولو عدنا إلى ديننا وأعددنا العُدة لهم لما صمدوا أمامنا أبدا، فإن الله يقول وهو أصدق القائلين (لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنصرون * ضُربت عليهم الذلة أينما ثُقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضُربت عليهم المسكنة).

٨- احذر من العصيان والاعتداء، وذلك بالجرأة على المحرمات وترك المأمورات وظلم الناس، فإنها كانت سبب عقاب اليهود بالذلة والمسكنة والغضب من الله، فالحذر الحذر (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون).

٩- من أعظم صفات أهل الصلاح والاستقامة قيام الليل بالصلاة وتلاوة القرآن وطول السجود، فاجعل لك نصيبا من ذلك حتى تكون منهم (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون).

١٠- كن مسارعا في الخيرات، مسابقا إليها، منافسا فيها، فإن ذلك من علامات الصلاح، ومن سمات المتقين، واعلم أن ما تفعله من خير ستجد ثوابه كاملا موفى عند الله (ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه والله عليم بالمتقين).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١١٦-١٢٩) من التفسير الميسّر

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)

إن الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله، لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا من عذاب الله في الدنيا ولا في الآخرة، وأولئك أصحاب النار الملازمون لها، لا يخرجون منها.

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

مَثَلُ ما ينفق الكافرون في وجوه الخير في هذه الحياة الدنيا وما يؤملونه من ثواب، كمثل ريح فيها برد شديد هَبَّتْ على زرع قوم كانوا يرجون خيره، وبسبب ذنوبهم لم تُبْقِ الريح منه شيئًا. وهؤلاء الكافرون لا يجدون في الآخرة ثوابًا، وما ظلمهم الله بذلك، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وعصيانهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، تُطْلعونهم على أسراركم، فهؤلاء لا يَفْتُرون عن إفساد حالكم، وهم يفرحون بما يصيبكم من ضرر ومكروه، وقد ظهرت شدة البغض في كلامهم، وما تخفي صدورهم من العداوة لكم أكبر وأعظم. قد بيَّنَّا لكم البراهين والحجج، لتتعظوا وتحذروا، إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه.

هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)

ها هو ذا الدليل على خطئكم في محبتهم، فأنتم تحبونهم وتحسنون إليهم، وهم لا يحبونكم ويحملون لكم العداوة والبغضاء، وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها ومنها كتابهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم، فكيف تحبونهم؟ وإذا لقوكم قالوا -نفاقًا-: آمنَّا وصدَّقْنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض بدا عليهم الغم والحزن، فعَضُّوا أطراف أصابعهم من شدة الغضب، لما يرون من ألفة المسلمين واجتماع كلمتهم، وإعزاز

الإسلام، وإذلالهم به. قل لهم -أيها الرسول-: موتوا بشدة غضبكم. إن الله مطَّلِع على ما تخفي الصدور، وسيجازي كلا على ما قدَّم مِن خير أو شر.

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

ومن عداوة هؤلاء أنكم -أيها المؤمنون- إن نزل بكم أمرٌ حسن مِن نصر وغنيمة ظهرت عليهم الكآبة والحزن، وإن وقع بكم مكروه من هزيمة أو نقص في الأموال والأنفس والثمرات فرحوا بذلك، وإن تصبروا على ما أصابكم، وتتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، لا يضركم أذى مكرهم. والله بجميع ما يعمل هؤلاء الكفار من الفساد محيط، وسيجازيهم على ذلك.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)

واذكر -أيها الرسول- حين خَرَجْتَ من بيتك لابسًا عُدَّة الحرب، تنظم صفوف أصحابك، وتُنْزِل كل واحد في منزله للقاء المشركين في غزوة «أُحُد» . والله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم.

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

اذكر -أيها الرسول- ما كان من أمر بني سَلِمة وبني حارثة حين حدثتهم أنفسهم بالرجوع مع زعيمهم المنافق عبد الله بن أُبيٍّ؛ خوفًا من لقاء العدو، ولكن الله عصمهم وحفظهم، فساروا معك متوكلين على الله. وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون.

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

اذكر -أيها الرسول- ما كان من أمر بني سَلِمة وبني حارثة حين حدثتهم أنفسهم بالرجوع مع زعيمهم المنافق عبد الله بن أُبيٍّ؛ خوفًا من لقاء العدو، ولكن الله عصمهم وحفظهم، فساروا معك متوكلين على الله. وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون.

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

اذكر -أيها الرسول- ما كان من أمر بني سَلِمة وبني حارثة حين حدثتهم أنفسهم بالرجوع مع زعيمهم المنافق عبد الله بن أُبيٍّ؛ خوفًا من لقاء العدو، ولكن الله عصمهم وحفظهم، فساروا معك متوكلين على الله. وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون.

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)

ولقد نصركم الله -أيها المؤمنون- بـ «بدر» على أعدائكم المشركين مع قلة عَدَدكم وعُدَدكم، فخافوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لعلكم تشكرون له نعمه.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤)

اذكر -أيها النبي- ما كان من أمر أصحابك في «بدر» حين شقَّ عليهم أن يأتي مَدَد للمشركين، فأوحينا إليك أن تقول لهم: ألن تكفيكم معونة ربكم بأن يمدكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين من السماء إلى أرض المعركة، يثبتونكم، ويقاتلون معكم؟

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)

بلى يكفيكم هذا المَدَد. وبشارة أخرى لكم: إن تصبروا على لقاء العدو وتتقوا الله بفِعْل ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، ويأت كفار «مكة» على الفور مسرعين لقتالكم، يظنون أنهم يستأصلونكم، فإن الله يمدكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين أي: قد أعلموا أنفسهم وخيولهم بعلامات واضحات.

وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)

وما جعل الله هذا الإمداد بالملائكة إلا بشرى لكم يبشركم بها ولتطمئن قلوبكم، وتطيب بوعد الله لكم. وما النصر إلا من عند الله العزيز الذي لا يغالَب، الحكيم في تدبيره وفعله.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)

وكان نصر الله لكم بـ «بدْر» ليهلك فريقًا من الكفار بالقتل، ومن نجا منهم من القتل رجع حزينًا قد ضاقت عليه نفسه، يَظْهر عليه الخزي والعار.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)

ليس لك -أيها الرسول- من أمر العباد شيء، بل الأمر كله لله تعالى وحده لا شريك له، ولعل بعض هؤلاء الذين قاتلوك تنشرح صدورهم للإسلام فيسلموا، فيتوب الله عليهم. ومن بقي على كفره يعذبه الله في الدنيا والآخرة بسبب ظلمه وبغيه.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

ولله وحده ما في السموات وما في الأرض، يغفر لمن يشاء من عباده برحمته، ويعذب من يشاء بعدله. والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١١٦-١٢٩)

الكلمة	المعنى
لن تُغنِيَ عنهم	لن تدفع عنهم
من الله	من عذاب الله
فيها صِرٌّ	فيها بَرْد شديد
حرْث قوم	زرْع قوم
بِطَانة من دونكم	أولياء أصفياء من الكفار تُطلِعُونهم على أسراركم
لا يأْلونكُم خَبَالا	لا يُقصّرون في إفساد حالكم
وَدُّوا ما عَنِتُّم	فرحوا بما يشقّ عليكم
الأنامل	أطراف الأصابع
من الغَيْظ	من شدة الغضب
غَدَوْت	خرَجت من أوّل النهار
تُبوِّئ	تُنْزِل
مقاعد للقتال	مواطِن ومواقِف لغزوة أحد
أن تَفشَلا	أن تضعُفا وتَرجِعا عن القتال
والله وليُّهما	والله عاصمهما وحافظهما
وأنتم أذِلّة	وأنتم قليلو العَدَد والعُدّة
أن يُمِدَّكم	أن يُعينكم
ويأتوكم	ويأتي كفار مكّة
من فورِهم هذا	من ساعتهم هذه بلا تأخّر
مُسوِّمين	قد وضعوا على أنفسهم وخيولهم علامات واضحة
لِيَقْطع طرَفا	ليُهلك فريقا من الكفار بالقتل
أو يَكْبِتَهم	أو يُخزِيَهم
خائبين	عليهم الخِزي والعار

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١١٦-١٢٩

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية السادسة عشرة بعد المائة وحتى الآية التاسعة والعشرين بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهو قول الله تعالى: (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن الجملة في قوله (وأولئك أصحاب النار) جملةٌ ابتدائيةٌ فـ (أولاء) مبتدأ، و (أصحاب) خبرها، وإن كانت معطوفةً بواو العطف إلا أنها من باب بيان حالهم في الآخرة، فصح الفصل في هذا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأولئك أصحاب النار)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (هم فيها خالدون) أولاً هي في محل نصب حال من (أصحاب) فهي جملةٌ حاليةٌ. وثانيًا هي جملةٌ فيها ضمائر تعود على الجملة السابقة، فالأولى هنا عدم الوقف، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريحٍ فيها صرٌّ) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن المثل الذي ذكره الله سبحانه وتعالى لم يكتمل بعد، فإن تتمته قوله تعالى (أصابت حرث قومٍ ظلموا أنفسهم فأهلكته) هنا انتهى المثل، وهنا يصح الوقف كما نص على ذلك جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء لانتهاء المثل؛ ولأن ما بعده جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بالنفي، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وما ظلمهم الله)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، والسبب أن بعده استدراك بقوله (ولكن) فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، ووجه ذلك أن جملة (لا يألونكم خبالا) مفسرةٌ لحال هذه البطانة الكافرة، فحالهم أنهم لا يألونكم خبالا، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لا يألونكم خبالا)؟

نص على الوقف هنا الأنصاري دون غيره من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (ودوا ما عنتم) أيضًا تفسيرٌ وبيانٌ لحال البطانة الكافرة، فالأولى هنا عدم الوقف، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ودوا ما عنتم)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن بعدها قوله (قد بدت البغضاء من أفواههم)، و (قد) يصح الابتداء بها، لأنها تأتي في صدارة الجملة، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قد بدت البغضاء من أفواههم)؟

جوز الوقف هنا السجاوندي، وجعله الأنصاري صالحًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ونص السجاوندي على أن الوصل أجوز، وعلل ذلك بأن الغرض هنا بيان أن مستور بغضائهم أكبر من مظهرها، فهم يبدون بغضاءً من أفواههم لكن ما يسترونه وما تخفيه صدورهم أكبر، وهذا يبين أن الوصل هنا أولى، لأن جملة (وما تخفي صدورهم أكبر) تتمةٌ لبيان شدة بغضائهم على المسلمين، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وما تخفي صدورهم أكبر)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن بيان حالهم – هؤلاء البطانة الكافرة – قد انتهى، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (قد)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قد بينا لكم الآيات) قبل (إن كنتم تعقلون)؟

الجواب: لا يصح، ولم ينص عليه أحدٌ من علماء الوقف والابتداء، وإنما وضعت هنا علامة الوصل أولى في مصحف المدينة، وإذا تأملنا فإن قوله تعالى (إن كنتم تعقلون) هي جملةٌ شرطيةٌ جوابها محذوفٌ دل عليه ما قبله، أي: إن كنتم تعقلون لاستفدتم من الآيات التي بيناها لكم، فلذلك لم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لأن تتمة بيان حالهم لم ينته بعد، فالله سبحانه وتعالى بين من حالهم أنهم لا يحبوننا مع أننا نحبهم، وأنهم لا يؤمنون بكتابنا مع أننا نؤمن بكتابهم، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وتؤمنون بالكتاب كله)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن هنا إشارة إلى شيءٍ محذوفٍ، وذلك أنه قال (وتؤمنون بالكتاب كله) أي: وهم لا يؤمنون بكتابكم، هذا من وجه، ومن وجهٍ آخر أن بعدها جملةٌ شرطيةٌ، وهي جملةٌ قد اشتملت على بيان حالهم عند لقاء المؤمنين ومن ورائهم، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وإذا لقوكم قالوا آمنا)؟

نص على الوقف هنا الهبطي دون غيره من علماء الوقف و الابتداء، ونص السجاوندي على أنه قد قيل بالوقف هنا، والوصل أولى، وكذلك نص الأشموني على أن الوصل أولى، لأن المقصود بيان تناقض حاليهم في النفاق، فلا يستقيم مجرد الوقف على جملة (وإذا لقوكم قالوا آمنا) لأن المقصود لم يأتِ وهو في الجملة الثانية، وهو قوله (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) هذا من ناحيةٍ معنويةٍ، أما إذا تأملنا من الناحية اللفظية فإن جملة (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) جملةٌ شرطيةٌ قائمةٌ بنفسها، فالأمر هنا محتملٌ، والوصل أولى، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (من الغيظ)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بيان حالهم عند لقاء المؤمنين ومن ورائهم قد انتهى هنا، ثم جاء بعد ذلك الجواب عليهم والرد عليهم في غيظهم، قال (قل موتوا بغيظكم) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قل موتوا بغيظكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) التي يصح الابتداء بها عادةً فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده شرطٌ آخر، يعني جملةٌ شرطيةٌ أخرى بعد الجملة الشرطية التي انتهت هنا في قوله (إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم)، وإن كانت جملة (وإن تصبكم سيئةٌ يفرحوا بها) هي من تتمة بيان الحال الذي هم عليه، إلا أن كل جملةٍ قائمةٌ بنفسها لفظيًا، وكذلك كل جملةٍ تدل على حالهم بمفردها، فلو قلت (إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم) دلت على حالهم وحقدهم وغيظهم على المؤمنين، وإن قلت (وإن تصبكم سيئةٌ يفرحوا بها) دلت أيضًا على ذلك، فصح الفصل بين الجملتين، وإن كان الوصل أولى لبيان حالهم دفعةً واحدةً وجملةً واحدةً، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وإن تصبكم سيئةٌ يفرحوا بها)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك كما نص عليه السجاوندي أن وصف الذم لهم قد انتهى، ثم بدأ الآن شرطًا جديدًا - جملةً شرطيةً - في بيان ما يجب على المؤمنين بقوله (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لا يضركم كيدهم شيئًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت، في قوله (وإن تصبروا وتتقوا) جوابها (لا يضركم كيدهم شيئًا)، ثم جاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) التي يصح الابتداء بها عادةً، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي بعده جملةٌ مستأنفةٌ وهي قوله (والله سميعٌ عليمٌ) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك السجاوندي، قال: لأن الواو في قوله (والله وليهما) للحال، فهي جملةٌ حاليةٌ، يعني: والحال أن الله وليهما، ونص الأشموني على أن الوقف هنا حسنٌ، على استئناف ما بعده، يعني أن جملة (والله وليهما) تحتمل الاستئناف، ورجح ذلك أبو حيان كذلك، لكن عامة علماء الوقف والابتداء لم ينصوا على وقفٍ هنا، فالأولى هنا عدم الوقف، واعتبار جملة (والله وليهما) جملةٌ حاليةٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (والله وليهما)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعدها جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة قد انتهت، فالله سبحانه وتعالى أخبر أنه قد نصرهم ببدر وهم قليلو العدد والعدة، ثم أمرهم بأمرٍ بعد هذا الخبر، فصح الفصل بين الأمر والخبر، وجاء في الأمر حرف الفاء في قوله (فاتقوا الله) وهذه الفاء رابطةٌ لجواب شرطٍ مقدرٍ، فهنا جملةٌ شرطيةٌ مقدرةٌ، تقديرها: إن فعل الله بكم ذلك فاتقوا الله لعكم تشكرون، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها لا وقف فيها، وهي قوله (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين)، ووجهه أن هذه جملةٌ واحدةٌ في بيان ما قاله للمؤمنين، وهي متضمنةٌ استفهامًا لم ينتهِ إلا في نهاية الآية، فلذلك لم يصح الوقف في شيءٍ من أجزاء هذه الآية.

الآية التي تليها: (بلى) هل يصح الوقف عليها؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن (بلى) هنا جوابٌ للنفي السابق، أين النفي؟ في قوله (ألن يكفيكم) النفي الذي ورد في الاستفهام، فالجواب (بلى يكفيكم)، ثم ابتدأ بعد ذلك جملةً شرطيةً لبيان حالٍ أتم، (إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويأتوكم من فورهم هذا)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، ووجهه أن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ في قوله (إن)، فعل الشرط (تصبروا)، وعُطف عليها (وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا)، جواب الشرط (يمددكم ربكم بخمسة آلاف).

الآية التي تليها: (وما جعله الله إلا بشرى لكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ولتطمئن) تعليلٌ لهذه البشرى، فلم يصح الفصل بين الجملة وتعليلها.

وهل يصح الوقف على قوله (ولتطمئن قلوبكم به)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي في قوله (وما جعله الله إلا بشرى لكم) وما ارتبط بها من التعليل قد انتهى هنا، ثم جاء بعدها جملة نفيٍ جديدةٍ لبيان حكمٍ جديدٍ، وهل جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (وما النصر إلا من عند الله) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ليقطع طرفًا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) لا وقف فيها لأنه عُطف فيها على (ليقطع) (أو يكبت)، ثم (فينقلبوا خائبين) معطوفةٌ على (أو يكبتهم)، فلم يصح الوقف هنا في شيءٍ من أجزاء هذه الآية، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ليس لك من الأمر شيء) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الإمام يعقوب دون غيره، ولم ينص عليه أحدٌ ممن صنف في الوقف والابتداء، وجملة (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) تحتمل أمورًا.

الأمر الأول: أن تكون معطوفةً على (ليقطع طرفًا من الذين كفروا أو يكبتهم)، يعني (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) وهذا بعيدٌ، لأن قوله (ليقطع طرفًا) في ذكر ما حصل في غزوة بدر، بينما قوله (ليس لك من الأمر شيءٌ) كما ورد في سبب نزولها لما في غزوة أحد.

الاحتمال الثاني: أن يكون تقدير الجملة: ليس لك من الأمر شيءٌ أو من أن يتوب عليهم، يعني: ليس لك من أن يتوب عليهم شيءٌ، وبالتالي لا وقف هنا أيضًا.

الاحتمال الثالث: ليس لك من الأمر شيءٌ حتى يتوب عليها، وبالتالي لا وقف أيضًا.

فتبين أنه لا يصح الوقف هنا على جميع الاحتمالات، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ولله ما في السماوات وما في الأرض) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (ويغفر لمن يشاء) جملةٌ مستأنفةٌ، وإن كانت من الناحية المعنوية هي تفصيلٌ لبيان ملك الله سبحانه وتعالى وتمام ملكه أنه سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، لكن لأنها جملةٌ مستأنفةٌ ولأنها قائمة بنفسها، صح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يغفر لمن يشاء)؟

جوز الوقف هنا الأشموني وجعله الأنصاري صالحًا، وإذا تأملنا فإن جملة (ويعذب من يشاء) جملةٌ معطوفةٌ، وهما جملتان جمع فيهما بين الترغيب والترهيب (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء)، وهما كذلك من باب بيان الحالتين المتقابلتين، فالأوجه هنا عدم الوقف، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويعذب من يشاء)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفة، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١١٦-١٢٩

(إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا):

قال الطبري: وإنما خصّ أولاده وأمواله، لأن أولاد الرجل أقربُ أنسبائه إليه، وهو على ماله أقدر منه على مال غيره، وأمرُه فيه أجوز من أمره في مال غيره. فإذا لم يغن عنه ولده لصلبه، وماله الذي هو نافذ الأمر فيه، فغير ذلك من أقربائه وسائر أنسبائه وأموالهم، أبعد من أن تغني عنه من الله شيئا. تفسير الطبري (٧/ ١٣٣).

قال السعدي: لا تدفع عنهم شيئا من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئا من ثواب الله، كما قال تعالى: {وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا} بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلى النار، وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها. تفسير السعدي (ص: ١٤٤)

(مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته):

قال ابن القيم: هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته، فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر لا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله، بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره فأصابته ريح شديدة البرد جدا، يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته... وفي قوله: {أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم} تنبيه على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم؛ فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة حتى أهلكت زرعهم وأيبسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها. إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٤٣).

وقال ابن تيمية: وأحبط الأعمال الصالحة بزواله – أي: الإيمان – في مثل قوله: {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة}، وقوله: {مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد}، وقوله: {مثل ما ينفقون في هذه الحياة

الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم} الآية، وقوله: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا}، ونحو ذلك كثير. مجموع الفتاوى (٢/ ٥-٦).

زرع رجل من أهل الطائف زرعا، فلما بلغ أصابته آفة فاحترق، فدخلنا عليه نواسيه عنه فبكى وقال: والله ما عليه أبكي، ولكني سمعت الله تبارك وتعالى يقول: {كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته} فأخاف أن أكون من هذه الصفة فذلك الذي أبكاني. الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا (ص: ٥٠).

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم...):

سبب النزول: عن ابن عباس قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من اليهود، لما كان بينهم من الجوار والحِلْف في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل فيهم، ينهاهم عن مباطنتهم تخوُّف الفتنة عليهم منهم: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم) إلى قوله: (وتؤمنون بالكتاب كله). تفسير الطبري (٧/ ١٤١).

قال ابن كثير: قيل لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه: إن هاهنا غلاما من أهل الحيرة، حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتبا؟ فقال: قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين.

ففي هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة، التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: {لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم}. تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٧).

وقال السعدي: ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم، يظهرونهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية، وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم، {وما تخفي صدورهم أكبر} مما يسمع منهم...

وإنما العاقل من إذا ابتلي بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلعه من باطنه على شيء ولو تملق له وأقسم أنه من أوليائه. تفسير السعدي (ص: ١٤٤).

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى). صحيح البخاري (٩/ ٧٧).

(قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر):

قال الطبري: والذي بدا لهم منهم بألسنتهم: إقامتهم على كفرهم، وعداوتهم من خالف ما هم عليه مقيمونَ من الضلالة. فذلك من أوكد الأسباب في معاداتهم أهل الإيمان، لأن ذلك عداوة على الدين، والعداوة على الدين العداوة التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى ملة الآخر منهما، وذلك انتقال من هدى إلى ضلالة كانت عند المنتقل إليها ضلالة قبل ذلك. فكان في إبدائهم ذلك للمؤمنين، ومقامهم عليه، أبينُ الدلالة لأهل الإيمان على ما هم عليه من البغضاء والعداوة. تفسير الطبري (٧/ ١٤٥).

وقال الألوسي: أي: ظهرت أمارات العداوة لكم من فلتات ألسنتهم وفحوى كلماتهم؛ لأنهم لشدة بغضهم لكم لا يملكون أنفسهم ولا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم. روح المعاني (٢/ ٢٥٤)

وقال الطبري: "البغضاء" مصدر. وقد ذكر أنها في قراءة عبد الله بن مسعود: (قد بدا البغضاء من أفواههم)، على وجه التذكير. وإنما جاز ذلك بالتذكير ولفظه لفظ المؤنث، لأن المصادر تأنيثها ليس بالتأنيث اللازم، فيجوز تذكير ما خرج منها على لفظ المؤنث وتأنيثه، كما قال عز وجل: (وأخذ الذين ظلموا الصيحة)، وكما قال: (فقد جاءكم بينة من ربكم)، وفي موضع آخر: (وأخذت الذين ظلموا الصيحة)، (وجاءتكم بينة من ربكم). تفسير الطبري (٧/ ١٤٦-١٤٧).

(قل موتوا بغيظكم):

قال السعدي: وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضرون إلا أنفسهم، وأن غيظهم لا يقدرون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فيتنقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة. تفسير السعدي (ص: ١٤٥).

(إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها):

قال ابن تيمية: وأما القرآن فالمراد منه هنا بالحسنات والسيئات: النعم والمصائب؛ ليس المراد الطاعات والمعاصي، وهذا كقوله تعالى: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا}، وكقوله: {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا} الآية، ومنه قوله تعالى {وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون}، كما قال تعالى: {ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون}، أي: بالنعم والمصائب. وهذا بخلاف قوله {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها} وأمثال ذلك فإن المراد بها الطاعة والمعصية.

وفي كل موضع ما يبين المراد باللفظ، فليس في القرآن العزيز بحمد الله تعالى إشكال؛ بل هو مبين. وذلك أنه إذا قال: {ما أصابك} وما {مسّك} ونحو ذلك كان من فعل غيرك بك، كما قال {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}، وكما قال تعالى {إن تصبك حسنة تسؤهم}، وقال تعالى {وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم}. وإذا قال {من جاء بالحسنة} كانت من فعله لأنه هو الجائي بها فهذا يكون فيما فعله العبد لا فيما فعل به، وسياق الآية يبين ذلك. مجموع الفتاوى (٨/ ١١١-١١٢).

(وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا):

قال ابن تيمية :وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا في غير موضع من كتابه، وبين أنه ينصر بهما العبد على عدوه من الكفار المحاربين والمعاهدين والمنافقين، وعلى من ظلمه من المسلمين، ولصاحبه تكون العاقبة، قال الله تعالى: {بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم

بخمسة آلاف من الملائكة مسومين}، وقال الله تعالى: {لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور}، وقال تعالى: {وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط} وقال إخوة يوسف له: {أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين}. مجموع الفتاوى (١١/ ٣٤-٣٥).

وقال ابن كثير: يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه. تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٩).

(وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال...):

في مسند أبي يعلى عن المسور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف: يا خال أخبرنا عن قصتكم يوم أحد، قال: اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا: {وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال}. الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٤١)

قال ابن القيم: كان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران، أولها: {وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال} إلى آخر القصة. زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٨٩).

وقال أيضا: الغزوات الكبار الأمهات سبع: بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، والفتح، وحنين، وتبوك. وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن، فسورة (الأنفال) سورة بدر، وفي أحد آخر سورة (آل عمران) من قوله {وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال} إلى قبيل آخرها بيسير، وفي قصة الخندق وقريظة وخيبر صدر (سورة الأحزاب)، وسورة (الحشر) في بني النضير، وفي قصة الحديبية وخيبر سورة

(الفتح)، وأشير فيها إلى الفتح، وذكر الفتح صريحا في سورة (النصر). زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ١٢٥).

وقال ابن كثير: سببها – أي: غزوة أحد – أن المشركين حين قُتل من قُتل من أشرافهم يوم بدر، وسَلِمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان، فلما رجع قفلهم إلى مكة قال أبناء من قتل، ورؤساء من بقي لأبي سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريبا من أحد تلقاء المدينة، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، فلما فرغ منها صلى على رجل من بني النجار، يقال له: مالك بن عمرو، واستشار الناس: أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرا بالخروج إليهم، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لأمته وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم وقالوا: لعلنا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله، إن شئت أن نمكث؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله له)، فسار عليه السلام في ألف من أصحابه، فلما كان بالشوط رجع عبد الله بن أبيّ في ثلث الجيش مغضبا؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالا لاتبعناكم، ولكنا لا نراكم تقاتلون اليوم. واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرا حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: (لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال). وتهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلا فقال لهم: (انضحوا الخيل عنا، ولا نؤتين من قبلكم. والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطّفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم). وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار. وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الغلمان يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين.

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعوا إلى بني عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في مواضعه عند هذه الآيات. تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٩-١١٠).

وقال السعدي: فيها أعظم مدح للنبي صلى الله عليه وسلم حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه. تفسير السعدي (ص: ١٤٥).

(إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما):

عن جابر رضي الله عنه، قال: نزلت هذه الآية فينا: {إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا} بني سلمة، وبني حارثة، وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول: {والله وليهما}. صحيح البخاري (٥/ ٩٦)، صحيح مسلم (٤/ ١٩٤٨).

قال السعدي: {والله وليهما} أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم، وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان كما قال تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور}. تفسير السعدي (ص: ١٤٦).

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون):

قال السعدي: فيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصا في مواطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن. تفسير السعدي (ص: ١٤٦).

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة...):

قال ابن كثير: يوم بدر كان في جمعة، وافق السابع عشر من رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، فيهم فرسان وسبعون بعيرا، والباقون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله. تفسير ابن كثير (٢/ ١١١).

وقال ابن تيمية: وقد شهدنا أن العسكر إذا انكسر خشع لله وذل وتاب إلى الله من الذنوب وطلب النصر من الله وبرئ من حوله وقوته متوكلا على الله، ولهذا ذكرهم الله بحالهم يوم بدر وبحالهم يوم حنين، فقال: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون)، وقال تعالى: (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)، وشواهد هذا الأصل كثيرة، وهو أمر يجده الناس بقلوبهم، ويحسونه ويعرفونه من أنفسهم ومن غيرهم، وهو من المعارف الضرورية الحاصلة بالتجربة لمن جربها، والأخبار المتواترة لمن سمعها. شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٤٧-١٤٨).

وقال ابن القيم: إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة}. وقال: {ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا} فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولا، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره. زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٩٨).

(فاتقوا الله لعلكم تشكرون):

قال ابن القيم: يجوز أن يكون قوله (لعلكم تشكرون) تعليلا لقضائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى، ولهما معا، وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١١٩).

(إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين):

قال ابن كثير: اختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين:

أحدهما: أن قوله: {إذ تقول للمؤمنين} متعلق بقوله: {ولقد نصركم الله ببدر}... عن عامر -يعني الشعبي-أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله: {ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين} إلى قوله: {مسومين} قال: فبلغت كرزا الهزيمة، فلم يمد المشركين ولم يمد الله المسلمين بالخمسة. وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية -على هذا القول-وبين قوله تعالى في قصة بدر: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} فالجواب: أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: {مردفين} بمعنى يردُفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم.

القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله: {وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال} وذلك يوم أحد... وقالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فروا يومئذ -زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله: {بلى إن تصبروا وتتقوا} فلم يصبروا، بل فروا، فلم يمَدُّوا بملك واحد. تفسير ابن كثير (٢/ ١١٢-١١٣).

وقال ابن تيمية: من آياته صلى الله عليه وسلم تأييد الله له بملائكته قال الله تعالى: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} الآية. وقال تعالى: {إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم

هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين}، وقال تعالى في الخندق: {إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا}. وقال تعالى في حنين: {ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين}. وقال تعالى في الهجرة: {ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا}. وقال تعالى في بدر: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب}. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٢٦٣).

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد». صحيح البخاري (٥/ ٩٧)، صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٢).

قال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يومئذ – أي: يوم بدر – يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه خر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه، كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين. صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣).

(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا...):

قال السعدي: شرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله: {وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا}. تفسير السعدي (ص: ١٤٦).

وقال البغوي: ما كان على جهة القوة والإعانة يقال فيه: أمده إمدادا، وما كان على جهة الزيادة يقال فيه: مده مددا، ومنه قوله تعالى: (والبحر يمُدّه).

وقيل: المد في الشر، والإمداد في الخير، يدل عليه قوله تعالى: (ويمدهم في طغيانهم)، (ونمد له من العذاب مدا)، وقال في الخير: (أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين)، وقال: (وأمددناكم بأموال وبنين). تفسير البغوي (١/ ٥٠٢).

(وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم):

قال ابن كثير: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: {ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم}. تفسير ابن كثير (٢/ ١١٤).

وقال السعدي: (وما النصر إلا من عند الله) فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين ليبين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه... {الحكيم} الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، قال تعالى: {ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض}. تفسير السعدي (ص: ١٤٦).

(ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين):

قال السعدي: يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين:

إما أن يقطع طرفا من الذين كفروا، أي: جانبا منهم وركنا من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمة مال، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومحاربتهم للإسلام

تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم، فبهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة، فقطع شيء من ذلك ذهاب لبعض قوتهم.

الأمر الثاني: أن يريد الكفار بقوتهم وكثرتهم طمعا في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويبذلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة.

وإذا تأملت الواقع رأيت نصر الله لعباده المؤمنين دائرا بين هذين الأمرين، غير خارج عنهما إما نصر عليهم أو خذل لهم. تفسير السعدي (ص: ١٤٦).

(ليس لك من الأمر شيء):

سبب النزول: عن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟»، فأنزل الله عز وجل: {ليس لك من الأمر شيء}. صحيح مسلم (٣/ ١٤١٧).

عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا» بعد ما يقول «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله: {ليس لك من الأمر شيء} إلى قوله {فإنهم ظالمون}. صحيح البخاري (٥/ ٩٩).

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد، قنت بعد الركوع، فربما قال إذا قال: (سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسني يوسف) يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: (اللهم العن فلانا وفلانا، لأحياء من العرب) حتى أنزل الله: {ليس لك من الأمر شيء} الآية. صحيح البخاري (٦/ ٣٨)، صحيح مسلم (١/ ٤٦٦).

قال الطبري: وتأويل قوله: (ليس لك من الأمر شيء)، ليس إليك، يا محمد، من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكم بالذي أشاء، من التوبة على من كفر بي وعصاني وخالف أمري، أو العذاب إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيرة، وإما في آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي. تفسير الطبري (٧/ ١٩٤).

وقال ابن كثير: {ليس لك من الأمر شيء} أي: بل الأمر كله إلي، كما قال: {فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب}، وقال {ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء}، وقال {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء}. تفسير ابن كثير (٢/ ١١٤).

وقال السعدي: وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئا وتكون الخِيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أولى، ففيها أعظم رد على من تعلق بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، ونقص في العقل، يتركون مَن الأمر كله له، ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سببا موجبا لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال {أو يعذبهم فإنهم ظالمون} ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه. تفسير السعدي (ص: ١٤٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١١٦-١٢٩

١- مهما عمل الكافر من أعمال صالحة في الدنيا فإنها لا تنفعه يوم القيامة، بل تكون هباء منثورا، لأنه لم يأت بشرط قبولها وهو الإيمان، والله عادل لا يظلمه شيئا، بل يعطيه أجر ما عمل في الدنيا، فإذا جاء يوم القيامة لم تكن له حسنة يجزى بها، وكان مصيره الخلودَ في النار، لذلك لا يجوز لك أن تترحم على من مات على كفره ولو عمل من أعمال الخير ما عمل، ويجب أيضا أن تكون حذرا خائفا من الوقوع في شيء يؤدي بك إلى الكفر سواء من الأعمال أو الأقوال أو الاعتقادات (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون).

٢- اجعل أولياءك وأصفياءك وأصحاب مشورتك من المؤمنين الصادقين، واحذر من اتخاذ الكافر والمنافق وليا وصفيا تبوح إليه بأسرارك، وتطلعه على خفايا أمورك، وإذا كنت صاحب ولاية أو منصب عام في بلاد المسلمين فلتكن أشد حذرا منه، فإنه لا يقصّر في إلحاق الضرر بك وبالمسلمين، ويحب حصول المشقة لك وللمسلمين، والتاريخ خير شاهد على ذلك، وقد يظهر من فلتات لسانه ما يكنّه في صدره من الحقد والبغضاء، وهو في خلواته يعَض عليك الأنامل من الغيظ، ويفرح لأي مصيبة تنزل بك وبالمسلمين، ويستاء لأي نعمة تحصل لك وللمسلمين، وقد يُظهر الإسلام بلسانه زيادة في الكيد والمكر، فالحذر الحذر (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها).

٣- كن ممن يفرح لحصول النعمة لأخيه المسلم ولعموم المسلمين، وممن يحزن لوقوع المصيبة على أحد من المسلمين أو على عمومهم، لتخالف بذلك صفة المنافقين والكافرين، ويسلم قلبك من الغل والحسد (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها).

٤- اجمع في حياتك بين الصبر والتقوى، وراقب نفسك في تحقيقهما، وجاهدها على ذلك، واعلم أنك بذلك تنجو من شر الكفار، وكيد الفجار، وتظفر بمدد من الله سبحانه (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط)، (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين).

٥- اقرأ قصة غزوة أحد من كتب السير ومن كتب التفسير في تفسير سورة آل عمران من قول الله تعالى: (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم) إلى قبل نهايتها بيسير، وتأمل ما حصل فيها من الوقائع، واستفد منها الدروس والعبر والعظات.

٦- اعلم أنه لا ثبات لك على الدين إلا بتثبيت الله لك، ولولا حفظه سبحانه لك لزللت زللا بعيدا، ولانحرفت انحرافا شديدا، فاعتصم بالله وتوكل عليه حق التوكل، والجأ إليه أن يكون وليّك وناصرك وحافظك وعاصمك (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما).

٧- بقدر إيمانك يقوى توكلك على الله، وبقدر توكلك على الله يزداد إيمانك، فراقب قلبك في ذلك، وادفعه إلى التوكل دفعا خاصة عند قوة الأسباب ووفرتها (وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

٨- احرص على تذكير نفسك ومن حولك بنعم الله عليك وعليهم، حتى يكون دافعا لشكرها، معينا على حفظها بالعمل بتقوى الله عز وجل (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون).

٩- من تمام ملك الله وكمال عظمته سبحانه أنه ينصر من يشاء من عباده متى شاء كيف شاء، فهو سبحانه ينصر مع وجود الأسباب ووفرتها عادة كما هي سنته في خلقه، وينصر أيضا مع انعدام الأسباب وقلتها متى قوي الإيمان والتوكل، ونحن مأمورون بالأخذ بالأسباب وإعداد القوة للكافرين، ومن أعظم أسباب النصر على الأعداء الصبر والتقوى، والذلة والمسكنة بين يدي الله، وصدق التوكل عليه، وكمال الاعتماد عليه، ومن أعظم أسباب الهزيمة الاعتداد بالقوة والكثرة، وفي غزوة بدر وحنين عبر وأي عبر (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون)، (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم).

١٠- احرص على تبشير إخوانك المسلمين وطمأنة قلوبهم بالأخبار المبشّرة، فإن ذلك يبعث التفاؤل في نفوس المؤمنين (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به).

١١- الله سبحانه له الخلق والأمر، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه، فهو الذي له الأمر كله، يهدي من يشاء ويُضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء، لأنه الملك المتصرّف في ملكه، وأما الخلق فهم كلهم مربوبون لله، منقادون لأمره، خاضعون لعظمته، وليس لهم من الأمر شيء، فاعبد الله وحده، وادعه وحده، واستعن به وحده، واستعذ به وحده، واستغث به وحده، وتوكل عليه وحده، واذبح له وحده، وانذر له وحده، واحلف به وحده، وسلّم لأمر الله، حتى تكون مؤمنا موحدا (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون * ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١٣٠-١٣٩) من التفسير الميسّر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)

يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه احذروا الربا بجميع أنواعه، ولا تأخذوا في القرض زيادة على رؤوس أموالكم وإن قلَّت، فكيف إذا كانت هذه الزيادة تتضاعف كلما حان موعد سداد الدين؟ واتقوا الله بالتزام شرعه؛ لتفوزوا في الدنيا والآخرة.

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)

واجعلوا لأنفسكم وقاية بينكم وبين النار التي هُيِّئت للكافرين.

وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)

وأطيعوا الله -أيها المؤمنون- فيما أمركم به من الطاعات وفيما نهاكم عنه من أكل الربا وغيره من الأشياء، وأطيعوا الرسول؛ لترحموا، فلا تعذبوا.

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)

وبادروا بطاعتكم لله ورسوله لاغتنام مغفرة عظيمة من ربكم وجنة واسعة، عرضها السموات والأرض، أعدها الله للمتقين.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)

الذين ينفقون أموالهم في اليسر والعسر، والذين يمسكون ما في أنفسهم من الغيظ بالصبر، وإذا قَدَروا عَفَوا عمَّن ظلمهم. وهذا هو الإحسان الذي يحب الله أصحابه.

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)

والذين إذا ارتكبوا ذنبًا كبيرًا أو ظلموا أنفسهم بارتكاب ما دونه، ذكروا وعد الله ووعيده فلجأوا إلى ربهم تائبين، يطلبون منه أن يغفر لهم ذنوبهم، وهم موقنون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، فهم لذلك لا يقيمون على معصية، وهم يعلمون أنهم إن تابوا تاب الله عليهم.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)

أولئك الموصوفون بتلك الصفات العظيمة جزاؤهم أن يستر الله ذنوبهم، ولهم جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها المياه العذبة، خالدين فيها لا يخرجون منها أبدًا. ونِعْمَ أجر العاملين المغفرة والجنة.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)

يخاطب الله المؤمنين لمَّا أُصيبوا يوم «أُحد» تعزية لهم بأنه قد مضت من قبلكم أمم، ابتُلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين فكانت العاقبة لهم، فسيروا في الأرض معتبرين بما آل إليه أمر أولئك المكذبين بالله ورسله.

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

هذا القرآن بيان وإرشاد إلى طريق الحق، وتذكير تخشع له قلوب المتقين، وهم الذين يخشون الله، وخُصُّوا بذلك؛ لأنهم هم المنتفعون به دون غيرهم.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)

ولا تضْعُفوا -أيها المؤمنون- عن قتال عدوكم، ولا تحزنوا لما أصابكم في «أُحد» ، وأنتم الغالبون والعاقبة لكم، إن كنتم مصدقين بالله ورسوله متَّبعين شرعه.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١٣٠-١٣٩)

الكلمة	المعنى
أضعافا مضاعفة	زيادة على رؤوس أموالكم تتضاعف كلما حان موعد السداد
أُعِدَّت	هُيِّئت
في السراء والضراء	في اليُسرِ والعُسر
والكاظِمِين الغَيظ	والذين يكتمون غضبهم ويصبرون ولا ينتقمون
فعلوا فاحِشَة	ارتكبوا ذنبا عظيما
ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا	ولم يستمروا على المعاصي
خَلَت	مَضَت
سُنَن	وقائع في الأمم المكذّبة
ولا تَهِنُوا	ولا تضعُفُوا
الأَعلَون	الغالبون

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١٣٠-١٣٩

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الثلاثين بعد المائة وحتى الآية التاسعة والثلاثين بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهو قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعة من علماء الوقف والابتداء، ورخص فيه السجاوندي، وعلل ذلك بأنه لعطف المتفقتين، يعني الجملتين المتفقتين، لكن إذا تأملنا فالحقيقة أنهما جملتان مختلفتان، ما وجه الاختلاف؟ وجه الاختلاف: أن الجملة الأولى نهي خاص، والجملة الثانية أمر عام، النهي الخاص في قوله (لا تأكلوا الربا)، ثم أمر بأمر عام في قوله (واتقوا الله) فصح الفصل بين الأمر والنهي. والله تعالى أعلم.

والآية التي تليها: (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) لا وقف فيها، وكذلك قوله (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون).

الآية التي تليها: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وجنةٍ) كلمة معطوفة على كلمة، يعني: وسارعوا إلى مغفرة وسارعوا إلى جنة، فعطفت على (مغفرة)، والكلمات المعطوفة على بعضها لا يصح الفصل بينها أبدا.

وهل يصح الوقف على قوله: (وجنةٍ عرضها السماوات والأرض)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك السجاوندي والأشموني، ووجه ذلك أن قوله (أعدت للمتقين) صفة ثانية للجنة، فالله سبحانه وصف الجنة أولا بأنها واسعة، فقال (عرضها السماوات والأرض)، وثانيا بأنها معدة للمتقين، فلا وقف هنا. والله أعلم.

الآية التي تليها (الذين ينفقون في السراء والضراء) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى وصف المتقين بعدة صفات، لا يتحقق وصف التقوى إلا باجتماعها، فلم يصح الفصل بينها، قال (الذين ينفقون في السراء والضراء) هذه صفة، (والكاظمين الغيظ) صفة ثانية، (والعافين عن الناس) صفة ثالثة، فلا وقف إلا على قوله (والعافين عن الناس) كما نص عليه

جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجه الوقف هنا أن صفات المتقين الواردة في هذه الآية قد انتهت، ثم جاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله يحب المحسنين)، فصح الوقف هنا. والله أعلم.

الآية التي تليها: (والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعدها فاءٌ عاطفةٌ لبيان العاقبة، فهم إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا عظمة الله ووعده ووعيده فكانت العاقبة والنتيجة أنهم استغفروا لذنوبهم، فلم تتم الجملة إلا على قوله (فاستغفروا لذنوبهم)، وهنا الوقف الصحيح كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وهو محل خلافٍ بينهم، وذلك أن قوله (ولم يصروا على ما فعلوا) هو من تتمة وصفهم أنهم لما فعلوا الفاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا على ما فعلوا، لذلك قال أبو حاتم السجستاني: استغفروا ولم يصروا، لأن الاستغفار مع الإصرار غير ممدوحٍ لصاحبه، بمعنى أن الذي يستغفر وهو مصرٌ على الذنب وعلى ما فعله من الفاحشة أو من ظلم النفس فإنه لا يعتبر ممدوحًا حقيقةً، وإنما تمام المدح لمن استغفر ولم يصر على ما فعل، وهذا من ناحيةٍ معنويةٍ صحيحٌ وحسن، أما إذا نظرنا من ناحيةٍ لفظيةٍ فإنه قد جاءت هنا جملةٌ معترضةٌ، وهي قوله تعالى: (ومن يغفر الذنوب إلا الله)، وهي جملةٌ استفهاميةٌ ليست من تقرير وصفهم وما يفعلونه عند ارتكاب الفاحشة أو ظلم النفس، وإنما هي من وصف الله سبحانه وتعالى بأنه لا يغفر الذنوب أحدٌ إلا الله سبحانه وتعالى، فمن علماء الوقف والابتداء من صحح الوقف قبل وفي نهاية الجملة الاعتراضية، ومنهم من لم يصحح ونظر إلى النظرة التي قررتها سابقًا من أنه لا يصح الاستغفار مع الإصرار على الذنب، وهذا ملحظٌ حسنٌ، والله تعالى أعلم.

ثم من صحح الوقف في بداية ونهاية الجملة الاعتراضية فإنه يقف على قوله (فاستغفروا لذنوبهم)، ثم يقف (ومن يغفر الذنوب إلا الله)، ثم يكمل إلى نهاية الآية، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وجناتٌ) كلمةٌ معطوفةٌ على كلمة (مغفرة)، فجزاؤهم (مغفرة) وجزاؤهم (جنات)، فلا يصح الفصل بينها، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (خالدين فيها) حالٌ من الضمير في قوله (جزاؤهم)، فهؤلاء الذين وصفوا بهذا الجزاء هم خالدون فيها، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (خالدين فيها)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن الجزاء الذي وعدوا به قد انتهى وصفه هنا، وهو المغفرة من الله سبحانه وتعالى، والجنات التي تجري من تحتها الأنهار، والخلود في هذه الجنات، ثم أثنى على هذا النعيم وعلى هذا الأجر وعلى هذا الجزاء بجملة خبرية في قوله (ونعم أجر العاملين) وهي جملة مستأنفة مبدوءة بـ (نِعم) التي لها الصدارة في الجملة، فصح الوقف هنا. والله أعلم.

الآية التي تليها (قد خلت من قبلكم سنن) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجعله الأنصاري صالحا والأشموني جائزا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، بل منع منه السجاوندي، وإذا تأملنا فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبر في هذه الجملة أنه قد سبقت حوادث وعواقب في الأمم السابقة من عذاب الله لمن عصا منهم، ثم أمر سبحانه عباده بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة أولئك المكذبين، فهذه جملة أمر بعد جملة خبرية؛ لكن هذا الأمر قد بدئ بحرف الفاء، وهذه الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، يعني كأنه قال: فإن شككتم في ذلك فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، فمن نظر إلى أن هذا الأمر مرتبط بذلك الإخبار ارتباطا وثيقا منع من الوقف، وهم الأكثر، ومن نظر إلى أنه أمر بعد خبر، وهو أمر فيه شرط مقدر مفهوم من السياق، وأن ذلك الخبر جملة قائمة بنفسها صحح الوقف وجوّزه، ولعل هذا هو الأقرب، والأمر في هذا واسع. والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها (هذا بيان للناس) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وهدى) كلمة معطوفة على كلمة (بيان)، يعني هذا بيان للناس وهدى للناس وموعظة للمتقين، فلم يصح الفصل بين هذه الكلمات المعطوفة على بعضها. والله أعلم.

الآية الأخيرة (ولا تهنوا ولا تحزنوا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح؛ لأن قوله (وأنتم الأعلون) جملة حالية، يعني والحال أنكم أنتم الأعلون، فلم يصح الوقف هنا. والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١٣٠-١٣٩

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة):

قال السعدي: الله تعالى إذا أمره – أي: المؤمن – بأمر وجب عليه -أولا- أن يعرف حده، وما هو الذي أمر به ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهي عن أمر عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه، وهذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي. تفسير السعدي (ص: ١٤٨).

وقال أيضا: كل ما في القرآن من قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي؛ لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح. تفسير السعدي (ص: ١٤٨).

وقال أيضا في مناسبة هذه الآيات: ولعل الحكمة -والله أعلم- في إدخال هذه الآيات أثناء قصة "أحد" أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: {وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا}، ثم قال: {بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم} الآيات.
فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى، التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى، ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ "التقوى" في هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة وهي قوله: {أعدت للمتقين} ومرتين مقيدتين، فقال: {واتقوا الله}، {واتقوا النار}. تفسير السعدي (ص: ١٤٨).

وقال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تأكلوا الربا في إسلامكم بعد إذ هداكم له، كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم. وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم: أن الرجل منهم كان يكون له

على الرجل مال إلى أجل، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه، فيقول له الذي عليه المال: أخّر عني دينك وأزيدك على مالك، فيفعلان ذلك. فذلك هو (الربا أضعافا مضاعفة)، فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه. تفسير الطبري (٧/ ٢٠٤).

وقال ابن القيم: وقد جعل الله سبحانه الربا ضد الصدقة، فالمرابي ضد المتصدق، قال الله تعالى: {يمحق الله الربا ويربي الصدقات}، وقال: {وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون}، وقال: {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون * واتقوا النار التي أعدت للكافرين}، ثم ذكر الجنة التي (أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء)، وهؤلاء ضد المرابين، فنهى سبحانه عن الربا الذي هو ظلم للناس، وأمر بالصدقة التي هي إحسان إليهم. إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ١٠٣-١٠٤).

وقال الزركشي: {لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة}، وأكل الربا منهي عنه قليلا وكثيرا لكنها نزلت على سبب وهو فعلهم ذلك، ولأنه مقام تشنيع عليهم، وهو بالكثير أليق. البرهان في علوم القرآن (٣/ ٤٠١).

وقال السعدي: {أضعافا مضاعفة} تنبيه على شدة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم. وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه، لأن تركه من موجبات التقوى. تفسير السعدي (ص: ١٤٨).

(واتقوا الله لعلكم تفلحون):

قال البقاعي: واجعلوا بينكم وبين مخالفة نهيه عن الربا وقاية بالإعراض عن مطلق محبة الدنيا والإقبال عليها، لتكونوا على رجاء من الفوز بالمطالب، فمن له ملك الوجود فإنه جدير بأن يعطيكم من ملكه إن اتقيتم، ويمنعكم إن تساهلتم، فهو نهي عن الربا بصريح العبارة، وتحذير من أن يعودوا إلى ما صدر منهم

من الإقبال على الغنائم قبل انفصال الحرب فعلا وقوة بطريق الإشارة. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٦٥).

عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «ليأتين على الناس زمان، لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن حلال أم من حرام». صحيح البخاري (٣/ ٥٩) في باب: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة).

(واتقوا النار التي أعدت للكافرين):

قال الزركشي: وأما أخوف آية فعن الإمام أبي حنيفة أنه قال: هي قوله تعالى: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين}. البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٤٨).

وقال ابن تيمية: أمر سبحانه المؤمنين أن لا يأكلوا الربا، وأن يتقوا الله، وأن يتقوا النار التي أعدت للكافرين، فعُلم أنهم يُخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا الربا وفعلوا المعاصي، مع أنها معدة للكافرين لا لهم. الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٥٣).

وقال ابن القيم: ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة، ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان، ولم يعمل خيرا قط. الداء والدواء (ص: ٢٤).

(وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون):

عن ابن إسحاق: (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) معاتبة للذين عصوا رسوله حين أمرهم بالذي أمرهم به في ذلك اليوم وفي غيره - يعني: في يوم أحد -. تفسير الطبري (٧/ ٢٠٦).

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم...):

قال ابن القيم: من لم يكن شحيحا بوقته تركه الناس على الأرض عيانا مفلسا، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله. ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها

والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها، قال الله تعالى: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض}، وقال تعالى: {فاستبقوا الخيرات}، وقال تعالى: {وفي ذلك فليتنافس المتنافسون}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول لكانت قرعة). والقرعة إنما تكون عند التزاحم والتنافس، لا عند الإيثار، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلا للإيثار، بل محلا للتنافس والمسابقة، ولهذا قال الفقهاء: لا يستحب الإيثار بالقربات. والسر فيه- والله أعلم- أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه، فلا يسع المؤثِر والمؤثَر، بل لا يسع إلا أحدهما، وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم، ووسعتهم كلهم، وإن قدّر التزاحم في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع بحيث إذا فعله واحد فات على غيره، فإن في العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في غير حديث، فإذا قدّر فوتُ مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٩٩).

(وجنة عرضها السماوات والأرض):

قال ابن عباس: تقرن السموات السبع والأرضون السبع، كما تقرن الثياب بعضها إلى بعض، فذاك عرض الجنة. تفسير الطبري (٧/ ٢٠٧).

وقال ابن كثير: وقد قيل: إن معنى قوله: {عرضها السماوات والأرض} تنبيها على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة: {بطائنها من إستبرق} أي: فما ظنك بالظهائر؟

وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح: (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش الرحمن).

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد: {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض}.

وقد روينا في مسند الإمام أحمد: أن هرقل كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فأين النار؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار؟)... وقد روي هذا مرفوعا... عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت قوله تعالى: {جنة عرضها السماوات والأرض} فأين النار؟ قال: (أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء، فأين النهار؟) قال: حيث شاء الله. قال: (وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل). وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة، عند البزار.

الثاني: أن يكون المعنى: أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السماوات تحت العرش، وعرضها كما قال الله عز وجل: {كعرض السماء والأرض}، والنار في أسفل سافلين. فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم. تفسير ابن كثير (٢/ ١١٧-١١٨).

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، قال: - يقول عمير بن الحمام الأنصاري: - يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم»، قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل. صحيح مسلم (٣/ ١٥١٠).

قال الأصمعي: خلا رجل من الأعراب بامرأة فهم بالريبة، فلما تمكن منها تنحى سليما، وجعل يقول: إن امرءا باع جنة عرضها السموات والأرض بفتر ما بين رجليك لقليل البصر بالمساحة. روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٣٩٤).

(الذين ينفقون في السراء والضراء...):

قال السعدي: أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئا ولو قل. تفسير السعدي (ص: ١٤٨).

(والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس):

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله عز وجل على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور العين ما شاء». مسند أحمد (٢٤/ ٣٩٨)، سنن أبي داود (٤/ ٢٤٨)، سنن الترمذي (٣/ ٤٤٠).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». صحيح البخاري (٨/ ٢٨)، صحيح مسلم (٤/ ٢٠١٤).

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من جرعة أعظم أجرا عند الله، من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله». مسند أحمد (١٠/ ٢٧٠)، سنن ابن ماجه (٢/ ١٤٠١).

عن ابن عباس قوله: (والكاظمين الغيظ) إلى (والله يحب المحسنين)، فـ (الكاظمين الغيظ) كقوله: (وإذا ما غضبوا هم يغفرون)، يغضبون في الأمر لو وقعوا به كان حراما، فيغفرون ويعفون، يلتمسون بذلك وجه الله، (والعافين عن الناس) كقوله: (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة) إلى (ألا تحبون أن يغفر الله لكم)، يقول: لا تقسموا على أن لا تعطوهم من النفقة شيئا، واعفوا واصفحوا. تفسير الطبري (٧/ ٢١٦).

قال ابن تيمية: درجة الحلم والصبر على الأذى والعفو عن الظلم أفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة، يبلغ الرجل بها ما لا يبلغه بالصيام والقيام، قال تعالى: {والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب

المحسنين}، وقال تعالى: {وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله}، وقال تعالى: {إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا}، وقال: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين}، والأحاديث في هذا الباب كثيرة مشهورة. الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٢٣٤).

وقال ابن تيمية: الكاظم للغيظ والعافي عن الناس قد أحسن إلى نفسه وإلى الناس؛ فإن ذلك عمل حسنة مع نفسه ومع الناس، ومن أحسن إلى الناس فإلى نفسه. كما يروى عن بعض السلف أنه قال: ما أحسنت إلى أحد، وما أسأت إلى أحد، وإنما أحسنت إلى نفسي، وأسأت إلى نفسي. قال تعالى: {إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها}، وقال تعالى: {من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها}. مجموع الفتاوى (٣٠/ ٣٦٤-٣٦٥).

وقال ابن كثير: {والكاظمين الغيظ} أي: لا يعملون غضبهم في الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل. ثم قال تعالى: {والعافين عن الناس} أي: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: {والله يحب المحسنين} فهذا من مقامات الإحسان. وفي الحديث: (ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، ومن تواضع لله رفعه الله). تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٢).

قال البقاعي: لما ذكر أشق ما يترك ويبذل – أي: المال – أتبعه أشق ما يحبس فقال: {والكاظمين} أي الحابسين {الغيظ} عن أن ينفذوه بعد أن امتلؤوا منه. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٧٣).

(والله يحب المحسنين):

قال السعدي: الإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق:

فالإحسان في عبادة الخالق فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبيده. تفسير السعدي (ص: ١٤٨-١٤٩).

(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم...):

سبب النزول: عن عطاء بن أبي رباح: أنهم قالوا: يا نبي الله، بنو إسرائيل أكرم على الله منا! كانوا إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه: اجدع أذنك، اجدع أنفك، افعل! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) إلى قوله: (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بخير من ذلك؟) فقرأ هؤلاء الآيات. تفسير الطبري (٧/ ٢١٩).

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال: (أذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك). صحيح البخاري (٩/ ١٤٥)، صحيح مسلم (٤/ ٢١١٢).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: (يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك، ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا

أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة). مسند أحمد (٣٥/ ٣٧٥)، سنن الترمذي (٥/ ٤٤٠).

عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال له الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني). مسند أحمد (١٧/ ٣٤٤).

قال ابن تيمية: وصفهم بالكرم والحلم وبالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ثم لما جاءت الشهوات المحرمات وصفهم بالتوبة منها فقال: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا}، فوصفهم بالتوبة منها وترك الإصرار عليها، لا بترك ذلك بالكلية؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح (كُتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة: فالعينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واللسان يزني وزناه المنطق، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)، وفي الحديث: (كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون} . فلا بد للإنسان من مقدمات الكبيرة، وكثير منهم يقع في الكبيرة فيؤمر بالتوبة، ويؤمرون أن لا يصروا على صغيرة، فإنه لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٩).

وقال ابن القيم: أخبر سبحانه عن صفات المتقين وأنهم يقع منهم ظلم النفس والفاحشة، لكن لا يصرون على ذلك، قال تعالى: {والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون}، فهؤلاء الصديقون المتقون قد أخبر سبحانه أن لهم أعمالا سيئة يكفرها، ولا ريب أنها ظلم للنفس، وقال موسى: {رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم}، وقال آدم عليه السلام: {قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين}، وقال يونس عليه

السلام: {لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين}، وقال تعالى: {إني لا يخاف لدي المرسلون * إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم}. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٩٩).

وقال ابن القيم: أخبر أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم، ثم ذكر أوصاف المتقين: فذكر بذلهم للإحسان في حالة العسر واليسر والشدة والرخاء، فإن من الناس من يبذل في حال اليسر والرخاء، ولا يبذل في حال العسر والشدة، ثم ذكر كف أذاهم عن الناس بحبس الغيظ بالكظم وحبس الانتقام بالعفو، ثم ذكر حالهم بينهم وبين ربهم في ذنوبهم، وأنها إذا صارت منهم قابلوها بذكر الله والتوبة والاستغفار وترك الإصرار، فهذا حالهم مع الله وذاك حالهم مع خلقه. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ١١٩).

قال ابن كثير: ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة، لما رواه الإمام أحمد... أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من رجل يذنب ذنبا فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له). وهو حديث حسن... ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ -أو: فيسبغ -الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء). وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه توضأ لهم وضوء النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه). تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٣).

وقال ابن تيمية: حديث صلاة التوبة محفوظ في السنن عن علي عن أبي بكر الصديق عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما من مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له)، وقرأ هذه الآية (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله). وهذا باب واسع، فإن الذنوب التي يبتلى بها العباد يسقط عنهم عذابها إما بتوبة تجبّ ما قبلها، وإما باستغفار، وإما بحسنات يذهبن السيئات، وإما بدعاء المسلمين وشفاعتهم، أو بما يفعلونه له من البر، وإما بشفاعة النبي صلى الله

عليه وسلم وغيره فيه يوم القيامة، وإما أن يكفر الله خطاياه بما يصيبه من المصائب. الاستقامة (٢/ ١٨٤-١٨٥).

(ومن يغفر الذنوب إلا الله):

أتي النبي صلى الله عليه وسلم بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (عرف الحق لأهله). مسند أحمد (٢٤/ ٣٥٣).

(ولم يصروا على ما فعلوا):

عن قتادة قوله: (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)، فإياكم والإصرار، فإنما هلك المصرون، الماضون قدما، لا تنهاهم مخافة الله عن حرام حرمه الله عليهم، ولا يتوبون من ذنب أصابوه، حتى أتاهم الموت وهم على ذلك. تفسير الطبري (٧/ ٢٢٣).

وقال ابن القيم: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال تعالى {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون}، والإصرار عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به، فهذا الذي يمنع مغفرته. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٢٩٢).

قال القرطبي: وأما حقوق الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يوجدوا تصدق عنهم. تفسير القرطبي (٤/ ٢١٣).

(ونعم أجر العاملين):

قال ابن جماعة: قوله تعالى: (ونعم أجر العاملين)، وفي العنكبوت: (نعم أجر العاملين) بغير واو في (نعم)؟

جوابه: لما تقدم عطف الأوصاف المتقدمة وهي قوله (والكاظمين، والعافين، والذين إذا فعلوا، ولم يصروا، جزاؤهم مغفرة، وجنات، وخلود) ناسب ذلك العطف بالواو المؤذنة بالتعدد والتفخيم. ولم يتقدم مثله في العنكبوت فجاءت بغير واو، كأنه تمام. كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١٣٣-١٣٤).

(قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين):

قال ابن القيم: أي: قد كان من قبلكم أمم أمثالكم فانظروا إلى عواقبهم السيئة، واعلموا أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسله، وهم الأصل وأنتم الفرع، والعلة الجامعة التكذيب، والحكم الهلاك. إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٠٤).

وقال ابن عاشور: وفي الآية دلالة على أهمية علم التاريخ؛ لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها. قال ابن عرفة: «السير في الأرض حسي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره». وإنما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب لأن في المخاطبين من كانوا أميين، ولأن المشاهدة تفيد من لم يقرأ علما وتقوى علم من قرأ التاريخ أو قص عليه. التحرير والتنوير (٤/ ٩٧).

(هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين):

عن قتادة قوله: (هذا بيان للناس)، وهو هذا القرآن، جعله الله بيانا للناس عامة، وهدى وموعظة للمتقين خصوصا. تفسير الطبري (٧/ ٢٣٢).

قال ابن تيمية: قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم، وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء، قال تعالى: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا}، وقال تعالى: {هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين}، وقال تعالى {هدى للمتقين}، وقال تعالى:

{فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون} . وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه. مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٣).

وقال ابن القيم: القرآن بصيرة وتبصرة، وهدى وشفاء ورحمة بمعنى عام، وبمعنى خاص. ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدى للعالمين، وهدى للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين، فهو في نفسه هدى ورحمة، وشفاء وموعظة، فمن اهتدى به واتعظ واشتفى، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء فهو دواء له بالفعل، وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهدى، فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يهتدي به ويُرحم ويتعظ المتقون الموقنون... فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا، كما في الأثر (من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله تعالى إلا بعدا) ولكن يسمى هدى، لأن من شأنه أن يهدي. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٧٠).

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين):

عن الزهري قال: كثر في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم القتل والجراح، حتى خلص إلى كل امرئ منهم البأس، فأنزل الله عز وجل القرآن، فآسى فيه المؤمنين بأحسن ما آسى به قوما من المسلمين كانوا قبلهم من الأمم الماضية، فقال: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنم مؤمنين) إلى قوله: (لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم). تفسير الطبري (٧/ ٢٣٤).

وقال السعدي: (ولا تهنوا) وتضعفوا في أبدانكم، (ولا تحزنوا) في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن، وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك. تفسير السعدي (ص: ١٥٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١٣٠-١٣٩

١- احذر من أكل الربا فإنه ظلم للفقير والمسكين، وهو من أسباب ضعف الإيمان، ودليل على نقص تقوى الله في القلب، وهو سبب للخِذلان عند نزول الشدائد والبلايا، ويؤدي إلى دخول النار والعياذ بالله، وتركه من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون * واتقوا النار التي أعدت للكافرين).

٢- إذا أتاك أمر أو نهي من الله أو رسوله صلى الله عليه وسلم فبادر إلى الامتثال والانقياد والقبول، ودع رأيك وهواك وشهوتك جانبا، محبة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، واعلم أنك بذلك تستنزل رحمة الله عليك (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون).

٣- كن مسارعا إلى أبواب الخير ما استطعت، مسابقا إليها، منافسا فيها، وإياك أن تكون ممن يرضى في الأعمال الصالحة بالقليل، ويرغب عن المزيد، فهذا ميدان السباق الحقيقي، فشمّر عن ساعد الجد، وأر الله من نفسك خيرا، فإن أمامك جنة عرضها السماوات والأرض، فيها من النعيم ما لو غُمست فيه غمسة واحدة لنسيت شقاء الدنيا وأتعابها وهمومها، فكيف إذا سكنتها؟ (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين).

٤- احرص على الإنفاق في وجوه الخير المتنوعة، وإن كنت فقيرا فتصدق ولو بالقليل، فإن أفضل الصدقة جهد المقلّ، واعلم أنك بإنفاقك تحقق التقوى في قلبك، وبرحمتك لعباد الله تستوجب رحمة الله لك (الذين ينفقون في السراء والضراء).

٥- لا تغضب، وإن أغضبك أحد فاكظُم غيظك، وأمسك لسانك، وتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم، وعوّد نفسك الصبر على أذى الناس، واعفُ عمّن ظلمك وأساء إليك، واعلم أنك بذلك تكون من المحسنين الذين يحبهم الله تعالى، لأنك أحسنت إلى نفسك بتحقيق التقوى أولا، وبما تناله من الأجر العظيم ثانيا، وبالسلامة من آثار الغضب والانتقام على نفسك وصحتك وعلى الآخرين ثالثا (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين).

٦- كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، فهل أنت من أولئك الخيار؟ هل أنت من أصحاب القلوب الحية الذين إذا وقعوا في الذنب – مهما عظُم – تذكّروا عظمة الله وإحسانه، وجنته وناره،

ووعده ووعيده، فاستغفروا وأنابوا وأقلعوا عن الذنب ولم يصروا عليه؟ راقب قلبك في ذلك، وأيقظه من رقدته، ونبّهه من غفلته، حتى تكون ممن يَقدُم على الله بقلب سليم، فتفوز بمغفرة الله وجنات تجري من تحتها الأنهار (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين).

٧- لا يغفر الذنوب إلا الله، فليس في الإسلام من يُعطي صكوك الغفران، أو من يُشترط إعلان التوبة بين يديه، فتُب إلى الله وحده، مخلصا في ذلك، مقلعا عن الذنب، نادما على ما كان منك (ومن يغفر الذنوب إلا الله).

٨- سِر في الأرض متفكرا متأملا في مصير أقوام كانوا أشداء أقوياء، فعاقبهم الله لتكذيبهم وكفرهم، واعتبِر بذلك واتّعظ، فإن لم تقدر على السير فاقرأ في القرآن وكتب التفسير والتاريخ أخبار تلك الأمم، ففي ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين).

٩- اقرأ القرآن متدبرا فيه، متفكرا في آياته، متأملا في مواعظه، فإنه قد اشتمل على البيان والهدى والموعظة، ولا يهتدي إلى بيانه وهداه وموعظته إلا المتقون أصحاب القلوب السليمة (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين).

١٠- يجب عليك أن تكون قويا بإيمانك، معتزا بإسلامك، ولا تضعُف أمام الابتلاءات، ولا أمام مكر الأعداء وكيدهم ونشاطهم لنشر باطلهم، ولا تحزن لتسلّط أهل الشر والكفر؛ لأنك توقن بأن العاقبة للمتقين، وأن العلو للمؤمنين، وإنما يضعف أهل الإسلام حينما يضعُف تمسكهم بدينهم، فإياك والضعف والهوان والذلة، فإن ذلك يُفرح أعداءك (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١٤٠-١٥١) من التفسير الميسّر

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)

إن أصابتكم -أيها المؤمنون- جراح أو قتل في غزوة «أُحد» فحزنتم لذلك، فقد أصاب المشركين جراح وقتل مثل ذلك في غزوة «بدر» . وتلك الأيام يُصَرِّفها الله بين الناس، نصر مرة وهزيمة أخرى، لما في ذلك من الحكمة، حتى يظهر ما علمه الله في الأزل ليميز الله المؤمن الصادق مِن غيره، ويُكْرِمَ أقوامًا منكم بالشهادة. والله لا يحب الذين ظلموا أنفسهم، وقعدوا عن القتال في سبيله.

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)

وهذه الهزيمة التي وقعت في «أُحد» كانت اختبارًا وتصفية للمؤمنين، وتخليصًا لهم من المنافقين وهلاكًا للكافرين.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)

يا أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- أظننتم أن تدخلوا الجنة، ولم تُبْتَلوا بالقتال والشدائد؟ لا يحصل لكم دخولها حتى تُبْتلوا، ويعلم الله علما ظاهرا للخلق المجاهدين منكم في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء.

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)

ولقد كنتم -أيها المؤمنون- قبل غزوة «أُحد» تتمنون لقاء العدو؛ لتنالوا شرف الجهاد والاستشهاد في سبيل الله الذي حَظِي به إخوانكم في غزوة «بدر» ، فها هو ذا قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)

وما محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا رسول من جنس الرسل الذين قبله يبلغ رسالة ربه. أفإن مات بانقضاء أجله أو قُتِل كما أشاعه الأعداء رجعتم عن دينكم،، تركتم ما جاءكم به نبيكم؟ ومن يرجِعُ منكم

عن دينه فلن يضر الله شيئًا، إنما يضر نفسه ضررًا عظيمًا. أما مَن ثبت على الإيمان وشكر ربه على نعمة الإسلام، فإن الله يجزيه أحسن الجزاء.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)

لن يموت أحد إلا بإذن الله وقدره وحتى يستوفي المدة التي قدرها الله له كتابًا مؤجَّلا. ومن يطلب بعمله عَرَض الدنيا، نعطه ما قسمناه له من رزق، ولا حظَّ له في الآخرة، ومن يطلب بعمله الجزاء من الله في الآخرة نمنحه ما طلبه، ونؤته جزاءه وافرًا مع ما لَه في الدنيا من رزق مقسوم، فهذا قد شَكَرَنا بطاعته وجهاده، وسنجزي الشاكرين خيرًا.

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)

كثير من الأنبياء السابقين قاتل معهم جموع كثيرة من أصحابهم، فما ضعفوا لِمَا نزل بهم من جروح أو قتل؛ لأن ذلك في سبيل ربهم، وما عَجَزوا، ولا خضعوا لعدوهم، إنما صبروا على ما أصابهم. والله يحب الصابرين.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)

وما كان قول هؤلاء الصابرين إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وما وقع منا مِن تجاوزٍ في أمر ديننا، وثبِّت أقدامنا حتى لا نفرَّ من قتال عدونا، وانصرنا على مَن جحد وحدانيتك ونبوة أنبيائك.

فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

فأعطى الله أولئك الصابرين جزاءهم في الدنيا بالنصر على أعدائهم، وبالتمكين لهم في الأرض، وبالجزاء الحسن العظيم في الآخرة، وهو جنات النعيم. والله يحب كلَّ مَن أحسن عبادته لربه ومعاملته لخلقه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إن تطيعوا الذين جحدوا ألوهيتي، ولم يؤمنوا برسلي من اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه، يضلوكم عن طريق الحق، وترتدُّوا عن دينكم، فتعودوا بالخسران المبين والهلاك المحقق.

بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)

إنهم لن ينصروكم، بل الله ناصركم، وهو خير ناصر، فلا يحتاج معه إلى نصرة أحد.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

سنقذف في قلوب الذين كفروا أشدَّ الفزع والخوف بسبب إشراكهم بالله آلهة مزعومة، ليس لهم دليل أو برهان على استحقاقها للعبادة مع الله، فحالتهم في الدنيا: رعب وهلع من المؤمنين، أما مكانهم في الآخرة الذي يأوون إليه فهو النار؛ وذلك بسبب ظلمهم وعدوانهم، وساء هذا المقام مقامًا لهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١٤٠-١٥١)

الكلمة	المعنى
قَرْح	جِراح أو قتل
نُداوِلُها	نُصرّفها
ولِيُمحّص	وليُميّز ويمتَحن
ويَمحَق	ويُهلك
خَلَت	مَضَت
انقَلبتم على أَعقابِكُم	ارتددتم عن دينكم وتركتم الجهاد
كتابًا مُؤجّلا	موعدًا محدّدا
وكأيّن من نبيّ	وكم من نبي؟ أي: كثيرٌ من الأنبياء
رِبِّيُّون كثير	أتباع كثيرون
فَمَا وَهَنُوا	فما عجزوا وجبُنُوا
وَمَا استكانُوا	وما خضعوا لعدوّهم
يرُدّوكم على أَعقَابِكم	يصرِفوكُم عن دِينكم
مولاكم	ناصرُكم
الرُّعب	شدة الخوف والفزع
ومأواهم	والمكان الذي يُؤوِيهم
مثوى	مقام ومستقرّ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١٤٠-١٥١

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الأربعين بعد المائة وحتى الآية الحادية والخمسين بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت، أين أداة الشرط؟ في قوله (إنْ)، وفعل الشرط (يمسسكم قرحٌ)، جواب الشرط (فقد مس القوم قرحٌ مثله)، ثم جاءت بعده جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وتلك الأيام نداولها بين الناس)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه البقية، وإذا تأملنا فإن قوله بعدها (وليعلم الله الذين آمنوا) فيها واو ولام، والواو فيها تحتمل أن تكون زائدةً، وتحتمل أن تكون عاطفةً، وعلى احتمال زيادتها لا وقف، لأن تقدير الجملة: نداولها بين الناس ليعلم الله الذين آمنوا، فهي جملةٌ تعليليةٌ لما قبلها لبيان السبب، فلا وقف، وعلى تقدير كونها عاطفة فإن في الجملة حذفًا تقديره: وتلك الأيام نداولها بين الناس ليعتبروا ولئلا يغتروا وليعلم الله الذين آمنوا، فهي عطفت على شيءٍ محذوفٍ، وعلى هذا الوجه فالوصل أولى أيضًا، وإذا تأملنا في اللام في قوله (وليعلم الله الذين آمنوا) فإن اللام هنا لامٌ تعليليةٌ، وتقدير الجملة: وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء داول الأيام بينكم، فهي متعلقةٌ بالتداول المحذوف الذي دل عليه السياق، لا بقوله (نداولها بين الناس) الظاهر، كما نص عليه الأشموني، وعلى هذا فإن الوقف له وجهٌ، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويتخذ منكم شهداء)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التعليلية قد انتهت، وجاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله لا يحب الظالمين)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (وليمحص الله الذين آمنوا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ويمحق الكافرين) معطوفٌ على منصوبٍ قبله، وهو قوله (وليمحصَ) وتقدير الجملة: وليمحص الله الذين آمنوا وليمحق الكافرين، فهو من تتمة بيان العلة وبيان حكمة ما حصل لهم يوم أحد، وبناءً عليه لا وقف، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك النحاس والأشموني، ووجه ذلك أن قوله سبحانه بعدها (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) جملةٌ حاليةٌ، وذلك أن تقدير الجملة: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين، فلذلك لم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم. والله سبحانه وتعالى أراد بهذه الجملة أن يعلمنا أن الطمع في دخول الجنة لا يحصل إلا بعد القيام بالجهاد في سبيل الله والصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة.

وهل يصح الوقف على قوله تعالى (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ويعلم الصابرين) الواو فيها واو المعية، ولا يصح الوقف قبل واو المعية، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه) هل يصح الوقف هنا؟

رخص في الوقف هنا السجاوندي لطول الكلام، وجعله الأنصاري صالحًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، بل منع منه الأشموني، أما طول الكلام الذي نص عليه السجاوندي فليس واقعًا، لا يوجد هنا طولٌ في الكلام، وإذا تأملنا فإن قوله (فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) هي جملةٌ من تتمة بيان أن ما تمنوه من الموت قد وقع وصار بين أيديهم، وليس مقصود الجملة بيان أنهم كانوا يتمنون الموت، فإن هذا ليس مقصودًا في ذاته، إنما المقصود بيان أنهم إذا كانوا يتمنون الموت وقد حصل ذلك منهم فقد رأوه وصار عيانًا أمامهم، وبالتالي لا وقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (وما محمدٌ إلا رسولٌ) هل يصح الوقف هنا؟

جوز الوقف هنا السجاوندي والأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة (قد خلت من قبله الرسل) الأصح فيها والله أعلم أنها صفةٌ لـ (رسول)، وليست جملةً مستأنفةً، فالله سبحانه بين هنا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم رسولٌ من الرسل وقد سبقته الرسل، فلا يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قد خلت من قبله الرسل)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم سولٌ قد خلت من قبله رسلٌ مثله قد انتهى هنا، وهو كذلك نهايةٌ لجملة النفي، ثم جاءت بعده جملة استفهامٍ تضمنت بداية المعاتبة لهم فيما حصل منهم، لما قال (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (انقلبتم على أعقابكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الاستفهام قد انتهت، ثم جاءت بعدها جملةٌ شرطيةٌ لبيان الواقع وبيان حكم من يحصل منه هذا الفعل الذي هو الانقلاب على العقبين، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فلن يضرّ الله شيئًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت، أداة الشرط في قوله (مَن)، وفعل الشرط في قوله (ينقلب على عقبيه)، وجواب الشرط (فلن يضر الله شيئًا)، ثم جاءت بعدها جملة مستأنفة فصح الوقف هنا، وهذه الجملة المستأنفة لبيان حال الفريق الآخر وهم من ثبت ولم ينقلب على عقبيه، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي قد انتهت هنا، وذلك أنها تضمنت بيان أنه لا تموت نفسٌ إلا بإذن الله وقضائه وقدره، فتمت الجملة هنا، وأما قوله (كتابًا مؤجلاً) فـ (كتابًا) مفعولٌ مطلقٌ منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ دل عليه السياق، تقديره: كتب الله ذلك كتابًا مؤجلاً، وبناءً عليه يصح الوقف على قوله (بإذن الله)، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (كتابًا مؤجلاً)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بيان أن النفس لا تموت إلا بإذن الله، وأن هذا مقدرٌ محدودٌ بأجلٍ محددٍ قد انتهى هنا، ثم بدأ في بيان جزاء العمل، وهو أمرٌ خارجٌ عن بيان انتهاء الأجل، فاختلف المعنى بين الجملتين، هذا من ناحيةٍ معنويةٍ، ومن ناحيةٍ لفظية جاء بعدها جملةٌ شرطيةٌ في قوله (ومن يرد ثواب الدنيا)، والشرط يصح الابتداء به عادةً، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن بعدها جملةٌ شرطيةٌ في بيان الطرف المقابل، ما هو الطرف المقابل؟ الذي يريد ثواب الآخرة، والله سبحانه وتعالى بين حال من يريد ثواب الدنيا ومن يريد ثواب الآخرة بجملتين معطوفتين، وكل جملةٍ مبدوءةٌ بالشرط، فمن العلماء من يحبذ في مثل هذه الحالات عدم الفصل بين الحالتين المتقابلتين لتظهر الصورة كاملةً، وهو لا شك أجمل في بيان الحكم، ومنهم من نظر إلى الناحية اللفظية، وهي أن كل جملةٍ قائمةٍ بذاتها، فلو قلت: (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها)، لصح المعنى، ولو قلت: (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها)، لصح المعنى وقام بنفسه، صحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت، ثم جاءت بعدها جملة مستأنفة في قوله (وسنجزي الشاكرين)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وكأينٍ من نبيٍ قاتل) هل يصح الوقف هنا؟

اختلفت القراءة هنا، فمنهم من قرأ (وكأينٍ من نبيٍ قُتل)، كما هي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو، وعلى هذه القراءة صحح جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء الوقف على قوله (قُتل)، وتقديره: أي: قُتل النبي، ثم بين أنه كان معه في هذا القتال الذي قُتل فيه ربيون كثيرٌ فكان حالهم أنهم ما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا، ومنهم من منع من الوقف هنا حتى على قراءة (وكأينٍ من نبيٍ قُتل) قالوا: القتل هنا حاصلٌ للربيين وليس للنبي، فتقدير الجملة: وكأينٍ من نبيٍ قُتل معه أتباعٌ كثيرون، فيكون (ربيون) هنا نائب فاعل للفعل (قُتل) المبني لما لم يُسمّ فاعله، وبالتالي لا وقف ولا فصل بين (قُتل) وبين (ربيون)، والأمر في هذا محتملٌ على هذه القراءة.

وأما على قراءة (قاتل معه ربيون كثيرٌ) فإنه لا وقف على قوله (قاتل) لأن (ربيون) فاعلها، يعني: قاتل ربيون مع النبي، فهذا تقدير الجملة، وبالتالي لا وقف على قوله (قاتل).

وهل يصح الوقف على قوله (معه ربيون كثيرٌ)؟

صحح الوقف هنا الهبطي، وجوزه السجاوندي، وعلل السجاوندي ذلك بأنه لابتداء النفي، لأنه جاء بعده جملة نفيٍ مع دخول فاء التعقيب عليها في قوله (فما وهنوا)، وإذا تأملنا فإن الجملة التي بعده المبدوءة

بالنفي إنما هي لبيان موقفهم مع وقوع القتل إما على نبيهم أو على كثيرٍ منهم هم، وبالتالي لم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (وما ضعفوا)، وجملة (وما استكانوا) هي من تتمة بيان حالهم وموقفهم عند وقوع القتل على نبيهم أو على أصحابهم، وبالتالي لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وما استكانوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن بيان حالهم عند وقوع المصاب عليهم قد انتهى هنا، ثم ابتدأ بعد ذلك جملة مستأنفة لبيان أن الله يحب الصابرين، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها (وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا) هل يصح الوقف هنا؟

جوز الوقف هنا الأنصاري والأشموني دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أنهم دعوا ربهم بثلاث دعوات، فهذا نهاية الدعوة الأولى، ثم قالوا (وثبت أقدامنا) نهاية الدعوة الثانية، ثم قالوا (وانصرنا على القوم الكافرين)، وكل دعوة قائمة بنفسها، فصح الفصل بينها، والأمر في هذا محتمل، والله أعلم.

الآية التي تليها (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن بيان ثوابهم قد انتهى، ثم جاءت بعد ذلك جملة مستأنفة في بيان أن الله سبحانه يحب المحسنين، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (فتنقلبوا) جملة مجزومة؛ لأنها معطوفة على مجزوم، معطوفة على جواب الشرط في قوله (يردوكم)، فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها (بل الله مولاكم) هل يصح الوقف هنا؟

صحح الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة (وهو خير الناصرين) جملة مستأنفة، ومن لم ينص على الوقف هنا اعتبرها جملة حالية، وهي تحتمل الأمرين، والأمر في هذا واسع، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن ما بعدها بيان للسبب، لماذا سيلقي الله في قلوبهم الرعب؟ لأنهم أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه كما نص عليه السجاوندي أنه من باب عطف الجملتين المختلفتين، وبيان ذلك أن الجملة الأولى التي سبقت في بيان عاقبتهم – يعني: أهل الكفر – في الدنيا وسبب ذلك، والجملة التي بعدها في قوله (ومأواهم النار) في بيان مصيرهم في الآخرة، فصح الفصل بينهما والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (ومأواهم النار)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن بيان مصيرهم في الآخرة قد انتهى هنا، ثم جاءت بعدها جملة مستأنفة مبدوءة بـ(بِئس) التي لها الصدارة في جملتها، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١٤٠-١٥١

(إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله...):

قال الزركشي: ومس القرح قد وقع بهم، والمعنى: إن يؤلمكم ما نزل بكم فيؤلمهم ما وقع، فالمقصود ذكر الألم الواقع لجميعهم، فوقع الشرط والجزاء على الألم. البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٥٩).

وقال ابن القيم: جمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: {إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله}، فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: {إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون}، فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي. زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٩٩).

وقال السعدي: {إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله} فأنتم وإياهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون، كما قال تعالى: {إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون}، ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا. تفسير السعدي (ص: ١٥٠).

(وتلك الأيام نداولها بين الناس):

عن قتادة في قوله: (وتلك الأيام نداولها بين الناس): إنه والله لولا الدول ما أوذي المؤمنون، ولكن قد يدال للكافر من المؤمن، ويبتلى المؤمن بالكافر، ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه، ويعلم الصادق من الكاذب. تفسير الطبري (٧/ ٢٣٩).

(وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء):

عن أبي الضحى، قال: نزلت هذه الآية في قتلى أحد {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون} ونزل فيهم {ويتخذ منكم شهداء} قال: قتل يومئذ سبعون رجلا أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير أخو بني عبد الدار، والشماس بن عثمان المخزومي، وعبد الله بن جحش الأسدي، وسائرهم من الأنصار. سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٦٩-٣٧٠).

عن ابن جريج في قوله: (وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء)، قال: فإن المسلمين كانوا يسألون ربهم: ربنا أرنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، ونبليك فيه خيرا، ونلتمس فيه الشهادة! فلقوا المشركين يوم أحد، فاتخذ منهم شهداء. تفسير الطبري (٧/ ٢٤٣).

(وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين):

قال ابن تيمية: النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء، كالذهب الذي لا يخلص جيده من رديئه حتى يفتتن في كير الامتحان، إذ كانت النفس جاهلة ظالمة وهي منشأ كل شر يحصل للعبد، فلا يحصل له شر إلا منها. المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٩٥)

وقال ابن القيم: ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم، وقهرهم، وكسرهم لهم أحيانا فيه حكمة عظيمة، لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل:

فمنها: استخراج عبوديتهم وذلهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤالهم نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائما منصورين قاهرين غالبين لبطِروا وأشِروا، ولو كانوا دائما مقهورين مغلوبين منصورا عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرّفهم بين غلبهم تارة، وكونهم مغلوبين تارة، فإذا غُلبوا تضرعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غَلبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوه، ونصروا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائما منصورين، غالبين قاهرين، لدخل معهم من ليس قصده الدين، ومتابعة الرسول، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائما لم يدخل معهم أحد، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة وعليهم تارة. فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والنصب وأضدادها. فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحّصهم، ويخلّصهم، ويهذّبهم. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٨٩-١٩٠).

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين):

قال ابن القيم: إن كمال العبودية والمحبة والطاعة إنما يظهر عند المعارضة والدواعي إلى الشهوات والإرادات المخالفة للعبودية، وكذلك الإيمان تتبين حقيقته عند المعارضة والامتحان، وحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، قال الله تعالى: {الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين}، وقال تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين}، وقال تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا}، فالجنة لا ينالها المكلفون إلا بالجهاد والصبر. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ٢٥٣-٢٥٤).

قال ابن جماعة: قوله تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم) الآية، وفي آل عمران: (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) الآية، وفي التوبة: (أم حسبتم أن تتركوا) الآية.

جوابه: أن آية البقرة في الصبر على ما كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليه من أذى الكفار وتسلية لهم عنه، وكذلك قال: (الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء) ليكون الصحابة مثلهم في الصبر وانتظار الفرج.

وآية آل عمران: وردت في حق المجاهدين، وما حصل لهم يوم أحد من القتل والجراحات والهزيمة، فوردت الآية تصبيرا لهم على ما نالهم ذلك اليوم مما ذكرناه.

والآية الثالثة في التوبة: وردت في الذين كانوا يجاهدون مع النبي صلى الله عليه وسلم، ويباطنون أقاربهم وأولياءهم من الكفار المعاندين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال: (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة)، وقال بعده (لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء) الآية. كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١١٥-١١٦).

وقال ابن عاشور: وعقب هذا النفي بقوله: (ويعلم الصابرين) معطوفا بواو المعية، فهو في معنى المفعول معه، لتنتظم القيود بعضها مع بعض، فيصير المعنى: أتحسبون أن تدخلوا الجنة في حال انتفاء علم الله بجهادكم مع انتفاء علمه بصبركم، أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يجتمع العلمان. التحرير والتنوير (٤/ ١٠٧).

(ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون):

عن قتادة في قوله: (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون)، أناس من المؤمنين لم يشهدوا يوم بدر، والذي أعطى الله أهل بدر من الفضل والشرف والأجر، فكانوا يتمنون أن يرزقوا قتالا فيقاتلوا، فسيق إليهم القتال حتى كان في ناحية المدينة يوم أحد، فقال الله عز وجل كما تسمعون: (ولقد كنتم تمنون الموت)، حتى بلغ (الشاكرين). تفسير الطبري (٧/ ٢٤٩).

وقال ابن كثير: أي: قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليهم، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف).

ولهذا قال: {فقد رأيتموه} يعني: الموت شاهدتموه في لمعان السيوف، وحد الأسنة، واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال. تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٧).

وقال السعدي: وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها. تفسير السعدي (ص: ١٥٠).

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل):

قال ابن تيمية: الله سبحانه وتعالى خاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم فقال {يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة}، {يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك}، {يا موسى إني أنا ربك}، {يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي}، ولما خاطبه صلى الله عليه وسلم قال {يا أيها النبي}، {يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر}، {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك}، {يا أيها المزمل}، {يا أيها المدثر}، فنحن أحق أن نتأدب في دعائه وخطابه.

وأما إذا كان في مقام الإخبار عنه قلنا: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وقلنا: محمد رسول الله وخاتم النبيين، فنخبر عنه باسمه كما أخبر الله سبحانه لما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين}، وقال {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا}، وقال {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل}، وقال {والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد}. فالفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار فرق ثابت بالشرع والعقل. درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٩٧-٢٩٨).

(أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم):

سبب النزول: عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتزل هو وعصابة معه يومئذ على أكمة، والناس يفرون، ورجل قائم على الطريق يسألهم: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وجعل كلما مروا عليه يسألهم، فيقولون: والله ما ندري ما فعل! فقال: والذي نفسي بيده، لئن كان النبي صلى الله عليه وسلم قتل، لنعطينهم بأيدينا، إنهم لعشائرنا وإخواننا! وقالوا: إن محمدا إن كان حيا لم يهزم، ولكنه قتل! فترخصوا

في الفرار حينئذ. فأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية كلها. تفسير الطبري (٧/ ٢٥٧).

وقال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمدا قد قتل. ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدا. وإنما كان قد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} أي: له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه. تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٨).

وقال السعدي: وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فقد رئيس ولو عظُم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فُقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم. تفسير السعدي (ص: ١٥١).

عن أبي نجيح: أن رجلا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل! فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل، فقد بلغ! فقاتلوا عن دينكم. تفسير الطبري (٧/ ٢٥٦).

(وسيجزي الله الشاكرين):

قال ابن القيم: الشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم، وعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره، وقد وقف سبحانه كثيرا من الجزاء على المشيئة، كقوله {فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء}، وقوله في الإجابة {فيكشف ما تدعون إليه إن شاء}، وقوله في الرزق

{يرزق من يشاء}، وفي المغفرة {يغفر لمن يشاء}، والتوبة {ويتوب الله على من يشاء}، وأطلق جزاء الشكر إطلاقا حيث ذكر، كقوله (وسنجزي الشاكرين)، (وسيجزي الله الشاكرين)، ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال {ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين}، ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال تعالى {وقليل من عبادي الشكور}. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١١٧).

عن علي في قوله: (وسيجزي الله الشاكرين)، الثابتين على دينهم، أبا بكر وأصحابه، فكان علي رضي الله عنه يقول: كان أبو بكر أمينَ الشاكرين، وأمينَ أحباء الله، وكان أشكرَهم وأحبَهم إلى الله. تفسير الطبري (٧/ ٢٥٢).

وقال السعدي: وفي هذه الآية أيضا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم هم سادات الشاكرين. تفسير السعدي (ص: ١٥١).

ذكر ما وقع يوم أحد:

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرجالة يوم أحد، وكانوا خمسين رجلا عبد الله بن جبير، فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»، فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن، قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير اثني عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيرا وسبعين قتيلا، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه،

ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء، فقد قتلوا، فما ملك عمر نفسه، فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلة، لم آمر بها ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: اعل هبل، اعل هبل، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا تجيبوه»، قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: (قولوا: الله أعلى وأجل)، قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا تجيبوه؟»، قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا، ولا مولى لكم». صحيح البخاري (٤/ ٦٥).

وعن السدي قال: لما برز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد إليهم - يعني: إلى المشركين - أمر الرماة فقاموا بأصل الجبل في وجوه خيل المشركين، وقال: (لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم). وأمّر عليهم عبد الله بن جبير، أخا خوات بن جبير. ثم شد الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم، وحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فهزموا أبا سفيان، فلما رأى ذلك خالد بن الوليد، وهو على خيل المشركين، كرّ فرمته الرماة فانقمع. فلما نظر الرماة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في جوف عسكر المشركين ينتهبونه، بادروا الغنيمة، فقال بعضهم: (لا نترك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم)! فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر. فلما رأى خالد قلة الرماة، صاح في خيله ثم حمل، فقتل الرماة وحمل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رأى المشركون أن خيلهم تقاتل، تنادوا، فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم.

فأتى ابن قميئة الحارثي - أحد بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة - فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته، وشجه في وجهه فأثقله، وتفرق عنه أصحابه، ودخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس: (إليّ عباد الله! إليّ عباد الله!)، فاجتمع إليه ثلاثون رجلا فجعلوا يسيرون بين يديه، فلم يقف أحد إلا طلحة وسهل بن حنيف، فحماه طلحة، فرمي بسهم في يده فيبست يده.

وأقبل أبي بن خلف الجمحي - وقد حلف ليقتلن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أنا أقتله - فقال: يا كذاب، أين تفر؟ فحمل عليه، فطعنه النبي صلى الله عليه وسلم في جيب الدرع،

فجُرح جرحا خفيفا، فوقع يخور خوار الثور. فاحتملوه وقالوا: ليس بك جراحة!، فما يجزعك؟ قال: أليس قال: (لأقتلنك)؟ لو كانت لجميع ربيعة ومضر لقتلتهم! ولم يلبث إلا يوما وبعض يوم حتى مات من ذلك الجرح.

وفشا في الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قُتل، فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي، فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان! يا قوم، إن محمدا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم. قال أنس بن النضر: يا قوم، إن كان محمد قد قُتل، فإن ربّ محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء! ثم شد بسيفه فقاتل حتى قُتل.

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس، حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة. فلما رأوه، وضع رجل سهما في قوسه فأراد أن يرميه، فقال: (أنا رسول الله)! ففرحوا حين وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا، وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى أن في أصحابه من يمتنع به، فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذهب عنهم الحزن، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا. تفسير الطبري (٧/ ٢٥٤-٢٥٦).

قصة تلاوة أبي بكر رضي الله عنه هذه الآية عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم:

عن عائشة: أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسُنح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشى بثوب، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: «بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك، فقد متها».

وعن عبد الله بن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: (أما بعد: فمن كان منكم يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم، فإن محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} إلى قوله {الشاكرين}، وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها، فقال عمر: «والله ما هو إلا أن

سمعت أبا بكر تلاها فعقرت، حتى ما تقلّني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات». صحيح البخاري (٦/ ١٣).

(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا):

قال ابن كثير: لا يموت أحد إلا بقدر الله، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له؛ ولهذا قال: {كتابا مؤجلا}، كقوله {وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب}، وكقوله {هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده}. وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه. تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٩).

(ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها):

قال الزركشي: لو قيل: نحن نرى من يطلب الدنيا طلبا حثيثا ولا يحصل له منها شيء! قلنا: قال الله تعالى: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد} فعلق ما يريد بالمشيئة والإرادة. البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٦).

وقال ابن كثير: من كان عمله للدنيا فقد نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة من نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا كما قال: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب}، وقال تعالى: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا}. تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٠).

وقال ابن القيم: ما حكم من يريد الدنيا والآخرة؟ فإنه داخل تحت حكم الإرادتين، فبأيهما يلحق؟
قيل: من ها هنا نشأ الإشكال، وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذى يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طردا ولا عكسا، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان

تجرد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل {منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة}، وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة، ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٦٦).

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له). مسند أحمد (٣٥/ ٤٦٧)، سنن الترمذي (٤/ ٢٢٤)، سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٧٥).

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله عز وجل: ابن آدم، تفرغ لعبادتي، أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل، ملأت صدرك شغلا، ولم أسد فقرك). مسند أحمد (١٤/ ٣٢١)، سنن الترمذي (٤/ ٢٢٤)، سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٧٦).

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير...):

قال البغوي: قوله: (قاتل) قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة (قُتل) بضم القاف، وقرأ الآخرون (قاتل).

فمن قرأ (قاتل) فلقوله: (فما وهنوا) ويستحيل وصفهم بأنهم لم يهنوا بعد ما قُتلوا، ولقول سعيد بن جبير: ما سمعنا أن نبيا قُتل في القتال، ولأن (قاتل) أعم، قال أبو عبيدة: إن الله تعالى إذا مدح من قاتل كان من قُتل داخلا فيه، وإذا مدح من قُتل لم يدخل فيه غيرهم، فكان (قاتل) أعم.

ومن قرأ (قُتل) فله ثلاثة أوجه، أحدها: أن يكون القتل راجعا إلى النبي وحده، فيكون تمام الكلام عند قوله: (قاتل)، ويكون في الآية إضمار معناه: ومعه ربيون كثير، كما يقال: قُتل فلان معه جيش كثير، أي: ومعه، والوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الربيين، ويكون المراد: بعض من معه، تقول العرب:

قتلنا بني فلان، وإنما قتلوا بعضهم، ويكون قوله (فما وهنوا) راجعا إلى الباقين، والوجه الثالث: أن يكون القتل للربيين لا غير. تفسير البغوي (١/ ٥٢٠).

وقال ابن تيمية: كون النبي قاتل معه أو قتل معه ربيون كثير لا يستلزم أن يكون معهم في الغزاة، بل كل من اتبع النبي وقاتل على دينه فقد قاتل معه، وكذلك كل من قُتل على دينه فقد قتل معه، وحينئذ تظهر كثرة هؤلاء، فإن الذين قاتلوا وأصيبوا وهم على دين الأنبياء كثيرون. ويكون في هذه الآية عبرة لكل المؤمنين إلى يوم القيامة، فإنهم كلهم يقاتلون مع النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان النبي قد مات. والصحابة الذين كانوا يغزون في السرايا والرسول غائب عنهم كانوا معه وكانوا يقاتلون معه، وهم داخلون في قوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)، وفي قوله: (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم)، فليس من شرط من يكون مع المطاع أن يكون رائيا للمطاع. جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٦٢).

(والله يحب الصابرين):

قال ابن القيم: أخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين، فقال تعالى {والله يحب الصابرين} ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون فقال تعالى {وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٢).

(وما كان قولَهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا):

قال ابن إسحاق: أي: فقولوا كما قالوا، واعلموا أنما ذلك بذنوب منكم، واستغفروا كما استغفروا، وامضوا على دينكم كما مضوا على دينهم، ولا ترتدوا على أعقابكم راجعين، واسألوه كما سألوه أن يثبت أقدامكم، واستنصروه كما استنصروه على القوم الكافرين. فكل هذا من قولهم قد كان وقد قُتل نبيهم، فلم يفعلوا كما فعلتم. تفسير الطبري (٧/ ٢٧٣).

وقال الطبري: وأما الإسراف فإنه الإفراط في الشيء: يقال منه: أسرف فلان في هذا الأمر، إذا تجاوز مقداره فأفرط. ومعناه هاهنا: اغفر لنا ذنوبنا: الصغار منها، وما أسرفنا فيه منها فتخطينا إلى العظام. وكان معنى الكلام: اغفر لنا ذنوبنا، الصغائر منها والكبائر. تفسير الطبري (٧/ ٢٧٢)

وقال ابن تيمية: جمعوا بين الصبر والاستغفار، وهذا هو المأمور به في المصائب: الصبر عليها والاستغفار من الذنوب التي كانت سببها. مجموع الفتاوى (١١/ ٦٩٤).

وقال الألوسي: طلبوا الغفران أولا ليستحقوا طلب النصر على الكافرين بترجحهم بطهارتهم من الذنوب عليهم، وهم محاطون بالذنوب، وفي طلبهم النصر مع كثرتهم المفرطة التي دل عليها ما سبق إيذان بأنهم لا ينظرون إلى كثرتهم، ولا يعولون عليها، بل يسندون ثبات أقدامهم إلى الله تعالى، ويعتقدون أن النصر منه سبحانه وتعالى. روح المعاني (٢/ ٢٩٨).

وقال السعدي: علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها. ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم. تفسير السعدي (ص: ١٥١).

(فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة):

قال البقاعي: {ثواب الدنيا} أي: بأن قبل دعاءهم بالنصر، والغنى بالغنائم وغيرها، وحسن الذكر، وانشراح الصدر، وزوال شبهات الشر. ولما كان ثواب الدنيا كيف ما كان لا بد أن يكون بالكدر مشوبا، وبالبلاء مصحوبا، لأنها دار الأكدار؛ أعراه من وصف الحسن، وخص الآخرة به فقال: {وحسن ثواب الآخرة}. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٨٨)

(سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا):

عن السدي قال: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة، انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق، ثم إنهم ندموا فقالوا: بئس ما صنعتم، إنكم قتلتموهم، حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم! ارجعوا فاستأصلوهم! فقذف الله عز وجل في قلوبهم الرعب، فانهزموا. فلقوا أعرابيا، فجعلوا له جعلا وقالوا له: إن لقيت محمدا فأخبره بما قد جمعنا لهم. فأخبر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد، فأنزل الله عز وجل في ذلك، فذكر أبا سفيان حين أراد أن يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وما قذف في قلبه من الرعب فقال: (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله). تفسير الطبري (٧/ ٢٨٠).

عن جابر بن عبد الله، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة). صحيح البخاري (١/ ٧٤)، صحيح مسلم (١/ ٣٧٠).

وقال ابن تيمية: المشرك يخاف المخلوقين، ويرجوهم، فيحصل له رعب، كما قال تعالى: {سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا}، والخالص من الشرك يحصل له الأمن، كما قال تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٢٣٢).

وقال أيضا: الكفار يوقع الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين، والشيطان لا يختار ذلك، قال تعالى: (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله)، وقال تعالى: (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم) الآية، وقال: (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا). وفي حديث قريظة أن جبريل قال: (إني ذاهب إليهم فأزلزل بهم الحصن). فتخويف الكفار والمنافقين وإرعابهم هو من الله نصر للمؤمنين. جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٥٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١٤٠-١٥١

١- الله سبحانه وتعالى يبتلي المسلمين بالهزيمة والمصائب ونصر الكافرين عليهم عقوبة للعاصين منهم، وتطهيرا للمؤمنين، وامتحانا لهم، وتصفية للصف من المنافقين، وإكراما لبعض المؤمنين بالشهادة، فيجب عليك أن تكون مؤمنا بحكمة الله في مداولة الأيام بين الناس، وتعلم أن العاقبة في النهاية للمؤمنين (إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين).

٢- طريق الجنة محفوف بالمكاره، ولا يتجاوزه أحد إلا على ظهر الجهاد والصبر، وليس بالأماني والأحلام، واللهث وراء الشهوات، والرضا بالراحة والنعيم، فشمّر عن ساعد الجد، واصبر وصابر واجتهد (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين).

٣- لا تتمنّ الشرور من الأمراض ولقاء الأعداء، فإنك لا تدري أتقدر على الصبر وتقوم بالواجب أم لا؟ فسل الله العافية، وإن ابتليت بشيء من ذلك فاثبت واصبر وصابر ورابط (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون).

٤- كن مؤمنا قويا، لا يتزعزع إيمانك لمصيبة نزلت بك أو بالمؤمنين، ولا يضعف أمام أمواج الباطل العاتية، فإن الله عاتب الصحابة رضوان الله عليهم على ترك القتال لما أشيع فيهم أعظم مصاب على الإطلاق (مقتل النبي صلى الله عليه وسلم على أيدي الكفار)، فالثبات الثبات فإنك في زمن تلفّ بك المصائب والبلايا من كل ناحية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئا).

٥- أدِم شكر ربك بقلبك ولسانك وجوارحك، وأكثر من حمده سبحانه في كل أحوالك، وسله العون على أداء شكر نعمه، وأبشر بالمزيد من النعيم، وبالجزاء العظيم الذي لا حد له (وسيجزي الله الشاكرين)، (وسنجزي الشاكرين).

٦- عمرك وأجلك ثابت عند الله، لا يزيده الحرص على الدنيا، ولا ينقصه الإقدام والشجاعة، فاحذر من ترك الواجبات خوفا من الموت والمصائب (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا).

٧- أخلِص لله في أعمالك كلها، واقصِد بأعمالك وجه الله والدار الآخرة، فهناك الثواب الحقيقي، وتلك دار الجزاء الأوفى، واحذر أن تعمل الأعمال الصالحة لتنال مالا أو منصبا أو جاها أو سمعة أو مكانة أو شرفا، فإن ذلك يُحبط عملك، ويجعل تعبك هباء منثورا، بل ينقلب وبالا عليك يوم القيامة (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها).

٨- إذا صعُبت عليك طاعة وثقُل عليك أداؤها فاستعن عليها بثلاث: الصبر، وسؤال الله العون عليها، والاستغفار من ذنوبك، فهي مفاتيح التيسير، وطريق التوفيق، ولن يخذل الله عبدا سأله العون على طاعته بصدق ويقين (والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة).

٩- كن صابرا على أداء الطاعات، صابرا عن ارتكاب المحرمات، صابرا عند نزول الأقدار المكروهات، محسنا في عبادة الله، محسنا إلى خلق الله، وأبشر بمحبة الله لك، وما أعظمها من منزلة! (والله يحب الصابرين)، (والله يحب المحسنين).

١٠- احذر من طاعة الكفار والمنافقين، أو تقليدهم في عاداتهم وعباداتهم، أو التشبه بهم في لباسهم وهيئاتهم، فإنهم يستدرجونك خطوة خطوة حتى يردوك عن دينك إن استطاعوا، وتلك الخسارة الكبرى، والبلية العظمى، ولا تغترّ بما يظهرونه من مناصرتك وتأييدك، فإن الله هو خير الناصرين (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين).

١١- الكافر يعيش في حياته خائفا مرعوبا من المسلمين، قلقا من مصائب الدنيا، لأنه لا يلجأ لله وحده في عبادته، فأنى لقلبه أن يسكن ويطمئن ويرتاح؟ وتلك عاجل عقوبته في الدنيا، غير ما ادّخر الله له في الآخرة من النار والعياذ بالله، فاحمد الله أن جعلك مؤمنا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا، فتعيش في أمان وسلام؛ لأن قلبك مطمئن بربه متوكل عليه محسن للظن به (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١٥٢-١٦٠) من التفسير الميسّر

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

ولقد حقق الله لكم ما وعدكم به من نصر، حين كنتم تقتلون الكفار في غزوة «أُحد» بإذنه تعالى، حتى إذا جَبُنتم وضعفتم عن القتال واختلفتم: هل تبقون في مواقعكم أو تتركونها لجمع الغنائم مع مَن يجمعها؟ وعصيتم أمر رسولكم حين أمركم ألا تفارقوا أماكنكم بأي حال، حلَّت بكم الهزيمة من بعد ما أراكم ما تحبون من النصر، وتبيَّن أن منكم مَن يريد الغنائم، وأن منكم مَن يطلب الآخرة وثوابها، ثم صرف الله وجوهكم عن عدوكم؛ ليختبركم، وقد علم الله ندمكم وتوبتكم فعفا عنكم، والله ذو فضل عظيم على المؤمنين.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)

اذكروا -يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم- ما كان مِن أمركم حين أخذتم تصعدون الجبل هاربين من أعدائكم، ولا تلتفتون إلى أحد لِمَا اعتراكم من الدهشة والخوف والرعب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت في الميدان يناديكم من خلفكم قائلا إليَّ عبادَ الله، وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون، فكان جزاؤكم أن أنزل الله بكم ألمًا وضيقًا وغمًّا؛ لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من نصر وغنيمة، ولا ما حلَّ بكم من خوف وهزيمة. والله خبير بجميع أعمالكم، لا يخفى عليه منها شيء.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)

ثم كان من رحمة الله بالمؤمنين المخلصين أن ألقى في قلوبهم من بعد ما نزل بها من همٍّ وغمٍّ اطمئنانًا وثقة في وعد الله، وكان من أثره نعاس غَشِي طائفة منهم، وهم أهل الإخلاص واليقين، وطائفة أُخرى أهمَّهم

خلاص أنفسهم خاصة، وضَعُفَتْ عزيمتهم وشُغِلوا بأنفسهم، وأساؤوا الظن بربهم وبدينه وبنبيه، وظنوا أن الله لا يُتِمُّ أمر رسوله، وأن الإسلام لن تقوم له قائمة، ولذلك تراهم نادمين على خروجهم، يقول بعضهم لبعض: هل كان لنا من اختيار في الخروج للقتال؟ قل لهم -أيها الرسول-: إن الأمر كلَّه لله، فهو الذي قدَّر خروجكم وما حدث لكم، وهم يُخْفون في أنفسهم ما لا يظهرونه لك من الحسرة على خروجهم للقتال، يقولون: لو كان لنا أدنى اختيار ما قُتِلنا هاهنا. قل لهم: إن الآجال بيد الله، ولو كنتم في بيوتكم، وقدَّر الله أنكم تموتون، لخرج الذين كتب الله عليهم الموت إلى حيث يُقْتلون، وما جعل الله ذلك إلا ليختبر ما في صدوركم من الشك والنفاق، وليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال. والله عليم بما في صدور خلقه، لا يخفى عليه شيء من أمورهم.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

إن الذين فرُّوا منكم -يا أصحاب صلى الله عليه وسلم- محمد عن القتال يوم التقى المؤمنون والمشركون في غزوة «أُحد» ، إنما أوقعهم الشيطان في هذا الذنب ببعض ما عملوا من الذنوب، ولقد تجاوز الله عنهم فلم يعاقبهم. إن الله غفور للمذنبين التائبين، حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا تُشابهوا الكافرين الذين لا يؤمنون بربهم، فهم يقولون لإخوانهم من أهل الكفر إذا خرجوا يبحثون في أرض الله عن معاشهم أو كانوا مع الغزاة المقاتلين فماتوا أو قُتِلوا: لو لم يخرج هؤلاء ولم يقاتلوا وأقاموا معنا ما ماتوا وما قُتلوا. وهذا القول يزيدهم ألمًا وحزنًا وحسرة تستقر في قلوبهم، أما المؤمنون فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله فيهدي الله قلوبهم، ويخفف عنهم المصيبة، والله يحيي مَن قدَّر له الحياة -وإن كان مسافرًا أو غازيًا- ويميت مَنِ انتهى أجله -وإن كان مقيمًا- والله بكل ما تعملونه بصير، فيجازيكم به.

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)

ولئن قُتِلتم -أيها المؤمنون- وأنتم تجاهدون في سبيل الله أو متم في أثناء القتال، ليغفرن الله لكم ذنوبكم، وليرحمنكم رحمة من عنده، فتفوزون بجنات النعيم، وذلك خير من الدنيا وما يجمعه أهلها.

وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

ولئن انقضت آجالكم في هذه الحياة الدنيا، فمتم على فُرُشكم، أو قتلتم في ساحة القتال، لإلى الله وحده تُحشرون، فيجازيكم بأعمالكم.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

فبرحمة من الله لك ولأصحابك -أيها النبي- منَّ الله عليك فكنت رفيقًا بهم، ولو كنت سيِّئ الخُلق قاسي القلب، لانْصَرَفَ أصحابك من حولك، فلا تؤاخذهم بما كان منهم في غزوة «أُحد» ، واسأل الله -أيها النبي- أن يغفر لهم، وشاورهم في الأمور التي تحتاج إلى مشورة، فإذا عزمت على أمر من الأمور -بعد الاستشارة- فأَمْضِه معتمدًا على الله وحده، إن الله يحب المتوكلين عليه.

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

إن يمددكم الله بنصره ومعونته فلا أحد يستطيع أن يغلبكم، وإن يخذلكم فمن هذا الذي يستطيع أن ينصركم من بعد خذلانه لكم؟ وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١٥٢-١٦٠)

المعنى	الكلمة
تقتُلونهم	تَحُسُّونهم
ضعُفتم	فَشِلتُم
ردّكم عنهم بالهزيمة	صرَفكم عنهم
تَصعدون الجبل هاربين	تُصعِدون
ولا تلتفتون إلى أحد	ولا تلوُون على أحد
يناديكم من خلفكم	يدعوكم في أُخراكم
فأصابكم بغمّ بعد غمّ	فأثابكم غمًا بِغَم
أمانا من الخوف واطمئنانا	أمَنَة
ظنّ أن الله لن ينصر دينه ولن يُتمّ نوره	ظنّ الجاهليّة
هل كان لنا من اختيار في الخروج للقتال؟	هل لنا من الأمر من شيء
لخرج	لَبَرز
إلى مواضع قتلِهم	إلى مضَاجِعهم
وليُميّز	ولِيُمحِّص
أوقعهم في الذنب	استَزَلَّهُم
بسبب بعض ذنوبهم السابقة	بِبَعضِ ما كسبوا
لا يُعاجل من عصاه بالعقوبة	حلِيم
سافرُوا	ضَربُوا في الأرض
مقاتلين	غُزًّى
كنتَ رفيقا سهلا في معاملتهم	لِنتَ لهم
سيء الخلق قاسيًا	فَظًا
لتفرّقوا عنك ونفروا منك	لانْفَضُّوا مِن حَولِك
فلا قاهر ولا خاذل لكم	فلا غَالِبَ لَكُم
يهزمْكم	يَخذُلْكُم

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١٥٢-١٦٠

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الثانية والخمسين بعد المائة وحتى الآية الستين بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإنه قد جاء بعد هذه الجملة قوله تعالى (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر)، و (حتى) هنا تحتمل أن تكون ابتدائية، فهي يبتدأ بها للاستئناف، ويدل على ذلك أنه جاء بعدها (إذا) الشرطية، وهي تحتاج إلى جواب، فهي جملةٌ مبتدأةٌ مستأنفةٌ بناءً على هذا الاحتمال، وتحتمل أن تكون لانتهاء الغاية، وتكون (إذا) هنا بمعنى (إذ)، فيكون تقدير الجملة: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه إلى أن فشلتم...، حتى إذ فشلتم، و (إذ) لا تحتاج إلى جواب، وهنا لا يوجد في الجملة جواب، ومن قال إن (إذا) على بابها شرطيةٌ تحتاج إلى جواب، فإنه جعل الجواب محذوفًا دل عليه السياق، فيكون تقدير الجملة على الاحتمال الأول أن (حتى) بمعنى الابتداء، (ولقد صدقكم الله وعده) يعني وعده لكم بالنصر إذ تقتلونهم قتلاً شديدًا بإذنه سبحانه، وانتهت الجملة، ثم بين في جملةٍ أخرى أنكم لما فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون انقلب الأمر وخسرتم وانهزمتم، وعلى الاحتمال الثاني معنى الجملة: صدقكم الله وعده لكم بالنصر إذ كنتم تقتلونهم قتلاً شديدًا بإذنه سبحانه إلى أن فشلتم، يعني أن وعده لكم كان نافذًا إلى هذه اللحظة التي فشلتم فيها وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم كما تحبون، والوقف هنا محتمل كما ترى، والله أعلم.

وهنا فائدةٌ عامةٌ (حتى) إذا جاءت بعدها (إذا) فإنها غالبًا تكون ابتدائية، بمعنى أنه يصح الوقف قبلها، إلا أنها أحيانًا تكون لانتهاء الغاية، وبالتالي لا يصح الوقف قبلها، وهذا في عموم القرآن، وقد جاءت في القرآن في مواضع كثيرة، في أكثر من أربعين موضعًا، وجاءت في بداية آياتٍ كثيرة كذلك في أكثر من عشر آيات ابتدئت بـ (حتى إذا)، (حتى إذا أتوا على واد النمل)، (حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم)، (حتى إذا جاؤوا قال أكذبتم بآياتي)، (حتى إذا رأوا ما يوعدون)، إلى غير ذلك من الأمثلة، فـ (حتى إذا) يصح الابتداء بها غالبًا إذا حملت على معنى أنها (حتى) الابتدائية، أما إذا كانت على معنى (حتى) الغائية التي هي لانتهاء الغاية فإنه

لا يصح الابتداء بها أو الوقف قبلها، وهذا كما ذكرت إذا جاء بعدها كلمة (إذا)، (حتى إذا)، أما إذا جاءت مجردةً عن (إذا) فإنه لا يصح الوقف قبلها، لأنها تكون لانتهاء الغاية، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الجملة قد ابتدأت بشرطٍ على قول، وبـ (إذ) غير الشرطية على قول، يعني أن تقدير الجملة: إذا فشلتم، (إذا) على بابها وتحتاج إلى جواب على القول الأول، وعلى القول الثاني أن (إذا) بمعنى (إذ) ولا تحتاج إلى جواب، فإذا كانت تحتاج إلى جوابٍ فإن جوابها محذوفٌ دل عليه السياق كما سبق، (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) ما الذي حصل؟ الجواب: انقلب الأمر وهزمتم. وإذا كانت بمعنى (إذ) فإنها لا تحتاج إلى جواب، ويكون تقدير الجملة: صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه إلى أن فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فانتهت الجملة بناءً على التقديرين، وبالتالي يصح الوقف هنا.

ثم الجملة التي بعدها هي جملةٌ معترضةٌ في بيان حال من يريد الدنيا وحال من يريد الآخرة، وجاء بعدها (ثم) لبيان ما حصل بعد أن انقلب الأمر على المسلمين، وبناءً عليه يصح الوقف قبل الجملة المعترضة وفي نهايتها، بمعنى يصح الوقف على قوله (من بعد ما أراكم ما تحبون)، ثم تقرأ الجملة المعترضة لوحدها (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) ويوقف هنا، كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ثم يبتدأ بقوله (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم).

ووجه ذلك أن (ثم) في قوله (ثم صرفكم) معطوفٌ على الجملة التي قبل الجملة المعترضة، فلما جاءت الجملة المعترضة صح فصلها مع كونها معطوفة، والذين صرفهم الله ليسوا هم الذين عصوا وفشلوا وتنازعوا في الأمر، إنما هم طائفةٌ أخرى، فمن عصى ذكرهم في البداية، ومن ثبت ابتلاهم الله أيضًا بصرفهم عن المشركين، فهم طائفةٌ أخرى، فلذلك صح الفصل بين الطائفتين لهاتين العلتين، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم)؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوزه السجاوندي، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ووضعت هنا علامة الوصل أولى في مصحف المدينة والمصحف الدمشقي.

وإذا تأملنا فإن قوله بعدها (ولقد عفا عنكم) جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بلامٍ واقعةٍ في جواب قسمٍ مقدرٍ، فهي جملة قسم مبدوءةٌ بالقسم، وبـ (قد) فيصح الوقف هنا لذلك، هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى الله سبحانه

وتعالى عند قوله (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) انتهى من ذكر ما وقع منهم، ثم ذكر حكمًا منه سبحانه وتعالى بأنه قد عفا عنهم، فصح الفصل بين ذكر ما حصل منهم وبين عفو الله عنهم، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولقد عفا عنكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله ذو فضلٍ على المؤمنين).

الآية التي تليها: (إذ تصعدون ولا تلوون على أحدٍ) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الإمام نافع والأشموني على اعتبار ما بعده مستأنفًا، ومنع منه الأنصاري لتعلق ما بعده به، وإذا تأملنا فإن قوله (والرسول يدعوكم في أخراكم) هذه الجملة تحتمل الاستئناف كما ذكر الأشموني، وتحتمل ان تكون حاليةً، وتقدير الجملة: إذ تصعدون ولا تلوون على أحدٍ إذ الرسول يدعوكم في أخراكم، والحال أن الرسول يدعوكم من خلفكم وأنتم تفرون ولا تلتفتون إلى أحدٍ، ولعل هذا هو الأقرب، وهو الظاهر من سياق الآية، وبالتالي لا وقف على قوله (ولا تلوون على أحد).

وهل يصح الوقف على قوله (والرسول يدعوكم في أخراكم)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعده فاء لربط السبب بالمسبب في قوله (فأثابكم) فهي نتيجة فعلهم أنه أثابهم غمًا بغمٍ، فدل على أنه لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فأثابكم غمًا بغمٍ)؟

نص على الوقف هنا الإمام نافع دون غيره من علماء الوقف والابتداء، ومنع منه الأنصاري لتعلق ما بعده به، وذلك أن جملة (لكيلا تحزنوا) جملةٌ تعليليةٌ لما سبق، فالله سبحانه وتعالى أثابهم غمًا بغمٍ لئلا يحزنوا، فهي مرتبطةٌ بما قبلها، فلم يصح الوقف على قوله (غمًا بغمٍ)، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا ما أصابكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التعليلية قد انتهت هنا، ثم جاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله خبيرٌ بما تعملون) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاسًا يغشى طائفةً منكم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه آخرون، بل منع منه السجاوندي، وبين النحاس أنه لا يصح الوقف هنا على مذهب سيبويه، وبيان ذلك أن جملة (وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم) تحتمل احتمالين:

الاحتمال الأول: أن تكون جملةً ابتدائيةً مستأنفةً، فالله سبحانه وتعالى بين في الجملة الأولى أن الأمان والاطمئنان والنعاس قد غشي طائفةً منهم، ثم بين حال طائفةٍ أخرى وهم المنافقون في قوله (وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية...) إلى آخر السياق، وبناءً عليه يصح الوقف هنا.

والاحتمال الآخر: أن جملة (وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم) جملةٌ حاليةٌ، والواو هنا واو الحال بمعنى (إذ)، وتقدير الجملة بناءً على هذا الاحتمال، أن الله سبحانه وتعالى قد بين أنه أنزل أمانًا ونعاسًا قد غشي طائفةً منهم وهم المؤمنون في حين أن طائفةً أخرى قد أهمتهم أنفسهم، وهذا هو مذهب سيبويه الذي أشار إليه النحاس، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قد أهمّتهم أنفسهم)؟

جوّز الوقف هنا الأشموني، وجعله الأنصاري صالحًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (وطائفةٌ) مبتدأ، خبره يحتمل أن يكون (قد أهمتهم)، وبناءً عليه تتم الجملة على قوله (وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم)، ثم وصفهم بوصفٍ آخر في قوله (يظنون بالله). ويحتمل أن يكون خبر المبتدأ في قوله (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)، ويكون (قد أهمتهم أنفسهم) نعتٌ للطائفة، يعني أن الطائفة الذين قد أهمتهم أنفسهم كان حالهم أنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، وهذا الاحتمال لعله هو الأقرب، وبناءً عليه لم ينص عامة علماء الوقف والابتداء على وقفٍ هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (يقولون هل لنا من الأمر من شيءٍ) تحتمل أن تكون جملةً مستأنفةً، وهذه هي نظرة من نص على صحة الوقف هنا، وتحتمل أن تكون جملةً حاليةً أو تكون خبرًا بعد خبرٍ، فـ (يظنون) كما سبق خبرٌ أول عن هذه الطائفة، و (يقولون) خبرٌ آخر عنهم، أو هي جملةٌ حالية بمعنى أن ظنهم بالله غير الحق ظن الجاهلية كان بقولهم (هل لنا من الأمر من شيء) وجميع هذه الاحتمالات واردةٌ، وبناءً عليه الوقف هنا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يقولون هل لنا من الأمر من شيءٍ)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قولهم قد انتهى هنا، ثم جاء بعده الرد عليهم، والجواب على قولهم، فصح الفصل بين قولهم وبين الجواب عليهم.

وهل يصح الوقف على قوله (قل إن الأمر كله لله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجواب على قولهم قد انتهى هنا، وهذه الجملة - أعني جملة (قل إن الأمر كله لله) - هي كذلك جملةٌ معترضةٌ بين بيان حال هؤلاء المنافقين، للجواب على قولٍ من أقوالهم، فصح الوقف قبلها وفي نهايتها، يعني على قوله (يقولون هل لنا من الأمر من شيءٍ) ثم على قوله (قل إن الأمر كله لله)، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنهم اعتبروا جملة (يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلها هاهنا) جملة مستأنفة، ومنهم من جعلها جملةً بيانيةً لما كانوا يخفونه في أنفسهم، فكانوا يخفون في أنفسهم أنهم يقولون (لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا هاهنا) أو هي صفةٌ بعد صفةٍ، فهم يخفون ما لا يبدون لك من أمورٍ كثيرةٍ، ويقولون أيضًا لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا ههنا، والأمر هنا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلها هاهنا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قولهم قد انتهى هنا، ثم جاء الرد عليهم في قوله (قل كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الجملة التي بعدها وهي قوله (وليبتلي الله ما في صدوركم) الواو فيها تحتمل أن تكون مقحمةً يعني زائدة، وتحتمل أن تكون عاطفةً على محذوفٍ، فالتقدير على احتمال كونها مقحمةً يكون: لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ليبتلي الله ما في صدوركم، وبناءً على كونها عاطفةً يكون التقدير: لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم لينفذ الحكم فيكم، وليبتلي الله ما في صدوركم، فهي معطوفةٌ على محذوفٍ دل عليه السياق، وبناءً على كونها زائدةً لا يصح الوقف، وبناءً على كونها عاطفةً الوقف له وجهٌ، والأمر في هذا محتمل، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وليمحّصَ ما في قلوبكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة في قوله (والله عليمٌ بذات الصدور) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إنّ الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك السجاوندي والأشموني، ووجه ذلك أن خبر (إنّ) لم يأت بعد، (إنّ) اسمها في قوله (الذين تولوا منكم) إلى آخر الجملة، وخبرها في قوله (إنما استزلهم الشيطان)، فلم يصح الفصل بين اسمها وخبرها.

وهل يصح الوقف على قوله (ببعض ما كسبوا)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنّ) مع اسمها وخبرها قد انتهت هنا، ثم جاءت بعد ذلك جملةٌ مبدوءةٌ بقسمٍ دل عليه اللام الواقعة في جواب القسم المحذوف المقدر، وابتدأت أيضًا بـ (قد) التي لها الصدارة في جملتها، وابتدأت كذلك بالواو الاستئنافية على الصحيح، ويدل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن حال الذين فروا عند التقاء الصفين يوم أحد، ثم بين أنه سبحانه قد عفا عنهم في جملةٍ مبدوءةٍ بـ (قد) وبـ (اللام) الواقعة في جواب القسم وبـ (الواو) الاستئنافية، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولقد عفا الله عنهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة في قوله (إن الله غفورٌ حليمٌ)، مبدوءةٌ بـ (إنّ) التي يصح الابتداء بها عادةً، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) كل هذا لا يصح الوقف عليه باتفاق علماء الوقف والابتداء، إلى ما قبل (وما قُتلوا)، لأنها جملةٌ واحدةٌ فيها النهي عن التشبه بالذين كفروا وقالوا لإخوانهم، وذكر الله سبحانه وتعالى قولهم، ولم ينتهِ قولهم إلا على قوله (وما قُتلوا).

وهل يصح الوقف على قوله (وما قتلوا)؟

نص على الوقف هنا الأخفش، وجوّزه السجاوندي، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قولهم لإخوانهم قد انتهى هنا، لكن جاءت بعدها (لام) العاقبة، لام الصيرورة في قوله (ليجعل الله ذلك

حسرةً في قلوبهم)، والمعنى صار أمرهم إلى ذلك بسبب مقالتهم هذه، فكأنه قال: لا تكونوا مثلهم ليجعل الله ذلك حسرةً في قلوبهم دونكم، بل كونوا مؤمنين بقضاء الله وقدره، وبناءً على ذلك لا يصح الوقف على قوله (وما قُتلوا)، وهو الذي عليه عامة علماء الوقف والابتداء، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ليجعل الله ذلك حسرةً في قلوبهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي فيها بيان حال الذين كفروا والذين قالوا لإخوانهم ما قالوا وما ترتب على ذلك من عاقبةٍ عليهم قد انتهت هنا، ثم ابتدأ بعد ذلك جملةً مستأنفةً في قوله (والله يحيي ويميت)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (والله يحيي ويميت)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة أخرى، فصح الوقف بين الجملتين المستأنفتين، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ مما يجمعون) لا وقف فيها؛ لأنها جملةٌ شرطيةٌ ابتدأت بقوله (إنْ)، ثم فعل الشرط في قوله (قتلتم في سبيل الله)، ثم عطف عليه (أو متم)، ثم جواب الشرط في قوله (لمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ مما يجمعون).

الآية التي تليها: (ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) كذلك لا وقف فيها، لأنها تضمنت شرطًا وفعله وجوابه، الشرط في قوله (إنْ)، وفعله في قوله (متم)، وعطف عليه (أو قتلتم)، وجوابه في قوله (لإلى الله تحشرون).

الآية التي تليها: (فبما رحمةٍ من الله لنت لهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه جاء بعدها جملة مبدوءة بـ (لو) الشرطية، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (لانفضّوا من حولك)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة الشرط قد انتهت عند قوله (مِن حولِك)، الشرط في قوله (لو)، وفعله في قوله (كنت فظًا غليظ القلب)، وجوابه في قوله (لانفضوا من حولك)، ثم جاء بعد الجملة الشرطية الخبرية جملة أمرٍ في قوله (فاعف عنهم)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

ثم لا وقف بين الأوامر في قوله (فاعف عنهم) (واستغفر لهم) لعطفها على بعضها.

وهل يصح الوقف في نهاية الأوامر في قوله: (وشاورهم في الأمر)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الأوامر قد انتهت هنا، ثم جاءت بعدها جملةٌ شرطيةٌ في قوله (فإذا عزمت فتوكل على الله)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فإذا عزمت فتوكل على الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت في قوله (فإذا عزمت)، (إذا) أداة الشرط، (عزمت) فعل الشرط، (فتوكل على الله) جواب الشرط، ثم جاءت بعده جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية الأخيرة: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله بعدها (وإن يخذلكم) جملةٌ شرطيةٌ جديدةٌ بعد الجملة الشرطية في قوله: (إن ينصركم الله)، وهي من باب بيان الحال المقابلة لحال النصر، فهما حالان لا ثالث لهما، وقد ذكر كل حالٍ في جملةٍ مستقلةٍ، فمن حيث اللفظ يصح الفصل بين الجملتين، لأن كل جملةٍ شرطيةٍ قد استقلت بنفسها بأداة الشرط وفعله وجوابه، وإذا نظرنا إلى ناحيةٍ معنويةٍ فإن تتمة بيان أن النصر بيد الله وحده يكون أكمل بالوصل بين الجملتين، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فمن ذا الذي ينصركم من بعده)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية الثانية قد انتهت، ثم جاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ في قوله: (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهي كذلك جملةٌ تضمنت أمرًا بعد الخبر، وذلك أن الخبر في قوله: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده)، هذا كله خبر، ثم جاء الأمر (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)، فصح الفصل بين الأمر والخبر، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١٥٢-١٦٠

(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه):

قال الطبري: والوعد الذي كان وعدهم على لسانه بأحد، قوله للرماة: (اثبتوا مكانكم ولا تبرحوا، وإن رأيتمونا قد هزمناهم، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم). وكان وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم النصر يومئذ إن انتهوا إلى أمره. تفسير الطبري (٧/ ٢٨١).

(حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون):

قال البغوي: (حتى إذا فشلتم) أي: جبنتم. وقيل: معناه فلما فشلتم تنازعتم في الأمر وعصيتم، الواو زائدة في (وتنازعتم) يعني: حتى إذا فشلتم تنازعتم. وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: حتى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتم فشلتم. تفسير البغوي (١/ ٥٢٢).

وقال ابن جُزي: وجاءت المخاطبة في هذا لجميع المؤمنين وإن كان المخالف بعضهم وعظا للجميع، وسترا على من فعل ذلك. التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٦٧).

وقال البقاعي: {حتى إذا فشلتم} أي ضعفتم وتراخيتم بالميل إلى الغنيمة خلاف ما تدعو إليه الهمم العوالي، فكيف بهم إذا كانوا من حزب مولى الموالي! وكانت العرب على حال جاهليتها تتفاخر بالإقبال على الطعن والضرب في مواطن الحرب والإعراض عن الغنائم... ولما ذكر الفشل عطف عليه ما هو سببه في الغالب. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٩٣)

عن ابن عباس، أنه قال: ما نصر الله تبارك وتعالى في موطن، كما نصر يوم أحد. قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله تبارك وتعالى، إن الله عز وجل يقول في يوم أحد: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه} يقول ابن عباس: والحس: القتل، {حتى إذا فشلتم} إلى قوله {ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين}، وإنما عنى بهذا الرماة، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أقامهم في موضع،

ثم قال: (احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل، فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا)، فلما غنم النبي صلى الله عليه وسلم، وأباحوا عسكر المشركين، أكب الرماة، فدخلوا في العسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم هكذا - وشبك بين أصابع يديه - والتبسوا، فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فضرب بعضهم بعضا، والتبسوا، وقُتل من المسلمين ناس كثير... وصاح الشيطان: قُتل محمد، فلم يُشك فيه أنه حق، فما زلنا كذلك ما نشك أنه قد قُتل، حتى طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السعدين نعرفه بتكفئه إذا مشى، قال: ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا، قال: فرقي نحونا، وهو يقول: (اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله)، قال: ويقول مرة أخرى: (اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا) حتى انتهى إلينا... مسند أحمد (٤/ ٣٦٨-٣٧٠)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٢٤).

(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة):

قال السدي: لما نظر الرماة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في جوف عسكر المشركين ينتهبونه، بادروا الغنيمة، فقال بعضهم: لا نترك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم! فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر. فلما رأى خالد قلة الرماة صاح في خيله، ثم حمل فقتل الرماة، ثم حمل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. فلما رأى المشركون أن خيلهم تقاتل، تنادوا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم. تفسير الطبري (٧/ ٢٨١-٢٨٢).

(ولقد عفا عنكم):

عن الحسن، في قوله: (ولقد عفا عنكم)، قال الحسن، وصفق بيديه: وكيف عفا عنهم، وقد قتل منهم سبعون، وقتل عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكسرت رباعيته، وشج في وجهه؟ قال: ثم يقول: قال الله عز وجل: (قد عفوت عنكم إذ عصيتموني، ألا أكون استأصلتكم). قال: ثم يقول الحسن: هؤلاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي سبيل الله، غضاب لله، يقاتلون أعداء الله، نهوا عن شيء فصنعوه، فوالله ما تُركوا حتى غُموا بهذا الغم، فأفسق الفاسقين اليوم يتجرثم كل كبيرة، ويركب كل داهية، ويسحب عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه!! فسوف يعلم. تفسير الطبري (٧/ ٢٩٨).

(والله ذو فضل على المؤمنين):

قال السعدي: ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيرا ولا مصيبة، إلا كان خيرا لهم. إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين. تفسير السعدي (ص: ١٥٢).

(إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد):

قال الطبري: الهرب في مستوى الأرض وبطون الأودية والشعاب: إصعاد، لا صعود. قالوا: وإنما يكون الصعود على الجبال والسلاليم والدرج، لأن معنى الصعود: الارتقاء والارتفاع على الشيء علوا. قالوا: فأما الأخذ في مستوى الأرض والهبوط، فإنما هو إصعاد. تفسير الطبري (٧/ ٣٠٠).

وقال السعدي: {إذ تصعدون} أي: تجدّون في الهرب، {ولا تلوون على أحد} أي: لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن القتال، والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء، ويباشر الهيجاء، بل {الرسول يدعوكم في أخراكم} أي: مما يلي القوم يقول: (إليّ عباد الله) فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس، أعظم لوما بتخلفكم عنها. تفسير السعدي (ص: ١٥٢).

(فأثابكم غما بغم):

قال زكريا الأنصاري: (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله...) الآية. إن قلت: كيف قال ذلك، مع أن المثوبة مختصة بالإحسان؟ قلت: لا نسلم اختصاصها بذلك لغة، بل هي الجزاء مطلقا، بدليل قوله تعالى (فأثابكم غما بغم)، وقوله (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون)، أي: هل جوزوا. غايته أن الثواب قد يكون خيرا، وقد يكون شرا يقصد به التهكم والاستهزاء كلفظ البشارة، لا اختصاص له لغة بالخير، بل هو شامل للشر، قال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١٤٤-١٤٥).

عن قتادة في قوله: (غما بغم)، قال: الغم الأول: الجراح والقتل، والغم الثاني حين سمعوا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قد قتل. فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل، وما كانوا يرجون من الغنيمة، وذلك حين يقول: (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم). تفسير الطبري (٧/ ٣٠٦).

وقال ابن القيم: فأثابهم بهذا الهرب والفرار غما بعد غم: غم الهزيمة والكسرة، وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمدا قد قتل.

وقيل: جازاكم غما بما غممتم رسوله بفراركم عنه وأسلمتموه إلى عدوه، فالغم الذي حصل لكم جزاء على الغم الذي أوقعتموه بنبيه، والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: {لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم}، تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنسوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمة، ثم أعقبه غم الهزيمة، ثم غم الجراح التي أصابتهم، ثم غم القتل، ثم غم سماعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمين اثنين خاصة، بل غما متتابعا لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: (بغم) من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غما متصلا بغم جزاء على ما وقع منهم من الهروب، وإسلامهم نبيهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وترك استجابتهم له، وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر وفشلهم، وكل واحد من هذه الأمور يوجب غما يخصه، فترادفت عليهم الغموم، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها، ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمرا آخر. زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٠٣-٢٠٤).

(لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم):

قال السعدي: {لكيلا تحزنوا على ما فاتكم} من النصر والظفر، {ولا ما أصابكم} من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُقتل هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم

بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: {والله خبير بما تعملون}.
ويحتمل أن معنى قوله: {لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم} يعني: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم، وتمرنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات. تفسير السعدي (ص: ١٥٢-١٥٣).

(ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم):
قال البغوي: الأمن والأمنة بمعنى واحد، وقيل: الأمن يكون مع زوال سبب الخوف، والأمنة مع بقاء سبب الخوف، وكان سبب الخوف هاهنا قائما... (يغشى طائفة منكم) يعني: المؤمنين، (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم)، يعني: المنافقين: قيل: أراد تمييز المنافقين من المؤمنين، فأوقع النعاس على المؤمنين حتى أمنوا، ولم يوقع على المنافقين، فبقوا في الخوف قد أهمتهم أنفسهم. تفسير البغوي (١/ ٥٢٤-٥٢٥).

وقال ابن كثير: وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئمو السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال، في قصة بدر: {إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام}. وقال عبد الله بن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان. تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٤).

وعن السدي: أن المشركين انصرفوا يوم أحد بعد الذي كان من أمرهم وأمر المسلمين، فواعدوا النبي صلى الله عليه وسلم بدرا من قابل، فقال نعم! نعم! فتخوف المسلمون أن ينزلوا المدينة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فقال: (انظر، فإن رأيتهم قعدوا على أثقالهم وجنبوا خيولهم، فإن القوم ذاهبون، وإن رأيتهم قد قعدوا على خيولهم وجنبوا أثقالهم، فإن القوم ينزلون المدينة، فاتقوا الله واصبروا)، ووطنهم على القتال. فلما أبصرهم الرسول قعدوا على الأثقال سراعا عجالا نادى بأعلى صوته بذهابهم، فلما رأى المؤمنون ذلك صدقوا نبي الله صلى الله عليه وسلم فناموا، وبقي أناس من المنافقين يظنون أن القوم

يأتونهم، فقال الله جل وعز يذكر حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم إن كانوا ركبوا الأثقال فإنهم منطلقون فناموا: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية). تفسير الطبري (٧/ ٣١٦).

وقال ابن عاشور: وقد استجدوا بذلك نشاطهم، ونسوا حزنهم، لأن الحزن تبتدئ خفته بعد أول نومة تعفيه، كما هو مشاهد في أحزان الموت وغيرها. التحرير والتنوير (٤/ ١٣٣).

(يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية):

قال ابن القيم: أكثر الخلق بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها كامنا كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شَراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتبا على القدر وملامة له واقتراحا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك.

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة *** وإلا فإني لا إخالك ناجيا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله تعالى، وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تظنن بربك ظن سوء *** فإن الله أولى بالجميل

ولا تظنن بنفسك قط خيرا *** وكيف بظالم جان جهول

وقل يا نفس مأوى كل سوء *** أيرجى الخير من ميت بخيل

وظن بنفسك السوأى تجدها *** كذاك وخيرها كالمستحيل

وما بك من تقى فيها وخير *** فتلك مواهب الرب الجليل

وليس بها ولا منها ولكن *** من الرحمن فاشكر للدليل.

إلى أن قال: قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل هاهنا: هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبعا لهم يسمعون منهم لما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم، فأكذبهم الله عز وجل في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: (قل إن الأمر كله لله)، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرى به علمه وكتابه السابق، وما شاء الله كان، ولا بد، شاء الناس أم أبوا، وما لم يشأ لم يكن، شاءه الناس أم لم يشاءوه، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلى دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء أو لم يكن لكم، وأنكم لو كنتم في بيوتكم وقد كَتب القتل على بعضكم لخرج الذين كُتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بد، سواء كان لهم من الأمر شيء أو لم يكن. زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢١٠-٢١٢).

(قل إن الأمر كله لله):

قال ابن القيم: الأمر كله لله، ليس لأحد سواه منه شيء، كما قال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحسنهم إليه: {ليس لك من الأمر شيء}، وقال جوابا لمن قال (هل لنا من الأمر من شيء): {قل إن الأمر كله لله}، فالملك كله له، والأمر كله له، والحمد كله له، والشفاعة كلها له، والخير كله في يديه، وهذا تحقيق تفرده بالربوبية والألوهية، فلا إله غيره ولا رب سواه... فاستعذ به منه، وفر منه إليه، واجعل لجأك منه إليه، فالأمر كله له، لا يملك أحد معه منه شيئا، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا يضر سم ولا سحر ولا شيطان ولا حيوان ولا غيره إلا بإذنه ومشيئته، يصيب بذلك من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، فأعرف الخلق به وأقواهم بتوحيده من قال في دعائه (وأعوذ بك منك)، فليس للخلق معاذ سواه، ولا مستعاذ منه إلا وهو ربه وخالقه ومليكه وتحت قهره وسلطانه. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٧٣).

(يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا):

قال السعدي: {يقولون لو كان لنا من الأمر شيء} أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة، {ما قتلنا هاهنا} وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: {قل لو كنتم في بيوتكم} التي هي أبعد شيء عن مظان القتل {لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم} فالأسباب -وإن عظمت- إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئا، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة. تفسير السعدي (ص: ١٥٣).

(وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم):

قال ابن تيمية: النفوس فيها شر، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه. قال تعالى {وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين}، وقال تعالى {وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم}... ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم، وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال {ما من غازية يغزون في سبيل الله، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم. وإن أصيبوا وأخفقوا: تم لهم أجرهم}. مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٥٥).

وقال ابن القيم: الصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر، ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود، ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: {وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم}، فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه في القلب، فهو موسوس في الصدر، ووسوسته واصلة إلى القلب. بدائع الفوائد (٢/ ٢٦٢).

(إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا):

قال ابن تيمية: وإذا كان في المسلمين ضعف وكان عدوهم مستظهرا عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم؛ إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنا وظاهرا، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطنا وظاهرا. قال الله تعالى: {إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا}، وقال تعالى: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم}، وقال تعالى: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}. مجموع الفتاوى (١١/ ٦٤٥).

وقال أيضا: ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه: أن المعاصي سبب المصائب؛ فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة، فإحسان العمل سبب لإحسان الله، قال تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}، وقال تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}... وقال: {أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير}، وقال: {وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور}، وقال تعالى: {وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} . مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٣٨).

وقال ابن كثير: (إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) أي: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها. تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٦).

وقال البقاعي: من كان أصبر في أعمال الطاعة كان أجلد على قتال الكفار، ولم يكن توليهم عن ضعف في نفس الأمر. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ١٠٢).

(يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا):

قال السعدي: ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم. ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء. تفسير السعدي (ص: ١٥٣).

(لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا):

قال ابن تيمية: و (لو) تستعمل على وجهين:

أحدهما: على وجه الحزن على الماضي والجزع من المقدور، فهذا هو الذي نهى عنه، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم}. وهذا هو الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان» أي: تفتح عليك الحزن والجزع، وذلك يضر ولا ينفع...

والوجه الثاني: أن يقال (لو) لبيان علم نافع، كقوله: {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا}. ولبيان محبة الخير وإرادته، كقوله: (لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثل ما يعمل)، ونحوه جائز. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «وددت لو أن موسى صبر ليقص الله علينا من خبرهما» هو من هذا الباب... ولم يكن في ذلك جزع ولا حزن ولا ترك لما يجب من الصبر على المقدور. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٧٢).

(والله يحيي ويميت):

قال ابن تيمية: مضمون الأمر: أن المنايا محتومة، فكم من حضر الصفوف فسلم، وكم ممن فر من المنية فصادفته، كما قال خالد بن الوليد لما احتُضر: لقد حضرت كذا وكذا صفا، وإن ببدني بضعا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء. مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٥٥).

(ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون):

قال السعدي: أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم. تفسير السعدي (ص: ١٥٤).

(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك):

عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة؟ قال: (أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا). صحيح البخاري (٣/ ٦٦).

وقال ابن عقيل في قوله تعالى: {ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك} ذلك مع المعجز صلى الله عليه وسلم، شهد الحق له لولا تخلقه للخلق الجميل لانفضوا عنك، ولم يقنع بالمعجز في تحصيلهم، لا تقنع أنت بالعلوم وتظن أنها كافية في حوش الناس إلى الدين، بل حسّن ذلك وجلّه بالأخلاق الجميلة. الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ١٠٩).

قال السعدي: الأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالا لأمر الله، وجذبا لعباد الله لدين الله. تفسير السعدي (ص: ١٥٤).

(فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر):

قال ابن القيم: تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق، فإنهم إما يسيئوا في حق الله وفي حق رسوله، فإن أساءوا في حقك فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم، واستجلب قلوبهم، واستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم، فإن ذلك أحرى في استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة،

فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك بل توكل وامض لما عزمت عليه من أمرك فإن الله يحب المتوكلين. الرسالة التبوكية (ص: ٧٦).

باب قول الله تعالى: {وأمرهم شورى بينهم}، {وشاورهم في الأمر}، «وأن المشاورة قبل العزم والتبين لقوله»: {فإذا عزمت فتوكل على الله}، «فإذا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله». صحيح البخاري (٩/ ١١٢).

وقال البغوي: واختلفوا في المعنى الذي لأجله أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالمشاورة مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحي عليه، ووجوب طاعته على الخلق فيما أحبوا أو كرهوا، فقال بعضهم: هو خاص في المعنى، أي: وشاورهم فيما ليس عندك فيه من الله تعالى عهد. وقال الكلبي: يعني ناظرهم في لقاء العدو ومكايد الحرب عند الغزو، وقال مقاتل وقتادة: أمر الله تعالى بمشاورتهم تطييبا لقلوبهم، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم، فإن سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا في الأمر شق ذلك عليهم، وقال الحسن: قد علم الله عز وجل أنه ما به إلى مشاورتهم حاجة ولكنه أراد أن يستن به من بعده. تفسير البغوي (١/ ٥٢٦).

قال ابن القيم: كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ما ندم من استخار الخالق، وشاور المخلوقين، وثبت في أمره. وقد قال سبحانه وتعالى: {وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله} وقال قتادة: ما تشاور قوم يبتغون وجه الله إلا هدوا إلى أرشد أمرهم. الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ١١٢).

قال ابن تيمية: لا غنى لولي الأمر عن المشاورة؛ فإن الله تعالى أمر بها نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى {فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر}، وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال (لم يكن أحد أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم). وقد قيل: إن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه، وليقتدي به من بعده، وليستخرج بها منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي: من أمر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك. فغيره صلى الله عليه وسلم أولى بالمشورة.

وقد أثنى الله على المؤمنين بذلك في قوله: {وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون} . وإذا استشارهم فإن بين له بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماع المسلمين فعليه اتباع ذلك، ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك، وإن كان عظيما في الدين والدنيا، قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} . وإن كان أمرا قد تنازع فيه المسلمون فينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ووجه رأيه فأي الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله عمل به كما قال تعالى: {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا} . مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٨٧).

وقال ابن القيم: أثنى الله سبحانه على المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم، وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (وشاورهم في الأمر)، وقد كانت المسألة تنزل بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيستشير لها من حضر من الصحابة، وربما جمعهم وشاورهم، حتى كان يشاور ابن عباس رضي الله عنهما وهو إذ ذاك أحدث القوم سنا، وكان يشاور عليا كرم الله وجهه وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، ولا سيما إذا قصد بذلك تمرين أصحابه وتعليمهم، وشحذ أذهانهم. إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٩٧).

قال ابن كثير: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييبا لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم.

كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم أيضا أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم إلى أمام القوم.

وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم.

وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك.

وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجيء لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال. تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٩).

وقال السعدي: في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره:

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحا لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس -إذا جمع أهل الرأي والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث- اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو أكمل الناس عقلا وأغزرهم علما، وأفضلهم رأيا-: {وشاورهم في الأمر} فكيف بغيره؟! تفسير السعدي (ص: ١٥٤).

(وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده):

قال ابن القيم: والخذلان أن يخلي الله تعالى بين العبد وبين نفسه، ويكله إليها، والتوفيق ضده ألا يدعه ونفسه، ولا يكله إليها، بل يصنع له، ويلطف به، ويعينه، ويدفع عنه، ويكلأه كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه، فمن خلى بينه وبين نفسه هلك كل الهلاك... فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس، فإن تولاه الله لم يظفر به عدوه، وإن خذله وأعرض عنه افترسه الشيطان كما يفترس الذئب الشاة. شفاء العليل (ص: ١٠٠).

وقال السعدي: {وإن يخذلكم} ويكلكم إلى أنفسكم {فمن ذا الذي ينصركم من بعده} فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق. وفي ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة. تفسير السعدي (ص: ١٥٤).

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون):

قال البغوي: قيل: التوكل ألا تعصي الله من أجل رزقك، وقيل: ألا تطلب لنفسك ناصرا غير الله، ولا لرزقك خازنا غيره، ولا لعملك شاهدا غيره. تفسير البغوي (١/ ٥٢٧).

عن عمران بن حصين، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون». صحيح البخاري (٧/ ١٣٤)، صحيح مسلم (١/ ١٩٨).

قال ابن القيم: التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة. فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها. ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم. فأهل السماوات والأرض - المكلفون وغيرهم - في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم.

فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغا عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه. من رزق أو عافية. أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش. فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبا إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات. ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله أن يسلمهم، ويظفرهم بمطالبهم.

فأفضل التوكل، التوكل في الواجب - أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس - وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم. ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف.

ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطا مبغوضا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه. إن لم يستعن به على طاعاته. والله أعلم. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ١١٣-١١٤).

وقال أيضا: من لا توكل له لا إيمان له، قال الله تعالى: {وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين}، وقال تعالى: {وعلى الله فليتوكل المؤمنون}، وقال تعالى: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون}، وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ١٢٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١٥٢-١٦٠

١- وعد الله سبحانه لنا بالنصر مشروط بأن ننصر الله في أنفسنا ومجتمعاتنا، ولا يتخلّف هذا الوعد إلا بتنازعنا وعصياننا وفشلنا، فلنعظّم الله في أنفسنا، ولنجعل الآخرة أكبر همّنا، ولنحذر من الإصرار على المعاصي، أو المجاهرة بالفسق والفجور، حتى تعود لنا عزتنا وكرامتنا بين الأمم، فمعصية واحدة في غزوة أحد كانت لأجل إدراك شيء من متاع الدنيا قلبت النصر إلى هزيمة، وألقت الرعب في قلوب المؤمنين، وزلزلت أقدامهم، فاحذر الدنيا وزخرفَها فإنها طالما أوقعت في المهالك (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم)، (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده).

٢- احذر أن يكون قصدك بالعمل الصالح إرادة الدنيا وزينتها فتبوء بالخسارة في الدنيا والآخرة، ويصير عملك وبالا عليك، ولا تأمن على نفسك من ذلك، فإن القلب ضعيف (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة).

٣- ما أعظم فضل الله علينا، وما أجمل حلمه علينا، وما أكبر عفوه عنا، يعاملنا بفضله وعفوه، ولو آخذنا بذنوبنا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكنه يعفو ويغفر، ويتجاوز ويتفضّل، فلنستحيِ من الله، ولنبتعد عن الفسوق والعصيان، ولنطلبه دوما أن يعاملنا بعفوه وفضله (ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين)، وتأمل هنا كيف أخبر الله أنه عفا عن الصحابة بعد ما وقع منهم فورا، وشهد لهم بالإيمان؛ ليُعلي مكانتهم، ويرفع شأنهم، ويغيظ أعداءهم.

٤- السكينة والطمأنينة والأمان والراحة إنما تكون لك في هذه الدنيا بقدر طاعتك لله، والخوف والفزع والقلق والاضطراب إنما يكون بقدر المعاصي، فاختر لنفسك أيّ الطريقين شئت، وتأمّل حال الصحابة في غزوة أحد بعد المعصية (إذ تُصعِدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون) ثم لمّا عفا عنهم كان حالهم (ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم).

٥- المنافقون قلقون دائما، يحسبون كل صيحة عليهم، يحذرون أن تنزّل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، لا يهمّهم إلا نجاة أنفسهم، يعيشون للدنيا ويعملون لها، ويحبونها حبا جما، ويعترضون على أقدار الله بأهوائهم، فاحذر أن تتّصف بشيء من صفاتهم (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك).

٦- أحسن ظنّك بالله فيما يختصّ بك وبمستقبل الإسلام، مستحضرا أنه سبحانه الرحمن الرحيم، الملك المهيمن العزيز، الجبار المتكبر، الحكيم العليم، القوي القدير، العظيم الكريم، الوهاب اللطيف، وأتبع هذا الظن الحسن بالعمل الصالح، فإن الله عند ظن عبده به، وإياك وظن السوء بالله، ولو تتابعت عليك وعلى المسلمين الابتلاءات، واحذر من ظن أن الله لا ينصر دينه، أو أن الإسلام سينتهي، أو أن الكفر سينتصر للأبد، فإن الله متم نوره ومظهره على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية).

٧- قدر الله نافذ فيك مهما عملت من أسباب الخير والحياة والغنى، ومهما تجنّبت من أسباب الشر والموت والفقر، فاعمل بالأسباب غير معتمد عليها، بل كن متوكلا على الله، فإن حصل ما تحب فاحمد الله، وإن حصل غير ذلك فاصبر وارضَ بقضاء الله، وإياك ومشابهة الكفار والمنافقين في اعتراضهم على القدر وظنهم أنهم لو فعلوا أو تركوا سببا ما لنجوا وسلموا (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)، (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير).

٨- قد يبتليك الله بالمصائب والأحزان ليمتحن صدق إيمانك، وليكفّر بها سيئاتك، وليرفع بها درجاتك، فكن ثابتا عند البلاء، وأبشر بعاقبته الجميلة (وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور).

٩- إذا وجدت سبل المعصية تتيسّر لك، وسبل الطاعة تتعسّر عليك، فاعلم أنك إنما أُتيت من قبل نفسك، وأنها عقوبة على سيئات سابقة اقترفتها، وأنك أنت من فتحت باب قلبك للشيطان، واعلم أن الذنوب التي تقترفها في حال الرخاء والسراء تؤدي إلى الزلل في حال الشدة والضراء، فاحذر، ولا تأمن مكر الله

بك واستدراجه لك، واستيقظ من رقدتك، وأكثر من طلب العفو والمغفرة (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم).

١٠- الموت حقيقة لا بد منها لكل أحد، عاجلا أو آجلا، وليست المصيبة أن تموت، بل المصيبة أن تموت وأنت مصر على المعاصي، وأن تموت وأنت معرض عن الله، وأن تموت وأنت لاهث خلف حطام الدنيا، والنعمة كل النعمة أن تموت وأنت مقبل على طاعة الله، معرض عن زينة الدنيا، تائب من ذنوبك، مستقيم على طاعة الله، حينها يكون ما بعد موتك خير من حياتك، فأعدّ العدة لساعة رحيلك (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون * ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون).

١١- إذا منّ الله عليك بسلوك طريق الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيجب أن تكون من أفضل الناس أخلاقا، وألينهم جانبا، وأبعدهم عن الفظاظة والغلظة، وتعاهد نفسك في ذلك؛ لمصلحة الدين الذي تدعو إليه، والرسالة التي تحملها، ودع عنك حظوظ النفس وشهواتها لأجل نشر دين الله، فإن حسن الخلق يجذب قلوب كثير من الناس إلى الحق أكثر من مجرد بيان الحق، وإياك إياك أن يسبقك دعاة الباطل إلى قلوب الناس بحسن أخلاقهم، وتأمل: إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو أفصح الناس، والمؤيد بالمعجزات القاهرة والآيات الظاهرة، قد قال الله له (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) فكيف بحالي وحالك؟

١٢- احرص على مشاورة أهل العقل والرأي والخبرة في أمورك، مع استخارة ربك، لتكون أكثر راحة واطمئنانا فيما أنت مقدم عليه، واعلم أنه ما ندم من استخار الخالق، وشاور المخلوقين، وثبت في أمره (وشاورهم في الأمر).

١٣- احرص على تحقيق التوكل على الله في كل شيء من أمور دينك ودنياك، وخاصة عند طلب النصر على الأعداء، لتنال محبة الله، وتحقق أعلى درجات الإيمان، واختبر قلبك في التوكل عند وفرة الأسباب وقوتها وقدرتك عليها، فلا يتوكل على الله حينها إلا المؤمنون الذين علّقوا قلوبهم بالله مدبر الأمور، وأما عند ضعف الأسباب وقلتها والعجز عن تحصيلها فيتوكل كل أحد حتى المشركون (فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)، (وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١٦١-١٦٨) من التفسير الميسّر

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)

وما كان لنبيٍّ أن يَخُونَ أصحابه بأن يأخذ شيئًا من الغنيمة غير ما اختصه الله به، ومن يفعل ذلك منكم يأت بما أخذه حاملا له يوم القيامة؛ ليُفضَح به في الموقف المشهود، ثم تُعطى كل نفس جزاءَ ما كسبت وافيًا غير منقوص دون ظلم.

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)

لا يستوي من كان قصده رضوان الله ومن هو مُكِبٌّ على المعاصي، مسخط لربه، فاستحق بذلك سكن جهنم، وبئس المصير.

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)

أصحاب الجنة المتبعون لما يرضي الله متفاوتون في الدرجات، وأصحاب النار المتبعون لما يسخط الله متفاوتون في الدركات، لا يستوون. والله بصير بأعمالهم لا يخفى عليه منها شيء.

لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

لقد أنعم الله على المؤمنين من العرب؛ إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، يتلو عليهم آيات القرآن، ويطهرهم من الشرك والأخلاق الفاسدة، ويعلمهم القرآن والسنة، وإن كانوا من قبل هذا الرسول لفي غيٍّ وجهل ظاهر.

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)

أو لما أصابتكم -أيها المؤمنون- مصيبة، وهي ما أُصيب منكم يوم «أُحد» قد أصبتم مثليها من المشركين في يوم «بدْر» ، قلتم متعجبين: كيف يكون هذا ونحن مسلمون ورسول الله صلى الله عليه وسلم فينا وهؤلاء مشركون؟ قل لهم -أيها النبي-: هذا الذي أصابكم هو من عند أنفسكم بسبب مخالفتكم أمْرَ رسولكم وإقبالكم على جمع الغنائم. إن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقِّب لحكمه.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦)

وما وقع بكم مِن جراح أو قتل في غزوة «أُحد» يوم التقى جَمْعُ المؤمنين وجمع المشركين فكان النصر للمؤمنين أولا ثم للمشركين ثانيًا، فذلك كله بقضاء الله وقدره، وليظهر ما علمه الله في الأزل؛ ليميز المؤمنين الصادقين منكم.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)

وليعلم المنافقين الذين كشف الله ما في قلوبهم حين قال المؤمنون لهم: تعالوا قاتلوا معنا في سبيل الله، أو كونوا عونًا لنا بتكثيركم سوادنا، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون أحدًا لكنا معكم عليهم، هم للكفر في هذا اليوم أقرب منهم للإيمان؛ لأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. والله أعلم بما يُخفون في صدورهم.

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)

هؤلاء المنافقون هم الذين قعدوا وقالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مع المسلمين في حربهم المشركين يوم «أُحد» : لو أطاعَنا هؤلاء ما قتلوا. قل لهم -أيها الرسول-: فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين في دعواكم أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، وأنكم قد نجوتم منه بقعودكم عن القتال.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١٦١-١٦٨)

المعنى	الكلمة
يخون بالأخذ من الغنيمة قبل قسمتها	يَغُلّ
رجع بِغضب	بَاءَ بِسَخَط
أنعَمَ وتفضّل عليهم	منّ الله على المؤمنين
من جنسهم	من أنفُسِهم
ويُطهّرهم من الشرك والأخلاق السيئة	ويُزكّيهم
والسنّة	والحِكمة
من أين كانت هذه الهزيمة؟	أنّى هذا؟
بسبب معصيتكم	من عند أنفُسِكم
أو رابطوا ودافعوا عن محارمكم، أو ادفعوا عنا عدونا بتكثير سوادنا	أو ادفعوا
فادفعُوا	فادْرؤُوا

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١٦١-١٦٨

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الحادية والستين بعد المائة وحتى الآية الثامنة والستين بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (وما كان لنبيٍ أن يغلّ) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي قد انتهت في قوله (وما كان لنبيٍ أن يغل)، ثم جاءت بعدها جملةٌ شرطيةٌ، والشرط يصح الابتداء به عادةً، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت بفعلها وجوابها، الشرط في قوله (مَن)، وفعل الشرط (يغلل)، وجواب الشرط (يأت بما غل يوم القيامة)، ثم جاءت بعد الجملة الشرطية (ثم) التي هي لترتيب الأخبار، وليست لعطف الأفعال، فصح الوقف قبلها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثم توفى كل نفسٍ ما كسبت)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (وهم لا يظلمون) جملةٌ حاليةٌ، يعني: والحال أنهم لا يظلمون، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (أفمن اتّبع رضوان الله كمن باء بسخطٍ من الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ومأواه جهنم) معطوفٌ على قوله (باء بسخطٍ من الله)، وهو من تتمة بيان حال من باء بسخطٍ من الله في مقابل بيان حال من اتبع رضوان الله، فتقدير الجملة: هل من اتبع رضوان الله يكون كمن باء بسخطٍ من الله ومأواه جهنم؟ هنا انتهى الاستفهام، فلم يصح الوقف على قوله (بسخطٍ من الله)، وإنما الوقف على قوله (ومأواه جهنم)، لانتهاء جملة الاستفهام من ناحيةٍ، ولأن بعده جملة مستأنفة مبدوءةٌ بـ (بئس) التي لها الصدارة في جملتها، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (هم درجاتٌ عند الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة في قوله (والله بصيرٌ بما تعملون) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم) لم ينص أحدٌ من علماء الوقف والابتداء على الوقف في شيءٍ من هذه الجمل، ووجه ذلك أن قوله (إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم) مرتبطٌ بقوله (منّ الله على المؤمنين) فكانت منته ببعث هذا الرسول، ثم وصف هذا الرسول بأنه من أنفسهم، وبأنه يتلو عليهم آياته، وبأنه يزكيهم، وبأنه يعلمهم الكتاب والحكمة، فلم يصح الفصل بين شيءٍ من أوصاف هذا الرسول.

وفي نهاية أوصاف هذا الرسول قال (ويعلمهم الكتاب والحكمة) فهل يصح الوقف هنا؟

جوز الوقف هنا السجاوندي، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ووجهه عند السجاوندي أن جملة (وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبينٍ) تقديرها: وقد كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبينٍ، وتحتمل أن تكون (إنْ) بمعنى النفي، واللام بمعنى إلا، يعني: وما كانوا من قبل إلا في ضلالٍ مبينٍ، فيصح الوقف أيضًا، لكن عامة علماء الوقف والابتداء نظروا إلى أنها جملةٌ حاليةٌ، يعني تقديرها: والحال أنهم كانوا من قبل بعثة الرسول لفي ضلالٍ مبينٍ، فلم يصححوا الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص عليه السجاوندي والأشموني، ووجه ذلك أن استفهام الإنكار في قوله: (أولمّا) داخلٌ على قوله: (قلتم أنى هذا) والتقدير: أقلتم أنى هذا لما أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مثليها، فهذا تقدير الجملة، هذا من ناحيةٍ معنويةٍ، ومن ناحيةٍ لفظيةٍ (لمّا) هنا شرطٌ غير جازم يحتاج إلى جوابٍ، وجوابها في قوله: (قلتم أنى هذا)، لأن فعلها في قوله (أصابتكم مصيبةٌ)، ما الذي حصل؟ (قلتم أنى هذا) فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قلتم أنى هذا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الاستفهام الإنكاري قد انتهت هنا بما تضمنته من الشرط غير الجازم الذي ذكرته قبل قليل، ثم جاء الرد على هذا القول، وهو قولهم (أنى هذا) في قوله (قل هو من عند أنفسكم)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قل هو من عند أنفسكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجواب على قولهم قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص عليه الأنصاري والأشموني، والسبب في ذلك أن قوله (وليعلم المؤمنين) معطوفٌ على خبر المبتدأ، وهو من تمام الخبر، أين المبتدأ؟ في قوله (ما) التي بمعنى (الذي)، والخبر في قوله (فبإذن الله)، وعطف على الخبر (وليعلم المؤمنين)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وليعلم الذين نافقوا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوزه السجاوندي، ووضعت عليه علامة الوقف الجائز في مصحف المدينة، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله) جملةٌ تحتمل أن تكون معطوفةً على (نافقوا)، وتحتمل أن تكون جملةً مستأنفةً. نرجع إلى الآية التي قبلها: أخبر الله سبحانه وتعالى أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان فإنما كان بإذن الله، وإنما كان ليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا، هنا انتهى من ذكر حكمة ما حصل، ثم بدأ بذكر ما كان من المنافقين يومئذ، وهذا يرجح أن قوله (وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله) جملةٌ مستأنفةٌ، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ما قيل لهم قد انتهى هنا، ثم بدأ بذكر قولهم وجوابهم على ما قيل لهم، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قولهم قد انتهى هنا، ثم بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر الحكم عليهم في قوله (هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) جملةٌ مستأنفةٌ في بيان صفةٍ أخرى لهم بعد أن ذكر الله حالهم من الإيمان، فالله سبحانه وتعالى ذكر حالهم لما طُلب منهم القتال أولاً، فكان ردهم (لو نعلم قتالاً لاتبعناكم)، ثم ذكر حال قولهم هذا فقال

(يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم)، وذكر بين هاتين الجملتين جملةً معترضةً في الحكم عليهم في قوله (هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان)، فصح الوقف في الجملة المعترضة قبلها وفي نهايتها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن وصفهم في قولهم قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله أعلم بما يكتمون) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على المنع منه الأنصاري والأشموني، ووجه ذلك أن قوله (لو أطاعونا) هو مقولهم، فالعامل فيه (قالوا)، والتقدير: قالوا لإخوانهم لو أطاعونا ما قتلوا وقعدوا عن القتال، ولا يصح الفصل بين (قالوا) والمقول الذي صدر منهم.

وهل يصح الوقف على قوله (لو أطاعونا ما قتلوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قولهم لإخوانهم قد انتهى هنا، ثم جاء الرد في قوله (قل فادرءوا عن أنفسكم الموت)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (إن كنتم صادقين) جملةٌ شرطيةٌ جوابها محذوفٌ دل عليه ما قبله، والتقدير: إن كنتم صادقين فادرؤوا عن أنفسكم الموت، فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١٦١-١٦٨

(وما كان لنبي أن يغلّ):

عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية {وما كان لنبي أن يغل} في قطيفة حمراء، فقدت يوم بدر فقال بعض الناس: لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها، فأنزل الله عز وجل {وما كان لنبي أن يغل} إلى آخر الآية. سنن أبي داود (٤/ ٣١)، سنن الترمذي (٥/ ٨٠).

عن ابن عباس قوله: (وما كان لنبي أن يغل)، يقول: ما كان للنبي أن يقسم لطائفة من المسلمين ويترك طائفة، ويجور في القَسم، ولكن يقسم بالعدل، ويأخذ فيه بأمر الله، ويحكم فيه بما أنزل الله. يقول: ما كان الله ليجعل نبيا يغُل من أصحابه، فإذا فعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم استنوا به. تفسير الطبري (٧/ ٣٥١).

وقال البغوي: قرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم (يَغُل) بفتح الياء وضم الغين، معناه: أن يَخُون، والمراد منه الأمّة، وقيل: اللام فيه منقولة، معناه: ما كان النبي ليَغُل، وقيل: معناه ما كان يُظن به ذلك ولا يليق به.
وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الغين -يعني: (يُغَل)- وله وجهان، أحدهما: أن يكون من الغلول أيضا، أي: ما كان لنبي أن يُخان، يعني: أن تخونَه أمتُه، والوجه الآخر: أن يكون من الإغلال، معناه: ما كان لنبي أن يخون، أو ينسب إلى الخيانة. تفسير البغوي (١/ ٥٢٩).

وقال السعدي: الغلول هو: الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان، وهو محرم إجماعا، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغلول -كما علمت- من أعظم الذنوب وأشر العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضلَ العالمين أخلاقا، وأطهرهم نفوسا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكمته {الله أعلم حيث يجعل رسالته}. فبمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم، مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: {وما كان لنبي أن يغل} أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته. تفسير السعدي (ص: ١٥٥).

(ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة):

عن أبي هريرة، قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فذكر الغلول، فعظمه وعظم أمره، ثم قال: (لا أُلْفِيَنّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك). صحيح البخاري (٤/ ٧٤)، صحيح مسلم (٣/ ١٤٦١).

عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تقبل صلاة بغير طُهور، ولا صدقة من غلول). صحيح مسلم (١/ ٢٠٤).

عن أبي حميد الساعدي، أنه أخبره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل عاملا، فجاءه العامل حين فرغ من عمله، فقال: يا رسول الله، هذا لكم وهذا أهدي لي. فقال له: «أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك، فنظرت أيهدى لك أم لا؟» ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية بعد الصلاة، فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد، فما بال العامل نستعمله، فيأتينا فيقول: هذا من عملكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر: هل يهدى له أم لا، فوالذي نفس محمد بيده، لا يغل أحدكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيرا جاء به له رغاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تيعر، فقد بلغت). صحيح البخاري (٨/ ١٣٠).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من استعملناه منكم على عمل، فكتمنا مخيطا، فما فوقه كان غلولا يأتي به يوم القيامة»، قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك، قال: «وما لك؟» قال: سمعتك تقول: كذا وكذا، قال: «وأنا أقوله الآن، من استعملناه منكم على عمل، فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهى». صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٥).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، يقول: افتتحنا خيبر، ولم نغنم ذهبا ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وادي القرى، ومعه عبد له يقال له مدعم، أهداه له أحد بني الضباب، فبينما هو يحط رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه سهم عائر، حتى أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئا له الشهادة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارا»، فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم بشراك أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شراك - أو شراكان - من نار». صحيح البخاري (٥/ ١٣٨).

عن عمر بن الخطاب، قال: لما كان يوم خيبر، أقبل نفر من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد، حتى مروا على رجل، فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة». صحيح مسلم (١/ ١٠٧).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا). صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧).

(أفمن اتّبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم):

قال ابن كثير: أي: لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، وأُجير من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به، فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير. وهذه

لها نظائر في القرآن كثيرة كقوله تعالى: {أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى}، وكقوله (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين). تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٧).

(هم درجات عند الله):

قال ابن تيمية: ولا ريب أن الكفر والفسوق والعصيان درجات، كما أن الإيمان والعمل الصالح درجات، {هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون}، وقد قال تعالى: {إنما النسيء زيادة في الكفر}، وقال تعالى: {فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون}، وقال تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، كما قال تعالى: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت}، وقال {وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا}، كما قال تعالى: {والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك} . قاعدة في المحبة (ص: ١١٥).

وقال ابن القيم: عدو الله إبليس أشد أهل النار عذابا، وهو أول من يكسى حلة من النار، لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصي الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته، ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر، كما أن الإيمان يتفاوت، فإيمان أفضل من إيمان.
فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة، بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد، بل النار دركات، كما أن الجنة درجات، ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وهو الغني الحميد. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤١٠).

وقال زكريا الأنصاري: قوله تعالى: (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) أي: ذوو درجات.
فإن قلت: الضمير في (هُم) يعود على الفريقين، وأهل النار لهم دركات لا درجات؟
قلت: الدرجات تستعمل في الفريقين، قال تعالى (ولكل درجات مما عملوا)، وإن افترقتا عند المقابلة في قولهم: المؤمنون في درجات، والكفار في دركات. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١٠٠).

(لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم):

قال البغوي: (رسولا من أنفسهم)، قيل: أراد به العرب؛ لأنه ليس حي من أحياء العرب إلا وله فيهم نسب إلا بني تغلب، دليله قوله تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم).

وقال آخرون: أراد به جميع المؤمنين، ومعنى قوله تعالى: (من أنفسهم) أي: بالإيمان والشفقة لا بالنسب، دليله قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم). تفسير البغوي (١/ ٥٣٢).

وقال ابن تيمية: قوله تعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته}. فهذا كقوله تعالى: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم}. وهذا في عمومه نزاع، فإنه إما أن يكون خطابا لجميع الناس، ويكون المراد إنا بعثنا إليكم رسولا من البشر، إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملك من الملائكة، فمن الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولا بشريا. قال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون}، وإما أن يكون الخطاب للعرب، وعلى التقديرين فإن ما تضمن ذكر إنعامه على المخاطبين بإرساله رسولا من جنسهم، وليس في هذا ما يمنع أن يكون مرسلا إلى غيرهم، فإنه إن كان خطابا للإنس كلهم، فهو أيضا مرسل إلى الجن، وليس من جنسهم، فكيف يمتنع إذا كان خطابا للعرب بما امتن به عليهم أن يكون قد امتن على غيرهم بذلك؟ فالعجم أقرب إلى العرب من الجن إلى الإنس، وقد أخبر في الكتاب العزيز أن الجن لما سمعوا القرآن آمنوا به. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (١/ ٤٤٠-٤٤١).

وقال ابن كثير: (من أنفسهم) أي: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها} أي: من جنسكم. وقال تعالى: {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي}، وقال تعالى: {وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق}، وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى}، وقال تعالى: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم}، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسل إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه. تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٨).

(يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة):

قال ابن القيم: تزكية النفوس مسلم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية، وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم، دعوة، وتعليما، وبيانا، وإرشادا، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}، وقال تعالى: {كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون}. وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد... فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٣٠٠).

وقال الألوسي: تقديم التلاوة لأنها من باب التمهيد، ثم التزكية لأنها بعده، وهي أول أمر يحصل منه صفة يتلبس بها المؤمنون، وهي من قبيل التخلية المقدمة على التحلية؛ لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح، ثم التعليم لأنه إنما يحتاج إليه بعد الإيمان. روح المعاني (٢/ ٣٢٦).

(وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين):

قال ابن القيم: قد نظر الله إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، فأطلع الله شمس الرسالة في حنادس تلك الظلم سراجا منيرا، وأنعم الله بها على أهل الأرض نعمة لا يستطيعون لها شكرا، وأشرقت الأرض بنور ربها أكمل الإشراق، وفاض ذلك حتى عم النواحي والآفاق، وانشق القمر أتم الانشقاق، وقام دين الله الحنيف على ساق، فلله الحمد الذي أنقذنا بمحمد صلى الله عليه وسلم من تلك الظلمات، وفتح لنا به باب الهدى فلا يغلق إلى يوم الميقات، وأرانا في نوره أهل الضلال وهم في ضلالهم يتخبطون، وفي سكرتهم يعمهون، وفي جهالتهم يتقلبون، وفي ريبهم يترددون، يؤمنون ويعدلون ولكن بربهم يعدلون، ويعملون ولكن ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، ويسجدون ولكن للصليب والوثن والشمس يسجدون، ويمكرون وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون.

والحمد لله الذي أغنانا بشريعته التي تدعو إلى الحكمة والموعظة الحسنة، وتتضمن الأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، فله المنة والفضل على ما أنعم به علينا، وآثرنا به على سائر الأمم، وإليه الرغبة أن يوزعنا شكر هذه النعمة، وأن يفتح لنا أبواب التوبة والمغفرة والرحمة، فأحب الوسائل إلى المحسن التوسل إليه بإحسانه، والاعتراف له بأن الأمر كلَه محضُ فضله وامتنانه، فله علينا النعمة السابغة، كما له علينا الحجة البالغة، نبوء له بنعمه علينا، ونبوء بذنوبنا وخطايانا، وجهلنا وظلمنا، وإسرافنا في أمرنا. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (١/ ٢٢٩-٢٣١).

(أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا):

عن علي قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: أن يُقدّموا فتضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم. قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فذكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا!! لا، بل نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره! قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر. تفسير الطبري (٧/ ٣٧٦).

(قل هو من عند أنفسكم):

قال ابن تيمية: وحيث ظهر الكفار فإنما ذاك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله، كما قال تعالى: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}، وقال: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم}. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٤٥٠).

وقال أيضا: الإنسان إذا أصابته المصائب بذنوبه وخطاياه كان هو الظالم لنفسه، فإذا تاب واستغفر جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب، والذنوب مثل أكل السم، فهو إذا أكل السم مرض أو مات، فهو الذي يمرض ويتألم ويتعذب ويموت، والله خالق ذلك كله، وإنما مرض بسبب أكله، وهو الذي ظلم نفسه بأكل السم، فإن شرب الترياق النافع عافاه الله، فالذنوب كأكل السم، والترياق النافع

كالتوبة النافعة، والعبد فقير إلى الله تعالى في كل حال، فهو بفضله ورحمته يلهمه التوبة، فإذا تاب تاب عليه، فإذا سأله العبد ودعاه استجاب دعاءه. مجموع الفتاوى (٨/ ٢٤٠).

وقال أيضا: القرآن يبين في غير موضع: أن الله لم يهلك أحدا ولم يعذبه إلا بذنب. فقال هنا {وما أصابك من سيئة فمن نفسك}، وقال لهم في شأن أحد {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم}، وقال تعالى {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}، وقال تعالى في سورة الشورى أيضا {وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور}، وقال تعالى {قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون}، وقال تعالى {وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين}، وقال تعالى {وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون}، وقال تعالى {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}، وقال تعالى {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون}، وقال تعالى {أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير}. مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٢٤).

وقال أيضا: كان أهل المدينة في خلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان على أفضل أمور الدنيا والآخرة؛ لتمسكهم بطاعة الرسول، ثم تغيروا بعض التغير بقتل عثمان رضي الله عنه، فخرجت الخلافة النبوية من عندهم، وصاروا رعية لغيرهم، ثم تغيروا بعض التغير فجرى عليهم عام الحرة من القتل والنهب وغير ذلك من المصائب ما لم يجر عليهم قبل ذلك، والذي فعل بهم ذلك وإن كان ظالما معتديا فليس هو أظلم ممن فعل بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما فعل، وقد قال الله تعالى: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم}، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم والسابقون الأولون مدفونين بالمدينة.

وكذلك الشام كانوا في أول الإسلام في سعادة الدنيا والدين، ثم جرت فتن وخرج الملك من أيديهم، ثم سلط عليهم المنافقون والملاحدة والنصارى بذنوبهم، واستولوا على بيت المقدس وقبر الخليل، وفتحوا البناء الذي كان عليه وجعلوه كنيسة، ثم صلح دينهم فأعزهم الله ونصرهم على عدوهم لما أطاعوا الله ورسوله واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، فطاعة الله ورسوله قطب السعادة وعليها تدور. مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٣٧).

وقال ابن القيم: الله سبحانه ضمن أن لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا، فحيث كانت لهم سبيل ما عليهم فهم الذين جعلوها، بتسببهم ترك بعض ما أقروا به أو ارتكاب بعض ما نهوا عنه، فهم جعلوا لهم السبيل عليهم بخروجهم عن طاعة الله ورسوله فيما أوجب تسلط عدوهم عليهم من هذه الثغرة التي أخلوها، كما أخلى الصحابة يوم أحد الثغرة التي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بلزومها وحفظها، فوجد العدو منها طريقا إليهم، فدخلوا منها. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٣٩٤).

وقال أيضا: ما سُلّط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء المشهور (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم)، فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب. ولقي بعضَ السلف رجل فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليّ. بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٢).

وقال أيضا: إذا علم العبد حقيقة الأمر، وعرف من أين أتي؟ ومن أي الطرق أغير على سرحه؟ ومن أي ثغرة سرق متاعه وسلب؟ استحى من نفسه -إن لم يستح من الله- أن يشكو أحدا من خلقه، أو يتظلمهم، أو يرى مصيبته وآفته من غيره، قال تعالى {ومآ أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير}، وقال: {أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم} . طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٦٥).

(وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتّبعناكم):

عن ابن إسحاق: عن جمع من العلماء: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم – يعني حين خرج إلى أحد – في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة، انخزل عنهم عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس وقال: أطاعهم فخرج وعصاني! والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟! فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلِمة يقول: يا قوم،

أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال! فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله، أعداء الله! فسيغني الله عنكم! ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم. تفسير الطبري (٧/ ٣٧٨-٣٧٩).

وقال البغوي: (أو ادفعوا)، عن أهلكم وحريمكم، وقال السدي: أي: كثروا سواد المسلمين ورابطوا إن لم تقاتلوا، يكون ذلك دفعا وقمعا للعدو. تفسير البغوي (١/ ٥٣٣).

وقال السعدي: ويستدل بهذه الآية على قاعدة (ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما)؛ لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان. تفسير السعدي (ص: ١٥٦).

(هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان):

قال ابن كثير: استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان؛ لقوله: {هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان}. تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٠).

(يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم):

قال ابن كثير: يعني: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: {لو نعلم قتالا لاتبعناكم}، فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، أنه كائن بينهم قتال لا محالة. تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١٦١-١٦٨

١- احذر كل الحذر من الغلول بأخذ شيء من المال العام بطريق غير مشروع، ولو كان شيئا يسيرا، فمن فعل ذلك أتى به يحمله يوم القيامة، فكان فضيحة له وسببا في عذابه في النار (وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة).

٢- من عدل الله سبحانه أنه لا يساوي في الجزاء الدنيوي ولا الأخروي بين المؤمن والكافر، وبين المحسن والمسيء، وبين الطائع والعاصي، بل يجازي كلا بعمله، ولا يظلم أحدا شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل، ومن كمال عدله سبحانه أنه جعل الجنة درجات والنار دركات، لتفاوت المؤمنين في إحسانهم، وتفاوت الكفار في إجرامهم (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * أفمن اتّبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير * هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون).

٣- أعظم منة لله علينا أن بعث لنا رسولا من أنفسنا، لنتعلم منه ونقتدي به، يتلو علينا آيات الله، ويزكّينا، ويعلّمنا الكتاب والسنّة، ولو شاء الله لجعلنا متخبّطين في سبل الضلال، فاحمد الله على هذه النعمة حمدا بعد حمد، واشكره عليها شكرا بعد شكر، ومن شكر هذه النعمة متابعة النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند الله، وذلك بتلاوة آيات الله آناء الليل والنهار، والعمل على تطهير النفس من الشرك والأخلاق الرذيلة، والحرص على تعلّم القرآن والسنّة وما فيهما من أحكام وقصص وعِبر وعِظات (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين).

٤- اعلم علم اليقين أنه ما نزلت بك مصيبة ولو عظُمت إلا بذنب اقترفته، ولو تتابعت عليك المصائب، وتوالت عليك البلايا، فما أنت إلا عبد ضعيف مذنب مقصّر، ومهما عملت من الطاعات فلن تبلغ بذلك شكر أقل نعمة لله عليك، فاصبر وصابر وأدم التوبة والاستغفار، واعلم أن الله إنما يبتلي أهل الإيمان ليعودوا إلى ربهم ويُقلعوا عن سيئاتهم، وفي ضمن هذه المصائب اختبار لقوّة إيمانك بالله، وصدق توكّلك عليه، وحسن ظنّك به، وتكفير لسيّئاتك، ورفعة لدرجاتك، ولا تغترّ بنعيم بعض أهل الكفر والفسق في هذه الدنيا، فما ذاك إلا استدراج لهم

ليزدادوا غفلة فيزداد عذابهم في الآخرة، وإنما عُجّلت لهم طيباتهم في الدنيا، حتى يأتوا يوم القيامة وليس لهم حسنةٌ يُجزون بها (أولمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير * وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا).

٥- لا يخذل الإسلام وأهله في كل زمان مثل المنافقين المندسّين في صفوف المسلمين، المتكلّمين بألسنتهم، فهم يتربّصون بالمسلمين الدوائر، وينتظرون اللحظة المناسبة للانقضاض عليهم واجتثاثهم، ويشكّكون المسلمين في ثوابتهم، ويحرصون على زعزعة أخلاقهم، ويخذّلونهم عن نصرة دينهم، وهم في كل زمان يتلوّنون بلون جديد تعمية على الناس وتلبيسا عليهم، فالحذر الحذر منهم (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتّبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١٦٩-١٨٠) من التفسير الميسّر

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)

ولا تظنَّنَّ -أيها النبي- أن الذين قتلوا في سبيل الله أموات لا يُحِسُّون شيئًا، بل هم أحياء حياة برزخية في جوار ربهم الذي جاهدوا من أجله، وماتوا في سبيله، يجري عليهم رزقهم في الجنة، ويُنعَّمون.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)

لقد عَمَّتهم السعادة حين مَنَّ الله عليهم، فأعطاهم مِن عظيم جوده وواسع كرمه من النعيم والرضا ما تَقَرُّ به أعينهم، وهم يفرحون بإخوانهم المجاهدين الذين فارقوهم وهم أحياء؛ ليفوزوا كما فازوا، لِعِلْمِهم أنهم سينالون من الخير الذي نالوه، إذا استشهدوا في سبيل الله مخلصين له، وأن لا خوف عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا.

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)

وإنهم في فرحة غامرة بما أُعطوا من نعم الله وجزيل عطائه، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين به، بل ينمِّيه ويزيده من فضله.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)

الذين لبُّوا نداء الله ورسوله وخرجوا في أعقاب المشركين إلى «حمراء الأسد» بعد هزيمتهم في غزوة «أُحد» مع ما كان بهم من آلام وجراح، وبذلوا غاية جهدهم، والتزموا بهدي نبيهم، للمحسنين منهم والمتقين ثواب عظيم.

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)

وهم الذين قال لهم بعض المشركين: إن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا أمرهم على الرجوع إليكم لاستئصالكم، فاحذروهم واتقوا لقاءهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، فزادهم ذلك التخويف يقينًا وتصديقًا بوعد الله لهم، ولم يَثْنِهم ذلك عن عزمهم، فساروا إلى حيث شاء الله، وقالوا: حسبنا الله أي: كافينا، ونِعْم الوكيل المفوَّض إليه تدبير عباده.

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)

فرجعوا من «حمراء الأسد» إلى «المدينة» بنعمة من الله بالثواب الجزيل وبفضل منه بالمنزلة العالية، وقد ازدادوا إيمانًا ويقينًا، وأذلوا أعداء الله، وفازوا بالسلامة من القتل والقتال، واتبعوا رضوان الله بطاعتهم له ولرسوله. والله ذو إحسان وعطاء كثير واسع عليهم وعلى غيرهم.

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

إنَّما المثبِّط لكم في ذلك هو الشيطان جاءكم يخوِّفكم أنصاره، فلا تخافوا المشركين؛ لأنّهم ضعاف لا ناصر لهم، وخافوني بالإقبال على طاعتي إن كنتم مصدِّقين بي، ومتبعين رسولي.

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)

لا يُدْخِلِ الحزنَ إلى قلبك -أيها الرسول- هؤلاء الكفارُ بمسارعتهم في الجحود والضلال، إنهم بذلك لن يضروا الله، إنما يضرون أنفسهم بحرمانها حلاوة الإيمان وعظيم الثواب، يريد الله ألا يجعل لهم ثوابًا في الآخرة؛ لأنهم انصرفوا عن دعوة الحق، ولهم عذاب شديد.

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)

إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئًا، بل ضرر فِعْلِهم يعود على أنفسهم، ولهم في الآخرة عذاب موجع.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)

ولا يظننَّ الجاحدون أننا إذا أَطَلْنا أعمارهم، ومتعناهم بمُتع الدنيا، ولم تؤاخذهم بكفرهم وذنوبهم، أنهم قد نالوا بذلك خيرًا لأنفسهم، إنما نؤخر عذابهم وآجالهم؛ ليزدادوا ظلمًا وطغيانًا، ولهم عذاب يهينهم ويذلُّهم.

مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

ما كان الله ليَدَعَكم أيها المصدقون بالله ورسوله العاملون بشرعه على ما أنتم عليه من التباس المؤمن منكم بالمنافق حتى يَمِيزَ الخبيث من الطيب، فيُعرف المنافق من المؤمن الصادق. وما كان مِن حكمة الله أن

يطلعكم -أيها المؤمنون- على الغيب الذي يعلمه من عباده، فتعرفوا المؤمن منهم من المنافق، ولكنه يميزهم بالمحن والابتلاء، غير أن الله تعالى يصطفي من رسله مَن يشاء؛ ليطلعه على بعض علم الغيب بوحي منه، فآمنوا بالله ورسوله، وإن تؤمنوا إيمانًا صادقًا وتتقوا ربكم بطاعته، فلكم أجر عظيم عند الله.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

ولا يظنن الذين يبخلون بما أنعم الله به عليهم تفضلا منه أن هذا البخل خير لهم، بل هو شرٌّ لهم؛ لأن هذا المال الذي جمعوه سيكون طوقًا من نار يوضع في أعناقهم يوم القيامة. والله سبحانه وتعالى هو مالك الملك، وهو الباقي بعد فناء جميع خلقه، وهو خبير بأعمالكم جميعها، وسيجازي كلا على قدر استحقاقه.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١٦٩-١٨٠)

الكلمة	المعنى
القَرْح	الجراح
حسبُنا الله	يكفينا الله
الوكيل	الذي يفوَّض الأمر إليه
فانقَلَبُوا	فرَجعوا
يُخوّف أولياءَه	يُخوّفكم بأوليائه
نُملِي لهم	نُمهلهم ونمتّعهم مع كفرهم
لِيَذَر	لِيَدَع
يَجْتبِي	يَصطفي ويَخْتَار
سيُطوّقون	سَيُجعل طوقا من نار في أعناقهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١٦٩-١٨٠

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية التاسعة والستين بعد المائة وحتى الآية الثمانين بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ومنع منه ابن الأنباري والنحاس، وإذا تأملنا فإن جملة (حسب)، (ولا تحسبن) قد انتهت بمفعوليها عند قوله (أمواتا)، ثم قال (بل أحياء)، و (بل) هنا ليست عاطفة، لو كانت عاطفةً لكانت (بل أحياءً)، وهي في القراءة (بل أحياءٌ)، فهي جملةٌ اسميةٌ مبتدؤها محذوفٌ تقديره (هم)، و (أحياء) خبر المبتدأ، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (بل أحياء)؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجعله الأنصاري صالحًا والأشموني جائزًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، والأنصاري نص على أن الوقف هنا صالح إن جُعل ما بعده وهو قوله (عند ربهم) ظرفًا لـ (يرزقون) فتقدير الجملة: يرزقون عند ربهم، وقال: ليس بوقفٍ إن جُعل ذلك ظرفًا لـ (أحياء)، فـ (عند ربهم) إما أن تتعلق بـ (أحياء) يعني أنهم أحياءٌ عند ربهم، أو تتعلق بالرزق، يعني أنهم يرزقون عند ربهم، فإن علقناها بـ (أحياء) فلا وقف، لأن تقدير الجملة: بل أحياءٌ عند ربهم، وإن علقناها بـ (يرزقون) فإن الوقف صحيحٌ هنا، وهذا محتملٌ، والوصل هنا أكمل، لتعليق الظرف بالحياة والرزق سويةً، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فرحين بما آتاهم الله من فضله) هل يصح الوقف هنا؟

جوز الوقف هنا الأشموني، وجعله الأنصاري صالحًا، ومنع منه السجاوندي، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وسبب منع السجاوندي قال: للعطف، يعني: أن قوله (ويستبشرون) معطوفٌ على قوله (فرحين)، وإذا تأملنا فإن جملة (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) فيها بيان حالهم وفرحهم بإخوانهم بعد أن انتهى من ذكر فرحهم لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، وجملة (ويستبشرون) أيضًا تحتمل أن تكون جملةً مستأنفةً فيصح الوقف قبلها، ولعل هذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك السجاوندي والأشموني، ووجه ذلك أن قوله (ألا خوفٌ عليهم ولا هو يحزنون) تقدير الجملة: يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم بألا خوفٌ عليهم، أو: لأنهم لا خوفٌ عليهم، فجملة (ألا خوفٌ عليهم) تحتمل أن تكون بدلاً، ولا يفصل بين البدل والمبدل منه، وتحتمل أن تكون مفعولاً لأجله لفعل (يستبشرون) فتكون من تتمة الجملة، وعلى كلا الوجهين لا وقف على قوله (من خلفهم)، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضل) هل يصح الوقف هنا؟

الوقف هنا يختلف باختلاف القراءات في قوله (وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين)، فعلى قراءة الجمهور بفتح همزة (أنّ) لا وقف هنا، لماذا؟ لأن تقدير الجملة: يستبشرون بنعمةٍ من الله وبفضلٍ وبأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، فهم يستبشرون بذلك كله، وعلى قراءة الكسائي بكسر همزة (إن) (وإن الله) يصح الوقف، لأن (إن) هنا جملةٌ مستقلةٌ مستأنفةٌ، فصح الابتداء بها، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أنهم اعتبروا جملة (الذين استجابوا لله والرسول) بدلاً من (المؤمنين)، بعد أن قال (وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين)، من هم؟ قال (الذين استجابوا لله والرسول)، أو هي صفةٌ للمؤمنين، أو هي منصوبةٌ على المدح، يعني: أمدح الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، فيصح الوقف على هذه الاحتمالات كلها، وهناك احتمالٌ آخر أن (الذين) هنا مبتدأ، وخبره مختلفٌ فيه، منهم من جعل خبره في قوله (للذين أحسنوا منهم) وعلى هذا الاحتمال لا وقف هنا، لكن الاحتمالات السابقة هي الأقرب، وبالتالي يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) هل يصح الوقف هنا؟

جوّز الوقف هنا الأشموني وحده دون غيره من علماء الوقف والابتداء. وإذا تأملنا فإن المقول الذي قيل للمؤمنين قد انتهى هنا، فقد قيل لهم (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، ثم بين الله حالهم لما قيل لهم هذا المقول، فصح الفصل بين ما قيل لهم وبين ذكر حالهم، والفاء في قوله (فزادهم) فاءٌ عاطفةٌ، لكنها من قبيل عطف الجمل الذي يصح الفصل بينه إن لم يكن العطف وثيق الصلة، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فزادهم إيمانا)؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوزه الأشموني، وجعله السجاوندي مما قيل فيه الوقف والوصل فيه أولى، وعلل السجاوندي كون الوصل أولى بأنه للعطف في قوله (وقالوا)، لأنها جملةٌ معطوفة، ولاتصال توكل اللسان بيقين القلب، أين توكل اللسان؟ في قوله (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) بلسانهم، وأين يقين القلب؟ في قوله (فزادهم إيمانا)، فالوصل بينهما أولى في بيان هذا، مع صحة الوقف، لأن جملة (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) جملةٌ معطوفةٌ قائمةٌ بنفسها، والوصل لا شك أنه أولى، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على المنع منه الأنصاري والأشموني، ووجه ذلك أن قوله (لم يمسسهم سوء) في موضع حال، تقديره: فانقلبوا سالمين لم يمسسهم سوء، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لم يمسسهم سوء)؟

نص على الوقف هنا الإمام نافع، والأشموني على استئناف ما بعده، يعني على اعتبار جملة (واتبعوا رضوان الله) جملةً مستأنفةً، ومنع منه السجاوندي للعطف، يعني أنه اعتبر جملة (واتبعوا رضوان الله) جملةً معطوفةً. وإذا تأملنا فإن الله سبحانه وتعالى قد انتهى من وصف حالهم بعد الرجوع من الغزوة في قوله (لم يمسسهم سوء)، ثم ذكر ما كان منهم من اتباع رضوان الله في الاستجابة لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم في الخروج للمشركين إلى حمراء الأسد، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (واتبعوا رضوان الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (والله ذو فضلٍ عظيم) جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف قبلها، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الخبرية قد انتهت، فالله أخبر سبحانه أن الشيطان يخوفنا بأوليائه، ثم أعقب ذلك بنهيٍ وأمرٍ، وهذا النهي مبدوءٌ بالفاء الرابطة لجواب الشرط المقدر، تقديره: فإن كان ذلك كذلك فلا تخافوهم، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فلا تخافوهم)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ومنهم من منع من الوقف في الموضع الأول في قوله (يخوف أولياءه) وصحح الوقف هنا، ومنهم من صحح الوقف في الموضعين، يعني أنه يصح عند بعضهم

أن تقف (إنما ذلك الشيطان يخوف أولياءه)، ثم تقف (فلا تخافوهم)، ثم تقرأ (وخافون إن كنتم مؤمنين)، كما نص على ذلك الداني والأنصاري، ومنهم من يصحح الوقف على قوله (فلا تخافوهم)، دون قوله (يخوف أولياءه)، ومنهم من لم ينص على وقفٍ في هذه الآية إلى نهايتها.

فأما الوقف على قوله (فلا تخافوهم)، فإن الواو في قوله (وخافون) واوٌ عاطفةٌ، وما بعدها مجزومٌ عطفًا على جملة جواب الشرط، يعني في قوله: فإن كان كذلك (فلا تخافوهم وخافون)، والعطف هنا وثيق الصلة، فإن الله سبحانه وتعالى أمر بالخوف منه وعدم الخوف من غيره، فالأمر والنهي مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، فالأوجه هنا والله أعلم عدم الوقف على قوله (فلا تخافوهم).

وهل يصح الوقف على قوله (وخافون)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (إن كنتم مؤمنين) جملةٌ شرطيةٌ جوابها محذوفٌ دل عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم مؤمنين فلا تخافوهم وخافون، ومن صحح الوقف على قوله (فلا تخافوهم) جعل تقدير جواب الشرط هنا: إن كنتم مؤمنين فخافون، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النهي قد انتهت هنا (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر)، ثم ابتدأ جملةً في بيان حال هؤلاء الذين يسارعون في الكفر، وهي جملةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) التي يصح الابتداء بها غالبًا، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إنهم لن يضروا الله شيئًا)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك: أنهم اعتبروا جملة (يريد الله ألا يجعل لهم حظًا في الآخرة) جملةً مستأنفةً، أو هي جملةٌ معترضةٌ، فالتقدير عندهم: إنهم لن يضروا الله شيئًا ولهم عذابٌ عظيمٌ، وبين الله بين هاتين الجملتين أنه يريد ألا يجعل لهم حظًا في الآخرة، وعلى هذين التقديرين يصح الوقف على قوله: (إنهم لن يضروا الله شيئًا)، ومن منع من الوقف هنا جعل جملة (يريد الله ألا يجعل لهم حظًا في الآخرة) جملةً حاليةً، ولعل اعتبارها جملةً مستأنفةً أو معترضةً أقرب، وبالتالي يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (يريد الله ألا يجعل لهم حظًا في الآخرة)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وعلى القول بأنها جملةٌ معترضةٌ كما سبق فإنه يصح الوقف هنا، لأنها نهاية الجملة المعترضة، وعلى اعتبارها جملةً مستأنفة ولعله هو الأقرب، لأنه في بيان حالهم في الآخرة، فإنه يصح الوقف أيضًا، لأن جملة (يريد الله ألا يجعل لهم حظًا في الآخرة) تضمنت نفي الثواب عنهم، ثم جاء بعد ذلك جملة تضمنت إثبات العذاب لهم، فاختلفت الجملتان في النفي والإثبات، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئًا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنّ) باسمها وخبرها قد انتهت هنا، (إن) اسمها في قوله: (الذين اشتروا الكفر بالإيمان)، وخبرها في قوله: (لن يضروا الله شيئًا)، هذا من ناحيةٍ لفظيةٍ، ومن ناحيةٍ معنويةٍ الله سبحانه وتعالى بيّن في هذه الجملة أنهم لا يضرون الله بكفرهم، ثم بين فيما بعدها مصيرهم في الآخرة، فصح الفصل بينهما، وإن كانت الواو هنا واوًا عاطفةً، لكنها من قبيل عطف الجمل، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة النفي قد انتهت في قوله: (لا يحسبن الذين كفروا)، ثم ابتدأ بعد ذلك جملةً مثبتةً في بيان حقيقة الحال، فهم كانوا يحسبون شيئًا فنفاه الله في قوله: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم)، ثم بيّن الحقيقة بجملةٍ مستأنفةٍ في قوله (إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه: الفصل بين حالهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة، أين حالهم في الدنيا؟ في قوله: (إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا) فالله سبحانه وتعالى يمهلهم ويزيدهم من الإنعام حتى يزدادوا إثمًا في الدنيا، ثم بين مآلهم في الآخرة في قوله (ولهم عذابٌ مهينٌ)، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن (حتى) هنا للغاية، يعني كأن الله قال: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه إلى أن يميز الخبيث من الطيب، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (حتى يميز الخبيث من الطيب)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء. وإذا تأملنا فإن جملة النفي مع غايتها قد انتهت هنا، ثم ابتدأ بعد ذلك جملة نفيٍ ثانية في قوله (وما كان الله ليطلعكم على الغيب)، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

وهل بصح الوقف على قوله: (وما كان الله ليطلعكم على الغيب)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعدها (لكن) وهي للاستدراك، ولا يصح الوقف قبل الاستدراك.

وهل يصح الوقف على قوله: (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة النفي الثانية المبدوءة بقوله (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) مع استدراكها قد انتهت هنا، ثم جاء بعدها أمرٌ، وهو أمرٌ عامٌ في قوله (فآمنوا بالله ورسله)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فآمنوا بالله ورسله)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الأمر قد انتهت، ثم جاءت بعدها جملة شرطية، والشرط يصح الابتداء به غالبا، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (حسب) بمفعوليها قد انتهت هنا، ثم جاء بعد ذلك الجواب على ما حسبوه بجملةٍ مبدوءةٍ بـ(بل) التي هي للإضراب، وهي جملة متضمنة لمبتدأٍ وخبرٍ، قال (بل هو شرٌ لهم)، (هو) هنا مبتدأ، و (شر) خبره، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (بل هو شرٌّ لهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء ووجهه أن الله سبحانه وتعالى انتهى هنا من بيان أن هذا البخل شرٌ لهم في الدنيا، ثم ذكر عقوبة هذا البخل في الآخرة، فصح الفصل بين الحالين، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله انتهى من ذكر عقوبتهم يوم القيامة هنا، ثم جاءت بعد ذلك جملة مستأنفة في قوله: (ولله ميراث السماوات والأرض) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولله ميراث السموات والأرض)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله تعالى (والله بما تعملون خبيرٌ) جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١٦٩-١٨٠

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا):

سبب النزول: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم، وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم)، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله: {ولا تحسبن الذين قتلوا}. مسند أحمد (٤/ ٢١٨)، سنن أبي داود (٣/ ١٥).

قال ابن تيمية: نهى المؤمنين أن يقولوا للشهيد إنه ميت. قال العلماء: وخص الشهيد بذلك؛ لئلا يظن الإنسان أن الشهيد يموت فيفر عن الجهاد خوفا من الموت، وأخبر الله أنه حي مرزوق؛ وهذا الوصف يوجد أيضا لغير الشهيد من النبيين والصديقين وغيرهم، لكن خص الشهيد بالنهي لئلا ينكل عن الجهاد لفرار النفوس من الموت. جامع المسائل لابن تيمية (٥/ ٣٢٨).

وقال أيضا: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء} مع أنهم موتى داخلون في قوله: {كل نفس ذائقة الموت}، وفي قوله: {إنك ميت وإنهم ميتون}، وقوله: {وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم}، فالموت المثبت غير الموت المنفي، المثبت هو فراق الروح البدن. والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن. مجموع الفتاوى (١٠/ ١١٠).

(بل أحياء عند ربهم يرزقون):

قال ابن القيم: وفي هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا، وأتم وأطيب، وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة، وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نخرة، فليس العمل على الطلل إنما الشأن في الساكن، قال الله تعالى: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا

بل أحياء عند ربهم يرزقون}، وقال تعالى: {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون}. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٢٦٤).

وقال أيضا: جمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى بل هو كمال الرضى، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته. زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢١٥).

وقال السعدي: هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة. تفسير السعدي (ص: ١٥٦).

وقال أيضا: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها، الذي يحذر من فواته، من جبن عن القتال، وزهد في الشهادة. {بل} قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم {أحياء عند ربهم} في دار كرامته. ولفظ: {عند ربهم} يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم. تفسير السعدي (ص: ١٥٦-١٥٧).

قال ابن القيم: فصل في فضل الشهيد

قال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم، والريح ريح المسك»...

وصح عنه أنه قال: «ما من عبد يموت، له عند الله خير لا يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل مرة أخرى»، وفي لفظ: «فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»...

وقال: «إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئا؟ فقالوا: أي شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا». [مسلم]

وقال: «إن للشهيد عند الله خصالا أن يغفر له من أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلية الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها. ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين إنسان من أقاربه» ذكره أحمد وصححه الترمذي...

وفي المسند مرفوعا: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية». زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٨١-٨٣).

(فرحين بما آتاهم الله من فضله...):

قال البقاعي: أعلمنا سبحانه وتعالى بهذا تسلية وحسن تعزية أن لم يفت منهم إلا حياة الكدر التي لا مطمع لأحد في بقائها، وإن طال المدى، وبقيت لهم حياة الصفاء التي لا انفكاك لها، ولا آخر لنعيمها بغم يلحقهم، ولا فتنة تنالهم، ولا حزن يعتريهم، ولا دهش يلم بهم في وقت الحشر ولا غيره، فلا غفلة لهم، فكان ذلك مذهبا لحزن من خلفوه، ومرغبا لهم في الأسباب الموصلة إلى مثل حالهم، وهذا - والله سبحانه وتعالى أعلم - معنى الشهادة، أي أنهم ليست لهم حال غيبة، لأن دائم الحياة بلا كدر أصلا كذلك. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ١٢١-١٢٢).

وقال ابن القيم: جاء الفرح في القرآن على نوعين. مطلق ومقيد.

فالمطلق: جاء في الذم. كقوله تعالى: {لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين}، وقوله: {إنه لفرح فخور}.

والمقيد: نوعان أيضا: مقيد بالدنيا: ينسي صاحبه فضل الله ومنته، فهو مذموم. كقوله: {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}.

والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته. وهو نوعان أيضا. فضل ورحمة بالسبب، وفضل بالمسبب:

فالأول: كقوله: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون}.

والثاني: كقوله: {فرحين بما آتاهم الله من فضله}.

فالفرح بالله، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن: من أعلى مقامات العارفين: قال الله تعالى: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون}، وقال: {والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك}. فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له: على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته. فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: {فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم}. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ١٤٩-١٥٠).

وقال السعدي: {فرحين بما آتاهم الله من فضله} أي: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم النعيم والسرور. تفسير السعدي (ص: ١٥٧).

(يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين):

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وقلما ذكر الله فضلا ذكر به الأنبياء وثوابا أعطاهم إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم. تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٥).

وقال السعدي: {يستبشرون بنعمة من الله وفضل} أي: يهنىء بعضهم بعضا، بأعظم مهنأ به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، {وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين} بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم. وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضا، وتبشير بعضهم بعضا. تفسير السعدي (ص: ١٥٧).

(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح):

عن عائشة رضي الله عنها، (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم)، قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير، وأبو بكر، لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «من يذهب في إثرهم» فانتدب منهم سبعون رجلا، قال: كان فيهم أبو بكر، والزبير. صحيح البخاري (٥/ ١٠٢).

عن عكرمة قال: كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم أحد، يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه أن: (لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس)... وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبا للعدو، ليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم. تفسير الطبري (٧/ ٣٩٩-٤٠٠).

عن السدي: انطلق أبو سفيان منصرفا من أحد، حتى بلغ بعض الطريق، ثم إنهم ندموا وقالوا: بئسما صنعتم! إنكم قتلتموهم، حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم! ارجعوا واستأصلوهم. فقذف الله في قلوبهم الرعب، فهزموا، فأخبر الله رسوله، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد، ثم رجعوا من حمراء الأسد، فأنزل الله جل ثناؤه فيهم: (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح). تفسير الطبري (٧/ ٤٠١).

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم):

عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: مر به -يعني برسول الله صلى الله عليه وسلم- معبد الخزاعي بحمراء الأسد= وكانت خزاعة، مسلمهم ومشركهم، عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة، صفقتهم معه، لا يخفون عليه شيئا كان بها، ومعبد يومئذ مشرك، فقال: والله يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله كان أعفاك فيهم! ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقالوا: أصبنا حد أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم؟! لنكرّنّ على بقيتهم، فلنفرغنّ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد، قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط! قال: ويلك! ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل! قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم! قال: فإني أنهاك عن ذلك، فوالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتا من شعر!... قال: فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه. ومر به ركب من عبد القيس. فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها، وأحمل لكم إبلكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فإذا جئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم! فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه: (حسبنا الله ونعم الوكيل). تفسير الطبري (٧/ ٤٠٦-٤٠٩).

(فزادهم إيمانا):

قال البخاري: وهو قول وفعل، ويزيد وينقص، قال الله تعالى {ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم}، {وزدناهم هدى}، {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى}، {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم}، وقوله: {ويزداد الذين آمنوا إيمانا}، وقوله: {أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا}، وقوله جل ذكره: {فاخشوهم فزادهم إيمانا}، وقوله تعالى: {وما زادهم إلا إيمانا وتسليما}. صحيح البخاري (١/ ١٠).

(وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل):

عن ابن عباس، حسبنا الله ونعم الوكيل، «قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم» حين قالوا: {إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل} . صحيح البخاري (٦/ ٣٩).

عن ابن عباس، في قوله: {فإذا نقر في الناقور} قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته يسمع متى يؤمر، فينفخ؟) فقال أصحاب محمد: كيف نقول؟ قال: (قولوا: حسبنا الله، ونعم الوكيل، على الله توكلنا). مسند أحمد (٥/ ١٤٥)، سنن الترمذي (٤/ ١٩٨).

قال ابن تيمية: قال تعالى (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب، فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل، وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل، وفي الأثر (من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله). جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٩٠).

(فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله):

قال القرطبي: لما فوضوا أمورهم إليه، واعتمدوا بقلوبهم عليه، أعطاهم من الجزاء أربعة معان: النعمة، والفضل، وصرف السوء، واتباع الرضا. فرضاهم عنه، ورضي عنهم. تفسير القرطبي (٤/ ٢٨٢).

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه):

قال الطبري: فإن قال قائل: وكيف قيل: (يخوف أولياءه)؟ وهل يخوف الشيطان أولياءه؟ وكيف قيل -إن كان معناه يخوفكم بأوليائه- (يخوف أولياءه)؟ قيل: ذلك نظير قوله: (لينذر بأسا شديدا) بمعنى: لينذركم بأسه الشديد، وذلك أن البأس لا ينذر، وإنما ينذر به. تفسير الطبري (٧/ ٤١٧).

(فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين):

قال ابن تيمية: ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، كما ذكروا أن رجلا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صححت لم تخف أحدا. أي: خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك. ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان؛ بل لا يخافون غيره تعالى، فقال: {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} أي: يخوفكم أولياءه. وقال لعموم بني إسرائيل تنبيها لنا: {وإياي فارهبون}، وقال: {فلا تخشوا الناس واخشون}، وقال: {لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني}، وقال تعالى: {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون}، وقال: {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله}، وقال: {الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله}، وقال: {ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه}. مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٤٩-٤٥٠).

وقال أيضا: علينا أن نخاف الله ونتقيه في الناس، فلا نظلمهم بقلوبنا ولا جوارحنا، ونؤدي إليهم حقوقهم بقلوبنا وجوارحنا، ولا نخافهم في الله فنترك ما أمر الله به ورسوله خيفة منهم، ومن لزم هذه الطريقة كانت العاقبة له، كما كتبت عائشة إلى معاوية: (أما بعد: فإنه من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس، وعاد حامده من الناس ذاما، ومن التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس). فالمؤمن لا تكون فكرته وقصده إلا رضا ربه واجتناب سخطه، والعاقبة له ولا حول ولا قوة إلا بالله. مجموع الفتاوى (٣/ ٢٣٣).

وقال أيضا: نهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان، وأمرهم بخوفه، وخوفه يوجب فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، والاستغفار من الذنوب، وحينئذ يندفع البلاء، وينتصر على الأعداء. فلهذا قال علي رضي الله عنه: لا يخافن عبد إلا ذنبه. وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه، فليخف الله، وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله. مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٤).

وقال ابن القيم: الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه. وقال تعالى: {فلا تخشوا الناس واخشون}. وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا}، فالرغب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية، وقال عن ملائكته الذين قد أمنهم من عذابه: {يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون}. وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية)، وفي لفظ آخر: (إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقي)، وكان صلى الله عليه وسلم يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وقد قال تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}، فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف. قال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علما. ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه، وخوفه له، وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفا وحبا...

وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه، فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوء عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان، فإذا علم قبح الذنب وعلم سوء مغبته وخاف ألا يفتح له باب التوبة، بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه، هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد. وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو. وأما إن كان مستقيما مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت أكثر يمينه: (لا ومقلب القلوب، لا ومقلب القلوب)، وقال بعض السلف: القلب أشد

تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا. وقال بعضهم: مثل القلب في سرعة تقلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن. ويكفي في هذا قوله تعالى: {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه}، فأي قرار لمن هذه حاله؟ ومن أحق بالخوف منه؟ بل خوفه لازم له في كل حال، وإن توارى عنه بغلبة حالة أخرى عليه. فالخوف حشو قلبه، لكن توارى عنه بغلبة غيره. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٨٢-٢٨٣).

وقال ابن القيم: ومن كيد عدو الله تعالى: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله سبحانه عنه بهذا فقال: {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين}... قال قتادة: يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: {فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ١١٠).

(إنهم لن يضروا الله شيئا):

قال ابن تيمية: ومعلوم أن الله سبحانه لا يضره عباده ولا ينفعونه، وإنما يضرون أنفسهم، ولهذا قال: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة)، فأخبر أن الكافر الذي كفر بربه وترك حقه وأشرك به وعبد غيره وتعدى حدوده وانتهك محارمه لا يضره شيئا، كما يضر المخلوق من السادة ونحوهم من يجحد حقوقهم ويكفر نعمهم ويعتدي عليهم، فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ولا تضرب له الأمثال. ولهذا قال تعالى في الحديث الصحيح عن أبي ذر- وهو أشرف حديث رواه أهل الشام-: (يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا) الحديث إلى قوله: (يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)، إلى قوله: (فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه). وكذلك أخبر في القرآن أنه غني عن خلقه، لن يبلغوا نفعه فينفعوه، كما يبلغ بعضهم نفع بعض، كما قال: (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين)،

وقال (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم). جامع المسائل لابن تيمية (٦/ ٢٣٥).

وقال السعدي: وكيف يضرون الله شيئا، وهم قد زهدوا أشد الزهد في الإيمان، ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن؟! فالله غني عنهم، وقد قيّض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم، وأعد له -ممن ارتضاه لنصرته- أهل البصائر والعقول، وذوي الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: {قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا} الآيات. تفسير السعدي (ص: ١٥٨).

(ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما):

عن أبي بكرة، أن رجلا قال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: (من طال عمره، وحسن عمله)، قال: فأي الناس شر؟ قال: (من طال عمره وساء عمله). مسند أحمد (٣٤/ ٥٨)، سنن الترمذي (٤/ ١٤٤).

وقال ابن كثير: {ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين} كقوله تعالى: {أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون}، وكقوله {فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}، وكقوله {فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون}. تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٣).

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب):

قال ابن القيم: إن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبّب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبّآتهم، وعاد تلويحهم تصريحا، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا، وعرف المؤمنون

أن لهم عدوا في نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم. قال الله تعالى: {ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء}. أي: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم أحد، {وما كان الله ليطلعكم على الغيب} الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزا مشهودا، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة. زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٩٧).

وقال البقاعي: {حتى يميز الخبيث من الطيب} بأن يفضح المبطل وإن طال ستره بتكاليف شاقة، وأحوال شديدة، لا يصبر عليها إلا المخلَص من العباد، المخلِصون في الاعتقاد. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ١٣٦).

(وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء):

قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بتأويله: وما كان الله ليطلعكم على ضمائر قلوب عباده، فتعرفوا المؤمن منهم من المنافق والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء= كما ميز بينهم بالبأساء يوم أحد= وجهاد عدوه، وما أشبه ذلك من صنوف المحن، حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم. غير أنه تعالى ذكره يجتبي من رسله من يشاء فيصطفيه، فيطلعه على بعض ما في ضمائر بعضهم، بوحيه ذلك إليه ورسالته. تفسير الطبري (٧/ ٤٢٧).

(ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم...):

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته، مثل له ماله شجاعا أقرع، له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه – يعني: بشدقيه – يقول: أنا مالك أنا كنزك) ثم تلا هذه الآية: (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله) إلى آخر الآية. صحيح البخاري (٦/ ٣٩).

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته، إلا أحمي عليه في نار جهنم، فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه، وجبينه حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار، وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها، إلا بطح لها بقاع قرقر، كأوفر ما كانت، تستن عليه، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار، وما من صاحب غنم، لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر، كأوفر ما كانت فتطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار». صحيح مسلم (٢/ ٦٨٢).

قال البغوي: وروي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته، وأراد بالبخل كتمان العلم كما قال في سورة النساء (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) ومعنى قوله: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) أي: يحملون وزره وإثمه، كقوله تعالى: (يحملون أوزارهم على ظهورهم). تفسير البغوي (١/ ٥٤٦).

وقال ابن تيمية: وهذان داءان عظيمان: الجبن والبخل. قال النبي صلى الله عليه وسلم {شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع} حديث صحيح؛ ولهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للنار كما دل عليه قوله: {ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة}. مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٧).

(ولله ميراث السماوات والأرض):

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: أنه الحي الذي لا يموت، والباقي بعد فناء جميع خلقه.

فإن قال قائل: فما معنى قوله: له ميراث السموات والأرض، والميراث المعروف، هو ما انتقل من ملك مالك إلى وارثه بموته، ولله الدنيا قبل فناء خلقه وبعده؟

قيل: إن معنى ذلك ما وصفنا، من وصفه نفسه بالبقاء، وإعلام خلقه أنه كتب عليهم الفناء، وذلك أن ملك المالك إنما يصير ميراثا بعد وفاته، فإنما قال جل ثناؤه: (ولله ميراث السموات والأرض)، إعلاما بذلك منه عباده أن أملاك جميع خلقه منتقلة عنهم بموتهم، وأنه لا أحد إلا وهو فان سواه، فإنه الذي إذا أهلك جميع خلقه فزالت أملاكهم عنهم، لم يبق أحد يكون له ما كانوا يملكونه غيره. تفسير الطبري (٧/ ٤٤٠).

وقال السعدي: وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما ألا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولا أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكا للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه، لم يصل إليه منه شيء، فمنعه لذلك منع لفضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى: {وأحسن كما أحسن الله إليك}. فمن تحقق أن ما بيده، فضل من الله، لم يمنع الفضل الذي لا يضره، بل ينفعه في قلبه وماله، وزيادة إيمانه، وحفظه من الآفات.

ثم ذكر ثانيا: أن هذا الذي بيد العباد كلها ترجع إلى الله، ويرثها تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثا: السبب الجزائي، فقال: {والله بما تعملون خبير} فإذا كان خبيرا بأعمالكم جميعها -ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشر- لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب. تفسير السعدي (ص: ١٥٨-١٥٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١٦٩-١٨٠

١- الشهادة في سبيل الله لها منزلة عظيمة، وإنما تفوت بها حياة الكدر في الدنيا، وتعقبها الحياة الحقيقية عند الرب الكريم، حياة السرور والنعيم، والفضل والرزق الرغيد، ولا خوف على الشهداء فيما يستقبلونه من أمور الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من متاع الدنيا، لما يرونه من التكريم، فهنيئا لمن نال الشهادة في جهاد شرعي صحيح، لا قتال جاهلي تحت راية عمّيّة، لا ترفع راية الإسلام، ولا تدعو إليه، أو راية خارجية تكفّر أهل الإسلام وتقتلهم (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين).

٢- كن مستجيبا لله والرسول ما استطعت، محسنا في طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، متّقيا لله في كل أمرك، فإن عاقبة ذلك أجر عظيم لا يخطر ببالك (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتّقوا أجر عظيم).

٣- لا يغرّنّك قوةُ أهل الباطل وتسلّطهم وجبروتهم، فإن الشيطان وأعوانه من الجن والإنس يخوّفون المؤمنين بإظهار قوة الكافرين، ويعظّمونهم في صدور المؤمنين، فعظّم الله في نفسك، واقدره حقّ قدره، حتى يتحقق الخوف منه في قلبك، ويهونُ عليك كلَّ من عداه، واعلم أنه بقدر إيمانك يكون خوفك من الله، ولتكن قوة أهل الباطل سببا في زيادة إيمانك، وقوة توكلك على الله، وحسن اعتمادك على ربك، وأبشر بالعاقبة الحسنة والنعيم المقيم والفضل العظيم في الدنيا والآخرة (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتّبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين).

٤- لا يضرنّك تسابق بعض الناس إلى الكفر، وفرحهم بالإلحاد، وتهافتهم نحو الشر، فإنما ذلك لمرض في قلوبهم وهوانهم على الله، ولن يضروا الله شيئا بكفرهم وزندقتهم وإلحادهم، ولا تحسبن أن طول أعمارهم وزيادة نعيمهم في الدنيا خير لهم، بل هو شر لهم، لأنهم يزدادون إثما

ومعصية كل يوم فيزداد بذلك عذابهم، وتزداد نعم الله عليهم كل يوم فتقوم عليهم الحجة بذلك ويزداد حسابهم، ولا يبقى لهم نصيب من الأجر في الآخرة، بل لهم عذاب عظيم وأليم ومهين، واحذر كذلك في نفسك أن تغترّ بإمهال الله لك وإنعامه عليك إن كنت مقيما على معاصيه مصرا عليها، فإنما هو استدراج لك (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألّا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم * إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم * ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين).

٥- اعلم أنك في دار ابتلاء وامتحان، يبتليك الله فيها بالأوامر والنواهي، ويبتليك بالمصائب الشداد من الأوبئة والأمراض والفقر وتسليط الأعداء ليمتحن صبرك وقوة إيمانك وصدق توكلك على الله (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)، (فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم).

٦- اعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه، وإنما كان الله يطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على شيء من الغيب، فمن ادّعى علم الغيب فهو كافر ضالّ مفترٍ كذاب، ولو أصاب في بعض ما يقوله، فإنما ذلك من الشياطين الذين يسترقون السمع أو محض صدفة، فإياك والاغترار بهم أو الاستماع إليهم أو تصديقهم (وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء).

٧- إياك والبخل بما أنعم الله عليك وآتاك من فضله، ولا تظنّنّ أن البخل خير لك، وأنك تدّخر به مالك، وتحقق به مصالحك، بل هو شر لك في الدنيا بفقد بركته، وفي الآخرة بتحمّل وزره، واعلم أن من أعطاك هذا المال قادر على أن يسلبه منك في طرفة عين، فأحسن كما أحسن الله إليك (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١٨١-١٨٩) من التفسير الميسّر

لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)

لقد سمع الله قول اليهود الذين قالوا: إن الله فقير إلينا يطلب منا أن نقرضه أموالا ونحن أغنياء. سنكتب هذا القول الذي قالوه، وسنكتب أنهم راضون بما كان مِن قَتْل آبائهم لأنبياء الله ظلمًا وعدوانًا، وسوف نؤاخذهم بذلك في الآخرة، ونقول لهم وهم في النار يعذبون: ذوقوا عذاب النار المحرقة.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

ذلك العذاب الشديد بسبب ما قدَّمتموه في حياتكم الدنيا من المعاصي القولية والفعلية والاعتقادية، وأن الله ليس بظلام للعبيد.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)

هؤلاء اليهود حين دُعُوا إلى الإسلام قالوا: إن الله أوصانا في التوراة ألا نصدِّق مَن جاءنا يقول: إنه رسول من الله، حتى يأتينا بصدقة يتقرب بها إلى الله، فتنزل نار من السماء فتحرقها. قل لهم -أيها الرسول-: أنتم كاذبون في قولكم؛ لأنه قد جاء آباءكم رسلٌ من قِبلي بالمعجزات والدلائل على صدقهم، وبالذي قلتم من الإتيان بالقربان الذي تأكله النار، فَلِمَ قَتَل آباؤكم هؤلاء الأنبياء إن كنتم صادقين في دعواكم؟

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

فإن كذَّبك -أيها الرسول- هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكفر، فقد كذَّب المبطلون كثيرًا من المرسلين مِن قبلك، جاءوا أقوامهم بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات، والكتب السماوية التي هي نور يكشف الظلمات، والكتابِ البيِّن الواضح.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)

كل نفس لا بدَّ أن تذوق الموت، وبهذا يرجع جميع الخلق إلى ربهم؛ ليحاسبهم. وإنما تُوفَّون أجوركم على أعمالكم وافية غير منقوصة يوم القيامة، فمن أكرمه ربه ونجَّاه من النار وأدخله الجنة فقد نال غاية ما يطلب. وما الحياة الدنيا إلا متعة زائلة، فلا تغترُّوا بها.

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

لَتُخْتَبَرُنَّ -أيها المؤمنون- في أموالكم بإخراج النفقات الواجبة والمستحبَّة، وبالجوائح التي تصيبها، وفي أنفسكم بما يجب عليكم من الطاعات، وما يحلُّ بكم من جراح أو قتل وفَقْد للأحباب، وذلك حتى يتميَّز المؤمن الصادق من غيره. ولَتَسمعُنَّ من اليهود والنصارى والمشركين ما يؤذي أسماعكم من ألفاظ الشرك والطعن في دينكم. وإن تصبروا -أيها المؤمنون- على ذلك كله، وتتقوا الله بلزوم طاعته واجتناب معصيته، فإن ذلك من الأمور التي يُعزم عليها، وينافس فيها.

وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)

واذكر -أيها الرسول- إذ أخذ الله العهد الموثق على الذين آتاهم الله الكتاب من اليهود والنصارى، فلليهود التوراة وللنصارى الإنجيل؛ ليعملوا بهما، ويبينوا للناس ما فيهما، ولا يكتموا ذلك ولا يخفوه، فتركوا العهد ولم يلتزموا به، وأخذوا ثمنا بخسًا مقابل كتمانهم الحق وتحريفهم الكتاب، فبئس الشراء يشترون، في تضييعهم الميثاق، وتبديلهم الكتاب.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)

ولا تظنن الذين يفرحون بما أَتَوا من أفعال قبيحة كاليهود والمنافقين وغيرهم، ويحبون أن يثني عليهم الناس بما لم يفعلوا، فلا تظنهم ناجين من عذاب الله في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب موجع. وفي الآية وعيد شديد لكل آت لفعل السوء معجب به، ولكل مفتخر بما لم يعمل، ليُثنيَ عليه الناس ويحمدوه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

ولله وحده ملك السموات والأرض وما فيهما، والله على كل شيء قدير.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١٨١-١٨٩)

المعنى	الكلمة
العذاب المُحرِق	عذاب الحَرِيق
أمَرَنا ووصّانا	عَهِدَ إلينا
بِصدقة يُتقرّب بها إلى الله	بِقُربان
تأتي عليها نار من السماء فتُحرِقها	تأكله النار
وكُتب الوعظ	والزّبُر
تنالون جزاءكم كاملا غير منقوص	تُوفّون أجوركم
أُبعِد	زُحزِحَ
مُتعة زائلة يَغترّ بها المخدوع	متاعُ الغُرور
لتُختبرُنّ	لَتُبلوُنّ
من الأمور التي تحتاج إلى عزيمة	من عزم الأمور
فطَرَحوه	فنبَذُوه
بما ارتكبوا من المعاصي	بما أَتوا
بِفَوز ومَنْجاة	بِمَفَازة

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١٨١-١٨٩

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الحادية والثمانين بعد المائة وحتى الآية التاسعة والثمانين بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (لقد سمع الله قول الذين قالوا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، وذلك لقبح الابتداء بما بعده.

وهل يصح الوقف على قوله (قالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء)؟

اختلف العلماء في الوقف هنا، فمنهم من صححه، ومنهم من جعله لازمًا كما نص عليه السجاوندي، ومنهم من منع منه.

فمن صححه نظر إلى أن قولهم قد انتهى، ثم جاء إخبار الله عن جزائهم على هذا القول.

ومن جعله لازمًا نظر إلى أنه لو وصل لتُوهم أن قوله (سنكتب ما قالوا) من تتمة قولهم، وهذا توهمٌ بعيدٌ حقيقةً؛ لأن احتمال أن يكونوا قد قالوا (إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا) لا يتطرق إلى ذهن السامع عادةً، فلذلك التنصيص على لزوم الوقف هنا فيه نوع بعدٍ، والله أعلم.

ومن منع منه نظر إلى أنه ينبغي أن يوصل الجزاء بالقول مباشرةً.

ولعل أقرب الأقوال القول بالوقف هنا دون لزومه، لاعتبار أن قولهم قد انتهى، ثم بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر جزائهم على قولهم، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (سنكتب ما قالوا)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وقتلهم الأنبياء) معطوفٌ على (ما قالوا) وتقدير الجملة: سنكتب ما قالوا وسنكتب قتلهم الأنبياء بغير حقٍّ، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وقتلهم الأنبياء بغير حق)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (ونقول ذوقوا عذاب الحريق) معطوفٌ على (سنكتب)، وهو عطفٌ وثيق الصلة، لأنه من تتمة جزائهم، فلم يكن جزاؤهم مقصورًا على أنه سيكتب، وإنما هو متضمنٌ لكونهم يذوقون عذاب الحريق.

وجاء هنا في قراءة حمزة (سيُكتب ما قالوا وقتلُهم الأنبياء بغير حقٍّ ويقولُ ذوقوا) وعلى هذه القراءة يصح الوقف على قوله (بغير حق)، لماذا؟ لأن (سيُكتب) مبني على ما لم يسمَ فاعله، (ويقولُ) بعدها تقديره: ويقول الله لهم ذوقوا عذاب الحريق، أو: ويقول الزبانية لهم ذوقوا عذاب الحريق.

لكن على قراءة الجمهور لا وقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ذلك بما قدمت أيديكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد) معطوفٌ على (ما قدمت أيديكم)، تقدير الجملة: ذلك بما قدمت أيديكم وبأن الله ليس بظلامٍ للعبيد، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وقد ذكرت سابقًا أن (أنّ) المفتوحة لا يصح الوقف قبلها عادةً، لأنها لا تتصدر في جملتها، لا بد أن يكون قبلها ما يرتبط بها، والله أعلم.

الآية التي تليها: (الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألّا نؤمن لرسول) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعدها (حتى) التي هي للغاية، بمعنى: إلى أن يأتينا بقربانٍ تأكله النار، فلم يصح الوقف قبل ذكر الغاية.

وهل يصح الوقف على قوله (بقربانٍ تأكله النار)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قولهم الذي ادّعوه قد انتهى هنا، ثم جاء الأمر بالرد عليهم، فصح الوقف، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قل قد جاءكم رسلٌ من قبلي بالبينات وبالذي قلتم)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ونص الأشموني على أن الوقف هنا للابتداء بعدها بالاستفهام في قوله (فلِمَ قتلتموهم)، لكن إذا تأملنا فإن هذا الاستفهام مرتبطٌ بالجملة السابقة ارتباطًا وثيقًا، وذلك أن الجواب على قولهم لم ينتهِ عند قولنا (وبالذي قلتم)، فهم لما ادّعوا أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسولٍ حتى يأتيهم بقربانٍ تأكله النار كان الرد عليهم: (قد جاءكم رسلٌ من قبلي بالبينات وبالذي قلتم) يعني (بقربانٍ تأكله النار) هل يصح الجواب بالوقف هنا؟ الجواب: لا يصح، إنما يصح (فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) يعني: لما جاءكم رسلٌ بهذه المواصفات التي زعمتم أن الله وصاكم بها وبعدم الإيمان برسولٍ حتى يأتيكم بها، فلماذا كذبتموهم وقتلتموهم؟ فجملة الاستفهام في قوله (فلم قتلتموهم) مرتبطةٌ بما قبلها ارتباطًا وثيقًا، وهي من تتمة الجواب على قولهم، فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فلم قتلتموهم)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (إن كنتم صادقين) جملةٌ شرطيةٌ جوابها محذوفٌ دل عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين فلم قتلتموهم؟

الآية التي تليها: (فإن كذبوك فقد كُذب رسلٌ من قبلك) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) وصفٌ للرسل الذين جاؤوا من قَبل النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فلم يصح الوقف قبل الوصف، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (كل نفسٍ ذائقة الموت) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة المتضمنة أن كل نفسٍ ستذوق الموت قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة جديدة مبدوءة بـ (إنما) لبيان أن جزاء الأعمال سيكون يوم القيامة وليس في الدنيا، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أنه قد انتهت الجملة التي تضمنت بيان توفية أجورهم يوم القيامة، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ في بيان من الذي يكون فائزًا يوم القيامة، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت، أداة الشرط في قوله (مَن)، وفعل الشرط (زحزح عن النار)، وعطف عليه (وأدخل الجنة)، وجواب الشرط (فقد فاز)، ثم جاءت جملةٌ جديدةٌ مبدوءة بالنفي في قوله (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)، لبيان حال الدنيا بعد ذكر جزاء من فاز يوم القيامة، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (لتبلونّ في أموالكم وأنفسكم) هل يصح الوقف هنا؟

جوّز الوقف هنا الأشموني، وجعله الأنصاري مفهومًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرًا) جملةٌ معطوفةٌ على الجملة السابقة، وقد تكرر فيها (اللام) الواقعة في جواب القسم المقدر، فصارت جملةً قائمةً بنفسها، فلو قرأ قارئٌ (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرًا)، لكان معنًى

مفهومًا قائمًا بنفسه، ولو قرأ قارئ (لتبلونّ في أموالكم وأنفسكم) لكانت جملةً تامةً قائمةً بنفسها مفهومة المعنى، والعطف الذي بينهما عطف جملٍ ليس بوثيق الصلة، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أذًى كثيرًا)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة القسم قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ مستأنفةٌ في قوله (وإن تصبروا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن ذكر الميثاق الذي أخذه الله عليهم لم يأت بعد، وإنما جاء بعد هذه الجملة في قوله (لتبيننه للناس ولا تكتمونه)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تكتمونه)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ونص السجاوندي على أنه قد يجوز، لأن الجملتين -جملة (أخذ الله)، وجملة (نبذوه)- وإن اتفقتا فإن النبذ لم يكن متصلاً بأخذ الميثاق، فلم ينضف إلى ظرف (إذ)، بمعنى أن (فنبذوه) لم يكن مباشرًا لأخذ الميثاق، فلم يكن متصلاً بالظرف في قوله (إذ)، (وإذ أخذ الله) هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى الله سبحانه وتعالى انتهى هنا من ذكر الميثاق الذي أُخذ عليهم، ثم بين بعدها حالهم مع هذا الميثاق، وأنهم نبذوه وراء ظهورهم، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (واشتروا به ثمنًا قليلاً)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى انتهى من بيان حالهم وما كان منهم تجاه الميثاق الذي أُخذ عليهم، ثم وصف ما حصل منهم بجملةٍ استئنافيةٍ مبدوءة بـ (بئس) التي لها الصدارة، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ويحبون) معطوفٌ على (يفرحون) عطفًا وثيق الصلة، لأنه من تتمة بيان حالهم، وتتمة جملة (لا تحسبن)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ومنع منه بعضهم أيضًا، وذلك أن (حسِب) في قوله (لا تحسبن) بحاجةٍ إلى مفعولين، ولم يأتِ ذكر مفعوليها إلا بعد تكرار (لا تحسبن)، والله سبحانه وتعالى

كررها لبيان النتيجة وذكر المفعولين، (فلا تحسبنهم بمفازةٍ من العذاب) هذه هي النتيجة، فتقدير الجملة: لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازةٍ من العذاب، هنا انتهت الجملة، وتكررت (لا تحسبن) لطول الكلام، وحتى يكون الجزاء متصلاً بفعل (لا تحسبنّ) فلم يصح الوقف هنا إلا على قوله (بمفازةٍ من العذاب)، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أن جملة (حسب) قد انتهت بمفعوليها، ثم جاء بعدها إثباتٌ بعد النفي، النفي في قوله (لا تحسبنهم بمفازةٍ من العذاب)، ثم أثبت فقال (ولهم عذابٌ أليمٌ)، في جملةٍ مستأنفةٍ، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (ولله ملك السموات والأرض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١٨١-١٨٩

(لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء):

سبب النزول: عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المدراس، فوجد من يهود ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له أشيع. فقال أبو بكر رضي الله عنه لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل! قال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير! وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم! ينهاكم عن الربا ويعطيناه! ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا! فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله! فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولا عظيما، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء! فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه. فجحد ذلك فنحاص وقال: ما قلت ذلك! فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص، ردا عليه وتصديقا لأبي بكر: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق)، وفي قول أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب: (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور). تفسير الطبري (٧/ ٤٤١-٤٤٢).

عن قتادة قوله: (الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)، ذكر لنا أنها نزلت في حيي بن أخطب، لما أنزل الله: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة)، قال: يستقرضنا ربنا، إنما يستقرض الفقير الغني! تفسير الطبري (٧/ ٤٤٤).

(وقتلهم الأنبياء بغير حق):

قال الطبري: فإن قال قائل: كيف قيل: (وقتلهم الأنبياء بغير حق)، وقد ذكرتَ في الآثار التي رويت، أن الذين عنوا بقوله: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير) بعض اليهود الذين كانوا على عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكن من أولئك أحد قتل نبيا من الأنبياء، لأنهم لم يدركوا نبيا من أنبياء الله فيقتلوه؟

قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ذهبت إليه، وإنما قيل ذلك كذلك، لأن الذين عنى الله تبارك وتعالى بهذه الآية، كانوا راضين بما فعل أوائلهم من قتل من قتلوا من الأنبياء، وكانوا منهم وعلى منهاجهم من استحلال ذلك واستجازته. فأضاف جل ثناؤه فعل ما فعله من كانوا على منهاجه وطريقته إلى جميعهم، إذ كانوا أهل ملة واحدة ونحلة واحدة. تفسير الطبري (٧/ ٤٤٦).

وقال السعدي: {بغير حق} هذا القيد يراد به، أنهم تجرؤوا على قتلهم مع علمهم بشناعته، لا جهلا وضلالا، بل تمردا وعنادا. تفسير السعدي (ص: ١٥٩).

(ذلك بما قدمت أيديكم):

قال أبو حيان: ولما كان أكثر الأعمال تزاول بالأيدي، عبر عن كل عمل باجتراح الأيدي، حتى أعمال القلوب، اتساعا في الكلام، وتصيير الأقل تابعا للأكثر، وتغليب الأكثر على الأقل. البحر المحيط في التفسير (٨/ ٣١٠).

وقال زكريا الأنصاري: (ذلك بما قدمت أيديكم) قاله هنا بجمع اليد، لأنه نزل في قوم تقدم ذكرهم، وقاله في الحج بتثنيتها لأنه نزل في النضر بن الحارث، أو في أبي جهل، والواحد ليس له إلا يدان. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١٠١).

(وأن الله ليس بظلام للعبيد):

قال زكريا الأنصاري: فإن قلت: (ظلام) صيغة مبالغة من الظلم، ولا يلزم من نفيها نفيه، مع أنه منفي عنه، قال تعالى (ولا يظلم ربك أحدا)؟

قلت: صيغة المبالغة هنا لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم، كما في قوله تعالى (محلقين رؤوسكم) إذ التشديد فيه لكثرة الفاعلين، لا لتكرار الفعل. أو الصيغة هنا للنسبة، أي: لا ينسب إليه ظلم، فالمعنى ليس بذي ظلم. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١٠١).

وقال السيوطي: (ظلام) وإن كان للكثرة لكنه جيء به في مقابلة العبيد الذي هو جمع كثرة، ويرشحه أنه تعالى قال: {علام الغيوب} فقابل صيغة (فعّال) بالجمع، وقال في آية أخرى: {عالم الغيب} فقابل صيغة (فاعل) الدالة على أصل الفعل بالواحد. الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٦٥-٢٦٦).

(الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار):

عن ابن عباس قوله: (حتى يأتينا بقربان تأكله النار)، كان الرجل يتصدق، فإذا تقبل منه، أنزلت عليه نار من السماء فأكلته. تفسير الطبري (٧/ ٤٤٨).

وقال البغوي: كانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قربوا قربانا أو غنموا غنيمة جاءت نار بيضاء من السماء لا دخان لها، ولها دوي وحفيف، فتأكله وتحرق ذلك القربان وتلك الغنيمة فيكون ذلك علامة القبول، وإذا لم يقبل بقيت على حالها. تفسير البغوي (١/ ٥٤٨).

وقال ابن تيمية: كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان؛ بل تأتي نار من السماء فتأكله... وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها؛ ليكون قتالهم محضا لله لا للمغنم، ويكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وسّع الله عليهم لكمال يقينهم وإخلاصهم، وأنهم يقاتلون لله ولو أكلوا المغنم، ويذبحون لله ولو أكلوا القربان. مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٨٤).

(فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير):

قال ابن تيمية: حذف هنا الفاعل، وبنى الفعل للمفعول إذ المقصود هنا تسلية الرسول وتعزيته لا ذكر عقوبة المكذبين. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٦/ ٣٨٦).

وقال ابن جماعة: قوله تعالى: (فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير)، وفي فاطر: (بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) بالباء في الثلاثة؟

جوابه: أن آية آل عمران سياقها الاختصار والتخفيف، بدليل حذف الفاعل في (كُذب)، وورود الشرط ماضيا -يعني: كذبوك-، وأصله المستقبل، فحذف الجارّ -يعني: الباء- تخفيفا لمناسبة ما تقدم.

وآية فاطر سياقها البسط بدليل فعل المضارع في الشرط -يعني: يكذبوك-، وإظهار فاعل التكذيب -يعني: الذين من قبلهم-، وفاعل ومفعول (جاءتهم رسلهم)، فناسب البسط ذكر الجارّ في الثلاثة -يعني: الباء-. كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١٣٤-١٣٥).

(كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة):

قال ابن كثير: يخبر تعالى إخبارا عاما يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله: {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}، فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرا كما كان أولا.

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم، وانتهت البرية، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يَظلم أحدا مثقال ذرة؛ ولهذا قال: {وإنما توفون أجوركم يوم القيامة}. تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٧).

وقال ابن القيم: الله سبحانه يجزي العبد على ما عمل من خير في الدنيا ولا بد، ثم في الآخرة يوفيه أجره، كما قال تعالى: {وإنما توفون أجوركم يوم القيامة}، فما يحصل في الدنيا من الجزاء على الأعمال

الصالحة ليس جزاء توفية، وإن كان نوعا آخر، كما قال تعالى عن إبراهيم: {وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين}، وهذا نظير قوله تعالى: {وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين}، فأخبر سبحانه أنه آتى خليله أجره في الدنيا من النعم التي أنعم بها عليه في نفسه وقلبه وولده وماله وحياته الطيبة، ولكن ليس ذلك أجرَ توفية، وقد دل القرآن في غير موضع على أن لكل من عمل خيرا أجرين: عمله في الدنيا، ويكمل له أجره في الآخرة، كقوله تعالى: {للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين}، وفي الآية الأخرى: {والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون}. إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ١٢٥).

(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز):

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها)، واقرؤوا إن شئتم: {فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}. سنن الترمذي (٥/ ٨٢)، مسند أحمد (١٥/ ٤٠٨).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء، وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويُدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه...). صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٢).

وقال السعدي: ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: {وإنما توفون أجوركم يوم القيامة} أي: توفية الأعمال التامة، إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر}. تفسير السعدي (ص: ١٥٩-١٦٠).

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور):

قال ابن كثير: {وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} تصغيرا لشأن الدنيا، وتحقيرا لأمرها، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: {بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى}، وقال تعالى: {وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع}، وقال تعالى: {ما عندكم ينفد وما عند الله باق}، وقال تعالى: {وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى}، وفي الحديث: (والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع إليه؟). تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٨-١٧٩).

وقال ابن القيم: القرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها، وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها. فإذا أراد الله بعبد خيرا أقام في قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة. ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار...

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة. وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها.

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء.

وقال الجنيد: سمعت سريا يقول: إن الله عز وجل سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده؛ لأنه لم يرضها لهم.

وقال: الزهد في قوله تعالى: {لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور}، فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود. ولا يأسف منها على مفقود...

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه. الأول ترك الحرام، وهو زهد العوام. والثاني ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص. والثالث ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ١٢-١٥).

(لتبلون في أموالكم وأنفسكم):

قال ابن كثير: {لتبلون في أموالكم وأنفسكم} كقوله {ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون}، أي: لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه، إن كان في دينه صلابة زيد في البلاء. تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٩).

وقال السعدي: وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي ذلك، ليتميز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور، لما يريده بهم من الخير ليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر {قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما}.

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤونته، ويلجؤون إلى الصبر والتقوى. تفسير السعدي (ص: ١٦٠).

(وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور):

قال ابن تيمية: أمر سبحانه بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى، وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض، متأولين كانوا أو غير متأولين، وقد قال سبحانه (ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)، فنهى أن يحمل المؤمنين بغضُهم للكفار على ألا يعدلوا

عليهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟ فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالما له.
فهذا موضع عظيم المنفعة في الدين والدنيا، فإن الشيطان موكل ببني آدم، وهو يعرض للجميع، ولا يسلم أحد من مثل هذه الأمور. الاستقامة (١/ ٣٨).

وقال أيضا: الصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة، المؤذين بألسنتهم والمؤذين بأيديهم وشر العدو المبطن للعداوة، وهم المنافقون. جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ١٣٧).

وقال ابن القيم: الصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين، ولا يستغني أحدهما عن صاحبه. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٦٨).

(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه):
عن قتادة: هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئا فليعلّمه، وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة، ولا يتكلفن رجل ما لا علم له به، فيخرج من دين الله، فيكون من المتكلفين، كان يقال: مثل علم لا يقال به، كمثل كنز لا ينفق منه! ومثل حكمة لا تخرج، كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب. وكان يقال: طوبى لعالم ناطق، وطوبى لمستمع واع. هذا رجل علم علما فعلّمه وبذله ودعا إليه، ورجل سمع خيرا فحفظه ووعاه وانتفع به. تفسير الطبري (٧/ ٤٦١).
كان الحسن يفسر قوله: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)، لتتكلمن بالحق، ولتصدقنه بالعمل.
عن الشعبي في قوله: (فنبذوه وراء ظهورهم)، قال: إنهم قد كانوا يقرؤونه، إنما نبذوا العمل به. تفسير الطبري (٧/ ٤٦٢-٤٦٣).

وقال ابن تيمية: وصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم: تارة بخلا به، وتارة اعتياضا عن إظهاره بالدنيا، وتارة خوفا في أن يحتج عليهم بما أظهروه منه.

وهذا قد يبتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم، فإنهم تارة يكتمون العلم بخلا به، وكراهة لأن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضا عنه برئاسة أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة، فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل.

ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٨٤-٨٥).

وقال ابن كثير: في هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار). تفسير ابن كثير (٢/ ١٨١).

وقال ابن مفلح: لا تنس الأدب فيما وجب عليك فيه حسن الأدب، ما أخوفني أن يكون المصحف في بيتك وأنت مرتكب لنواهي الحق سبحانه فيه، فتدخل تحت قوله: {فنبذوه وراء ظهورهم}. الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٣١٨).

وقال السعدي: وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب، وعلّمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل. تفسير السعدي (ص: ١٦٠).

(لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب):

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا»، فنزلت: (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) الآية. صحيح البخاري (٦/ ٤٠)، صحيح مسلم (٤/ ٢١٤٢).

عن علقمة بن وقاص، أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: (وما لكم ولهذه، إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه، بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم)، ثم قرأ ابن عباس: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب} كذلك حتى قوله: {يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا} . صحيح البخاري (٦/ ٤٠)، صحيح مسلم (٤/ ٢١٤٣).

عن ابن عباس: (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا)، هم أهل الكتاب، أنزل عليهم الكتاب فحكموا بغير الحق، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وفرحوا بذلك، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا. فرحوا بأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل الله، وهم يزعمون أنهم يعبدون الله، ويصومون ويصلون ويطيعون الله. فقال الله جل ثناؤه لمحمد صلى الله عليه وسلم: (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا)، كفرا بالله وكفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم، (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا)، من الصلاة والصوم، فقال الله جل وعز لمحمد صلى الله عليه وسلم: (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم). تفسير الطبري (٧/ ٤٦٨).

وقال ابن كثير: يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ادّعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة)، وفي الصحيح: (المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور). تفسير ابن كثير (٢/ ١٨١).

وقال السعدي: ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين}، وقال: {سلام على نوح في العالمين، إنا كذلك نجزي المحسنين}، وقد قال عباد الرحمن: {واجعلنا للمتقين إماما}، وهي من نعم الباري على عبده، ومننه التي تحتاج إلى الشكر. تفسير السعدي (ص: ١٦٠-١٦١).

(ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير):

قال الطبري: وهذا تكذيب من الله جل ثناؤه الذين قالوا: (إن الله فقير ونحن أغنياء)، يقول تعالى ذكره، مكذبا لهم: لله ملك جميع ما حوته السماوات والأرض. فكيف يكون أيها المفترون على الله، من كان ملك ذلك له فقيرا؟ ثم أخبر جل ثناؤه أنه القادر على تعجيل العقوبة لقائلي ذلك، ولكل مكذب به ومفتر عليه، وعلى غير ذلك مما أراد وأحب، ولكنه تفضل بحلمه على خلقه فقال: (والله على كل شيء قدير)، يعني: من إهلاك قائلي ذلك، وتعجيل عقوبته لهم، وغير ذلك من الأمور. تفسير الطبري (٧/ ٤٧٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١٨١-١٨٩

١- اليهود من شرار الطوائف الكافرة، تجرؤوا على الله وعلى رسله وعلى ملائكته وعلى عباده المؤمنين، فيجب أن تبغضهم وتعاديهم وتتبرأ منهم (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق).

٢- أمسك عليك لسانك، واحذر من تفلّته، فهو الذي يوردك المهالك، واعلم أن أقوالك كلها مكتوبة، وستحاسب عليها (سنكتب ما قالوا).

٣- احذر التهاون بالذنوب والمعاصي، فإنها تجتمع على الشخص حتى تهلكه (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد).

٤- كثير من أهل الباطل يحتجون على تمسكهم بالباطل وتركهم للحق بادّعاءات كاذبة، يناقضها واقع أسلافهم، فاحرص على معرفة تاريخ الطوائف المنحرفة لإلزامهم بواقع أسلافهم (الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين).

٥- عند قيامك بواجب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعلم وحكمة ورفق لا تحزن أو تتراجع بسبب عدم قبول كثير من الناس للحق، وبعدهم عن الخير، فإن رسل الله جاؤوا أقوامهم بآيات ومعجزات وبينات وكتب فكذبهم الأكثرون (فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير).

٦- الموت حقيقة حتمية لا بد منها، وليست المصيبة أن تموت، لكن المصيبة أن تموت وأنت غافل عن طاعة الله، مقبل على معصية الله، معرض عن التوبة والاستغفار، واعلم أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فأكثر من ذكر الموت وزيارة القبور حتى يلين قلبك، وتستعدّ للقاء ربك (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة).

٧- الفوز الحقيقي، والراحة الكاملة، والسعادة التامة للمؤمن لا تتحقق إلا بدخول الجنة والنجاة من النار، فاعمل لإدراك هذا الفوز، واسأل الله دوما أن يعينك على تحقيقه، ولا تغترّ بالدنيا وزخرفها

وزينتها وجمالها وفتنتها، فإن فوزها ناقص، وراحتها مؤقّتة، وسعادتها فانية (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور).

٨- اعلم علما يقينيا أنك لا بد وأن تُبتلى في مالك وفي نفسك، بالتكاليف الشرعية تارة، وبالمصائب تارة، فاستعدّ لهذا البلاء بتعويد النفس على التحمّل والصبر والرضا بقضاء الله وقدره (لتبلون في أموالكم وأنفسكم).

٩- أعداء الدين لا يقصّرون في إسماعك ما يؤذيك في ربك ونبيك ودينك وكتابك، وفي نفسك وأهلك، فلا بد أن تصبر على أذاهم، وألّا تتزعزع أو تتشكّك في ثوابت دينك، ولتتّق الله حتى يجعل لك من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ومن كل بلاء عافية (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور).

١٠- احذر من كتمان شيء من العلم عند الحاجة إليه بخلا به، أو معاندة للحق وأهله، أو بحثا عن مال أو جاه أو منصب، كعادة أهل الكتاب من قبلنا، وليكن بيانك للعلم بحكمة وعقل، مع مراعاة المصالح والمفاسد في نشر العلم، وكن معزّزا للإيمان في نفوس الناس، مقويا لليقين في قلوبهم بما تنشره من العلم (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون).

١١- إياك إياك والفرح بارتكاب معصية، فإن ذلك قد يكون أعظم إثما من المعصية نفسها، بل كن وجلا خائفا من عاقبة المعصية ومغبّتها في الدنيا قبل الآخرة، وإياك إياك ومحبة المدح بطاعة لم تفعلها، أو نسبة عمل خير لنفسك وأنت لم تقم به، فإن ذلك سبب للفضيحة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم).

١٢- اسأل الله حاجاتك كلها مهما عظُمت أو صعُبت، واسأله وأنت موقن بالإجابة، فإنه سبحانه له ملك السماوات والأرض، وهو على كل شيء قدير (ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١٩٠-٢٠٠) من التفسير الميسّر

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)

إن في خلق السماوات والأرض على غير مثال سابق، وفي تعاقُب الليل والنهار، واختلافهما طولا وقِصَرًا لدلائل وبراهين عظيمة على وحدانية الله لأصحاب العقول السليمة.

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)

الذين يذكرون الله في جميع أحوالهم: قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، وهم يتدبرون في خلق السماوات والأرض، قائلين: يا ربنا ما أوجدت هذا الخلق عبثًا، فأنت منزَّه عن ذلك، فاصْرِف عنا عذاب النار.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢)

يا ربنا نجِّنا من النار، فإنك -يا ألله- مَن تُدخِلْه النار بذنوبه فقد فضحته وأهنته، وما للمذنبين الظالمين لأنفسهم من أحد يدفع عنهم عقاب الله يوم القيامة.

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)

يا ربنا إننا سمعنا مناديا -هو نبيك محمد صلى الله عليه وسلم- ينادي الناس للتصديق بك، والإقرار بوحدانيتك، والعمل بشرعك، فأجبنا دعوته وصدَّقنا رسالته، فاغفر لنا ذنوبنا، واستر عيوبنا، وألحقنا بالصالحين.

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)

يا ربنا أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من نصر وتمكين وتوفيق وهداية، ولا تفضحنا بذنوبنا يوم القيامة، فإنك كريم لا تُخْلف وعدًا وَعَدْتَ به عبادك.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)

فأجاب الله دعاءهم بأنه لا يضيع جهد مَن عمل منهم عملا صالحًا ذكرًا كان أو أنثى، وهم في أُخُوَّة الدين وقَبول الأعمال والجزاء عليها سواء، فالذين هاجروا رغبةً في رضا الله تعالى، وأُخرجوا من ديارهم،

وأوذوا في طاعة ربهم وعبادتهم إيّاه، وقاتلوا وقُتِلوا في سبيل الله لإعلاء كلمته، ليسترنَّ الله عليهم ما ارتكبوه من المعاصي، كما سترها عليهم في الدنيا، فلا يحاسبهم عليها، وليدخلنَّهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار جزاء من عند الله، والله عنده حسن الثواب.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦)

لا تغتر -أيها الرسول- بما عليه أهل الكفر بالله من بسطة في العيش، وسَعَة في الرزق، وانتقالهم من مكان إلى مكان للتجارات وطلب الأرباح والأموال، فعمَّا قليل يزول هذا كلُّه عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة.

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)

متاع قليل زائل، ثم يكون مصيرهم يوم القيامة إلى النار، وبئس الفراش.

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)

لكن الذين خافوا ربهم، وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، قد أعدَّ الله لهم جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، هي منزلهم الدائم لا يخرجون منه. وما عد الله أعظم وأفضل لأهل الطاعة مما يتقلب فيه الذين كفروا من نعيم الدنيا.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)

وإن بعضًا من أهل الكتاب لَيصدِّق بالله ربًّا واحدًا وإلهًا معبودًا، وبما أُنزِل إليكم من هذا القرآن، وبما أُنزِل إليهم من التوراة والإنجيل متذللين لله، خاضعين له، لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلا من حطام الدنيا، ولا يكتمون ما أنزل الله، ولا يحرفونه كغيرهم من أهل الكتاب. أولئك لهم ثواب عظيم عنده يوم يلقونه، فيوفيهم إياه غير منقوص. إنَّ الله سريع الحساب، لا يعجزه إحصاء أعمالهم، ومحاسبتهم عليها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه اصبروا على طاعة ربكم، وعلى ما ينزل بكم من ضر وبلاء، وصابروا أعداءكم حتى لا يكونوا أشد صبراً منكم، وأقيموا على جهاد عدوي وعدوكم، وخافوا الله في جميع أحوالكم؛ رجاء أن تفوزوا برضاه في الدنيا والآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١٩٠-٢٠٠)

الكلمة	المعنى
واختلافِ الليل والنهار	وتعاقُبِهما، واختلافهما طولا وقِصَرا
لأولي الالباب	لأصحاب العقول السليمة
وعلى جنوبِهم	ومُضطجعين
باطِلاً	عبَثا وسفَها بلا حكمة
سُبحانك	ننزّهك عمّا لا يليق بك
أخزَيْته	فضحْته وأَهَنته
ذُنُوبَنا	ما اقترفناه من الكبائر
وكفّر عنا	واستُر وامْحُ وتجاوز عنّا
سيئاتِنا	ما اقترفناه من الصغائر
وتَوفَّنا مع الأبرار	وألحِقنا بالصالحين في أعمالهم وثوابهم
بعضكم من بعض	كلّكم سواء في أصل الخلقة وفي الدين وفي الثواب
لا يَغُرَّنّك	لا يَخدعنّك، ولا يهُمّنّك
تقلّب الذين كفروا في البلاد	تنقّلهم في الأرض للتجارة، وتنعّمهم بالدنيا
وبئس المِهاد	وبئس الفِراش والمضجَع
نُزُلا من عند الله	ثوابًا وضيافة ومنزلا مُعَدّا لهم من الله
وصابِرُوا	وغَالبوا أعداءكم في الصبر حتى تكونوا أكثر صبرا منهم
ورابِطُوا	وداوِموا على جهاد أعداء الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١٩٠-٢٠٠

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية التسعين بعد المائة وحتى نهاية السورة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن اسم (إنّ) لم يأتِ بعد، (إنّ) لها اسمٌ وخبرٌ، اسمها في قوله (لآياتٍ لأولي الألباب) متأخر، وخبرها مقدمٌ في قوله (في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار).

الآية التي تليها: (الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الأخفش، وجعله الأنصاري صالحًا، والأشموني جائزًا على تقدير، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ومن نص على الوقف هنا جعل قوله (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) جملةً مستأنفةً، فالله سبحانه وتعالى وصف أولي الألباب بأنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ثم وصفهم بصفةٍ أخرى بجملةٍ مستأنفةٍ رتب عليها الدعاء الذي دعوه، وذلك أنهم لما تفكروا في خلق السماوات والأرض دعوا الله فقالوا (ربنا ما خلقت هذا) الخلق (باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار)، فصارت هذه الجملة جملةً مستأنفةً، وتحتمل أن تكون معطوفةً على (يذكرون) لكن العطف هنا ليس وثيق الصلة؛ لأن جملة (يتفكرون) ارتبط بها ما تعلق بها خاصةً، ولم يتعلق بالجملة الأولى التي هي (يذكرون الله)، وذلك في قوله (ربنا ما خلقت هذا باطلاً)، والإشارة في (هذا) إلى خلق السماوات والأرض، فصح الوقف هنا سواءً على اعتبار الجملة مستأنفةً أو معطوفةً على (يذكرون)، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن التقدير: قالوا ربنا ما خلقت هذا باطلاً أو: يقولون ربنا ما خلقت هذا باطلاً، فهم من صفتهم أنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض، كما أنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ثم بدأ بالأدعية التي دعوها، بدايتها من قولهم (ربنا ما خلقت هذا

باطلاً) ثم تتابعت الأدعية في الآيات التي تليها، فصح الوقف هنا للفصل بين وصفهم وبين أدعيتهم، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ربنا ما خلقت هذا باطلا)؟

جوز الوقف هنا السجاوندي، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، بل منع منه الأشموني، وعلل ذلك بأنه لاتحاد الكلام في تنزيه الباري، فهم لما تفكروا في خلق السماوات والأرض، نزهوا الله سبحانه وتعالى عن أن يكون خلق هذا الخلق عبثًا وسفهًا فقالوا: ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلاً (سبحانك)، يعني ننزهك عن ذلك، فـ (سبحانك) هنا متصلٌ في تنزيه الله سبحانه وتعالى، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (سبحانك)؟

نص على الوقف هنا الهبطي وحده دون غيره من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن التنزيه لله سبحانه وتعالى قد انتهى هنا، لكن الجملة التي تليها جاءت مبدوءةً بفاء في قوله (فقنا عذاب النار)، والفاء هنا لربط السبب بالمسبب، وهي -أي جملة (قنا عذاب النار)- معطوفة على جملة (ما خلقت هذا باطلاً)، فللعطف من ناحيةٍ، ولوجود الفاء الرابطة للسبب بالمسبب من ناحيةٍ أخرى، ولأن قولهم (ربنا ما خلقت هذا باطلاً) كان كالوسيلة لطلب الوقاية من عذاب النار، لم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الدعاء قد انتهى هنا، ثم أخبروا خبرًا بجملةٍ مستأنفةٍ مبدوءةٍ بالنفي في قولهم (وما للظالمين من أنصار) فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنهم هنا توسلوا إلى الله سبحانه وتعالى بأنهم آمنوا لما سمعوا المنادي ينادي للإيمان، فهذه وسيلةٌ بين يدي دعائهم، والدعاء هو (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) فلما كرر (ربنا) مرةً أخرى بين يدي الدعاء، وفصل بها بين الوسيلة والدعاء صح الفصل هنا، والله أعلم.

وإذا افترضنا في غير القرآن أنه لم يكرر لفظ (ربنا) فإنه لا يصح الفصل بين الوسيلة والدعاء، فلو قيل: ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا فاغفر لنا ذنوبنا، فإنه لا يصح الفصل، لكن لما كرر (ربنا) صح الفصل، والله أعلم.

ثم لا يصح الفصل بين الأدعية لارتباطها ببعضها ارتباطًا وثيقًا، وإن كانت كل جملةٍ منها مستقلةٌ بنفسها في الدعاء، فهم قالوا (فاغفر لنا ذنوبنا) أي: الكبائر، (وكفر عنا سيئاتنا) أي: الصغائر، (وتوفنا مع الأبرار) أي: ثبتنا على الإسلام حتى نموت عليه، فهذه الأدعية مرتبطة ببعضها؛ لأن مضمونها الثبات على الإسلام وطلب مغفرة الذنوب كبائرها وصغائرها، فلا فصل بينها، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) هل يصح الوقف هنا؟

جوّز الوقف هنا الأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن لفظ (ربنا) لم يتكرر في الجملة الثانية، وهذا يمنع من الوقف على قوله (على رسلك)، هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى الجملة الأولى تضمنت طلبًا دنيويًا وهو النصر والتمكين الذي وعدهم الله به على ألسنة الرسل، والجملة الثانية تضمنت طلبًا أخرويًا بألا يخزيهم يوم القيامة، وبهذه النظرة قد يصح الوقف هنا، لكن الوصل لا شك أنه أولى، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تخزنا يوم القيامة)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه: للابتداء بـ (إنّ) في قوله (إنك لا تخلف الميعاد)، لكن (إنّ) هنا استمرارٌ في الخطاب الموجه إلى الله سبحانه وتعالى، (آتنا)، (ولا تخزنا)، (إنك)، فهو تتمة كلامهم، وهي جملةٌ مرتبطةٌ أيضًا بما سبق في قوله (آتنا ما وعدتنا)، (إنك لا تخلف الميعاد)، فلهذا الارتباط الوثيق الوصل هنا أولى مراعاةً للناحية المعنوية، أما إذا نظرنا إلى الناحية اللفظية فإن (إنّ) يصح الابتداء بها عادةً، فيصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة السابقة قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً مستأنفةً بمبتدأ وخبر بكلامٍ مستقلٍ في قوله (بعضكم من بعض)، فـ (بعضكم) مبتدأ، (من بعض) في محل خبر، وتقدير الجملة: بعضكم من بعضٍ في المجازاة والأعمال، فكلكم متساوون مجتمعون لا فرق بينكم، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (بعضكم من بعض)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن هذه جملة كاملة في كلامٍ مستقلٍ، ثم جاء بعدها جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (فالذين هاجروا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

ثم لا وقف في قوله (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا)، لماذا؟

لأن المبتدأ في قوله (الذين هاجروا) لم يأت خبره بعد، وإنما عطف عليه ما بعده، وخبره في قوله (لأكفرن عنهم سيئاتهم)، ولا يصح الوقف أيضًا على قوله (لأكفرن عنهم سيئاتهم)؛ لأن تتمة جزائهم لم ينته بعد، فالله سبحانه وتعالى لا يكتفي للذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيله وقاتلوا وقتلوا أن يكفر عنهم سيئاتهم فقط، إنما تتمة الجزاء أن يدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار.

وهل يصح الوقف على قوله (ولأدخلنهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار)؟

جوز الوقف هنا السجاوندي والأنصاري دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء، بل منع منه الأشموني، ووجه ذلك أن قوله (ثوابًا من عند الله) يحتمل أن يكون حالاً، أو مفعولاً له، أو مصدرًا، يعني: أثابهم ثوابًا، أو مفعولاً منصوبًا بفعلٍ محذوف: أن يعطيهم ثوابًا، أو بدلاً من (جنات) على تضمين (ولأدخلنهم) معنى: ولأعطينهم ثوابًا من عند الله، وعلى جميع هذه الأوجه لا يصح الوقف، وبالتالي لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثوابًا من عند الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة في قوله (والله عنده حسن الثواب)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها لا وقف فيها، لأنها جملةٌ واحدةٌ (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد).

الآية التي تليها: (متاعٌ قليلٌ) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن تقدير الجملة: ذلك -يعني تقلب الذين كفروا في البلاد- متاعٌ قليلٌ، و (ثم) في قوله (ثم مأواهم جهنم) هي من قبيل عطف الجملة على الجملة، فتكون في حكم الاستئناف، فيصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثم مأواهم جهنم)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مبدوءة بـ (بئس) التي لها الصدارة في جملتها، ويصح الابتداء بها عادةً، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لأن (نزلاً من عند الله) حالٌ من (جنات)، وهذا هو الأقرب في إعرابها، وبالتالي لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (نزلاً من عند الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ذكر ثوابهم قد انتهى هنا، ثم بين بجملةٍ خبريةٍ أن ما عند الله خيرٌ للأبرار مما يكون للذين كفروا من متاع الدنيا، وهي جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (ما) الموصولة التي هي في محل رفع مبتدأ، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (خاشعين لله) حالٌ مما قبله، فهم يؤمنون خاشعين، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (خاشعين لله)؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجعله الأنصاري صالحًا، والأشموني حسنًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، بل منع منه السجاوندي، قال -يعني السجاوندي-: لأن (لا يشترون) حالٌ بعد حال، فالتقدير: خاشعين لله غير مشترين بآيات الله ثمنًا قليلاً، وعلى هذا التقدير لا وقف هنا، لكن الجملة تحتمل أن تكون صفةً أخرى لهم، وصفهم بها بجملةٍ مستقلةٍ، فالوقف له وجهٌ هنا، لكن الوصل أولى، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وذلك أن وصفهم -يعني مؤمني أهل الكتاب- قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ في بيان أجرهم عند الله سبحانه وتعالى، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أولئك لهم أجرهم عند ربهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة في قوله (إن الله سريع الحساب) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الداني، وجعله الأنصاري مفهومًا، والأشموني جائزًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (لعلكم تفلحون) هذا الترجي هل هو مرتبطٌ بآخر جملةٍ وهي (واتقوا الله)؟ أو مرتبطٌ بجميع ما قبلها أي (اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله)؟ فهل الفلاح مرتبطٌ بالصفات هذه كلها؟ أو بالتقوى فقط؟ لعل الأوجه والأقرب والله أعلم ارتباط الفلاح بالصفات كلها، وبالتالي لا وقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، وهو ختام هذه السورة، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١٩٠-٢٠٠

(إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب):

قال ابن كثير: ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فقال البخاري، رحمه الله:... عن ابن عباس قال: بتّ عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب} ثم قام فتوضأ واستن، فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح...

وعن ابن عباس: أنه بات عند ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وهي خالته، قال: فاضطجعت في عرض الوسادة، واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله في طولها، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا انتصف الليل -أو قبله بقليل، أو بعده بقليل -استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من منامه، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران... تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٧).

وقال ابن كثير: قال ابن عمير لعائشة: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت وقالت: كل أمره كان عجبا، أتاني في ليلتي حتى مسّ جلده جلدي، ثم قال: (ذريني أتعبد لربي عز وجل)، قالت: فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله، ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: (ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ في هذه الليلة: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب})، ثم قال: (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)... وعن عبد الرحمن بن سليمان قال: سألت الأوزاعي عن أدنى ما يتعلق به المتعلق من الفكر فيهن وما ينجيه من هذا الويل؟ فأطرق هنية ثم قال: يقرؤهن وهو يعقلهن. تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٩-١٩٠).

وقال ابن جماعة: قوله تعالى: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات)
وفي يونس: (إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات).
قدم هنا خلق السماوات، وأخر عنه في يونس؟
جوابه: لما قال هنا (ولله ملك السماوات والأرض) أتبعه بخلقها، ثم بـ: (اختلاف الليل والنهار).
وفي يونس لما قال: (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) إلى قوله: (لتعلموا عدد السنين والحساب)، وإنما ذلك باختلافهما: ناسب ذلك إتباعه بذكر اختلاف الليل والنهار. كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١٣٥).

وقال زكريا الأنصاري: قوله تعالى: (إن في خلق السموات والأرض) خصهما بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات، وجمع السماء دون الأرض، للانتفاع بجميع آحادها، باعتبار ما فيها من نور كواكبها وغيره، بخلاف الأرض إنما ينتفع بواحدة من آحادها، وهي ما نشاهدها منها. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٤٨).

وقال السعدي: وأبهم قوله: {آيات} ولم يقل: على المطلب الفلاني إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه، وشمول قدرته. وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها، وسعة علمه. وما فيها من المنافع للخلق، يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.
وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وألا يشرك به سواه، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وخص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم. تفسير السعدي (ص: ١٦١).

(الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم):

قال البغوي: قال علي بن أبي طالب وابن عباس والنخعي وقتادة: هذا في الصلاة، يصلي قائما، فإن لم يستطع فقاعدا، فإن لم يستطع فعلى جنب... وعن عمران بن حصين قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة المريض، فقال: «صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب».

وقال سائر المفسرين: أراد به المداومة على الذكر في عموم الأحوال؛ لأن الإنسان قل ما يخلو من إحدى هذه الحالات الثلاث، نظيره في سورة النساء (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم). تفسير البغوي (١/ ٥٥٥-٥٥٦).

وقال ابن القيم: ومن محبته للثناء عليه بأوصاف كماله ونعوت جلاله أنه أمر من ذكره بما لم يأمر به في غيره، فقال تعالى {واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون}، فعلق الفلاح بكثرة ذكره، وقال {الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم}، فعم بذكره أحوال العباد كلها؛ لأن العبد إما أن يكون قائما أو قاعدا أو مضطجعا، فأراد منه ذكره في هذه الأحوال كلها، وأخبر أنه من ألهاه ماله وولده عن ذكره فهو خاسر، فقال {يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون}، وأمر بذكره في أعظم المواطن التي يذهل الإنسان فيها عن نفسه، وهي حاله عند ملاقاة عدوه، فقال تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون}، وفي الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه). وجعل سبحانه ذكره سببا لصلاته على عبده وذكره له فقال تعالى {يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما}، وقال تعالى {فاذكروني أذكركم}، وجعل ترك ذكره والثناء عليه سببا لنسيانه لعبده وإنسائه نفسه، فلا يلهمه مصالحه، ولا يوفقه لإرادتها وطلبها، فقال تعالى {نسوا الله فنسيهم}، وقال تعالى {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم}، فلما نسوا ذكره والثناء عليه وتحميده وتمجيده نسيهم من رحمته، وأنساهم مصالح نفوسهم فلم يعرفوها ولم يطلبوها، بل تركوها مهملة معطلة مع نقصها وعيوبها. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٤٨٠-١٤٨١).

(ويتفكرون في خلق السماوات والأرض):

قال ابن تيمية: كان الذكر متعلقا بالله لأنه سبحانه هو الحق المعلوم، وكان التفكر في مخلوقاته كما قال الله تعالى: {الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض}. وقد جاء في الأثر: (تفكروا في المخلوق، ولا تتفكروا في الخالق)؛ لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس، وذلك يكون في الأمور المتشابهة، وهي المخلوقات. وأما الخالق جل جلاله سبحانه وتعالى فليس له شبيه ولا نظير، فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه، وإنما هو معلوم بالفطرة، فيذكره العبد.

وبالذكر وبما أخبر به عن نفسه: يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة؛ لا تنال بمجرد التفكير والتقدير، أعني من العلم به نفسه، فإنه الذي لا تفكير فيه. فأما العلم بمعاني ما أخبر به ونحو ذلك: فيدخل فيها التفكير والتقدير، كما جاء به الكتاب والسنة، ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر، ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق. وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك، وكثير من أرباب النظر والكلام يأمرون بالتفكر والنظر ويجعلون ذلك هو الطريق إلى معرفة الحق، والنظر صحيح إذا كان في حق ودليل كما تقدم، فكل من الطريقين فيها حق لكن يحتاج إلى الحق الذي في الأخرى، ويجب تنزيه كل منهما عما دخل فيها من الباطل، وذلك كله باتباع ما جاء به المرسلون. مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩-٤٠).

وقال ابن كثير: وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: {وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون. وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} ومدح عباده المؤمنين: {الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض}. تفسير ابن كثير (٢/ ١٨).

وقال ابن كثير: قال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة، أو لي فيه عبرة...

وعن الحسن البصري أنه قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وقال الفضيل: قال الحسن: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

وقال سفيان بن عيينة: الفكرة نور يدخل قلبك. وربما تمثل بهذا البيت:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة ...

وعن عيسى، عليه السلام، أنه قال: طوبى لمن كان قيله تذكرا، وصمته تفكرا، ونظره عِبرا.

وقال لقمان الحكيم: إن طول الوِحدة ألهم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طَرق باب الجنة.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله عز وجل حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة...

وعن ابن عباس أنه قال: ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة والقلب ساه.

وقال الحسن: يا ابن آدم، كل في ثلث بطنك، واشرب في ثلثه، ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة.

وقال بشر بن الحارث الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه.

وقال الحسن، عن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: إن ضياء الإيمان، أو نور الإيمان، التفكر...

وقال ابن أبي الدنيا: أنشدني الحسين بن عبد الرحمن:

نزهة المؤمن الفِكَر ... لذة المؤمن العِبَر ...

نحمد الله وحده ... نحن كل على خَطَر ...

رُبّ لاهٍ وعمرُه ... قد تقضّى وما شعر ...

رُبّ عيش قد كان فو ... ق المنى مُونِق الزهَر ...

في خرير من العيو ... ن وظل من الشجر ...

وسرور من النبا ... ت وطِيب من الثمر ...

غيّرته وأهلَه ... سرعة الدهر بالغيَر

نحمد الله وحده ... إن في ذا لمعتبَر ...

إن في ذا لعبرةً ... للبيب إن اعتبر. تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٤-١٨٦).

(سبحانك فقنا عذاب النار):

قال ابن القيم: وقد أثنى الله تعالى على خاصته، وهم أولو الألباب، بأنهم سألوه أن يقيهم عذاب النار، فقالوا: {ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة: «لو سألت الله أن يجيرك من عذاب النار لكان خيرا لك»، وكان يستعيذ كثيرا من عذاب النار. ومن عذاب القبر، وأمر المسلمين أن يستعيذوا في تشهدهم من عذاب القبر، وعذاب النار، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٤٨-٤٩).

(ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته):

عن يزيد الفقير، قال: كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحج، ثم نخرج على الناس، قال: فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبد الله يحدّث القوم، جالس إلى سارية، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فإذا هو قد ذكر الجهنميين، قال: فقلت له: يا صاحب رسول الله، ما هذا الذي تحدثون؟ والله يقول: {إنك من تدخل النار فقد أخزيته}، و {كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها}، فما هذا الذي تقولون؟ قال: فقال: «أتقرأ القرآن؟» قلت: نعم، قال: «فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام - يعني الذي يبعثه الله فيه -؟» قلت: نعم، قال: «فإنه مقام محمد صلى الله عليه وسلم المحمود الذي يُخرج الله به من يُخرج»، قال: ثم نعت وضع الصراط، ومر الناس عليه، - قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك - قال: غير أنه قد زعم أن قوما يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها، قال: - يعني - فيخرجون كأنهم عيدان السماسم، قال: «فيدخلون نهرا من أنهار الجنة، فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنهم القراطيس»، فرجعنا قلنا: ويحكم أترون الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فرجعنا، فلا والله ما خرج منا غير رجل واحد. صحيح مسلم (١/ ١٧٩).

(وما للظالمين من أنصار):

قال زكريا الأنصاري: المراد بالظالمين هنا المشركون، بقرينة ما قبله، إذ الظالمون من المسلمين لهم ناصر، وهو النبي صلى الله عليه وسلم لشفاعته لهم يوم القيامة. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١٤٧).

(ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا):

قال البغوي: (ربنا إننا سمعنا مناديا) يعني: محمدا صلى الله عليه وسلم، قاله ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وأكثر المفسرين، وقال القرظي: يعني القرآن، فليس كل أحد يلقى النبي صلى الله عليه وسلم. تفسير البغوي (١/ ٥٥٧).

وقال ابن تيمية: من قال: أسألك بإيماني بك وبرسولك ونحو ذلك، أو بإيماني برسولك ومحبتي له ونحو ذلك، فقد أحسن في ذلك، كما قال تعالى في دعاء المؤمنين: {ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار}، وقال تعالى: {الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار}، وقال تعالى: {إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين}، وقال تعالى: {ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين} . وكان ابن مسعود يقول: اللهم أمرتني فأطعت، ودعوتني فأجبت، وهذا سحر فاغفر لي. ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر فأووا إلى الغار وانطبقت عليهم الصخرة ثم دعوا الله سبحانه بأعمالهم الصالحة ففرّج عنهم، وهو ما ثبت في الصحيحين. مجموع الفتاوى (١/ ٣٤٢-٣٤٣).

(ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار):

قال ابن القيم: الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب:

وقد جاء في كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين، وذكر كل منهما منفردا عن الآخر، فالمقترنان كقوله تعالى حاكيا عن عباده المؤمنين {ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار}، والمنفرد كقوله:

{والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم}، وقوله في المغفرة {ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم}، وكقوله: {ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا}، ونظائره.

فهاهنا أربعة أمور: ذنوب، وسيئات، ومغفرة، وتكفير.

فالذنوب: المراد بها الكبائر، والمراد بالسيئات: الصغائر، وهي ما تعمل فيه الكفارة من الخطأ وما جرى مجراه، ولهذا جعل لها التكفير، ومنه أخذت الكفارة، ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل في الكبائر في أصح القولين، فلا تعمل في قتل العمد، ولا في اليمين الغموس، في ظاهر مذهب أحمد وأبي حنيفة.

والدليل على أن السيئات هي الصغائر، والتكفير لها، قوله تعالى {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما}، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

ولفظ المغفرة أكمل من لفظ التكفير، ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر، فإن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ التكفير يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد يدخل كل منهما في الآخر كما تقدم، فقوله تعالى {كفر عنهم سيئاتهم} يتناول صغائرها وكبائرها، ومحوها ووقاية شرها، بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال، كما قال تعالى {ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا}.

وإذا فهم هذا فهم السر في الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة، كقوله في الحديث الصحيح «ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياه» فإن المصائب لا تستقلّ بمغفرة الذنوب، ولا تُغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب، فهي كالبحر لا يتغير بالجيف، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٣١٧-٣١٩).

وقال ابن القيم: لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله، وأنه لا يبعثهم للثواب والعقاب، كان هذا الزعم منهم قولا بأن خلق السموات والأرض باطل، فقال تعالى: {وما خلقنا

السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار}، فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولا، ولم يجعل لهم أجلا للقائه، كان ذلك ظنا منهم أنه خلق خلقه باطلا.

ولهذا أثنى تعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته، بأن أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقها باطلا، وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فذكروا في دعائهم هذين الأمرين فقالوا {ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار}، فلما علموا أن خلق السماوات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعوذوا بالله من عقابه، ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السماوات والأرض، فقالوا {ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا} فكانت ثمرة فكرهم في خلق السماوات والأرض الإقرار به تعالى وبوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم إلى مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم وإدخالهم مع الأبرار إلى جنته التي وعدهموها، وذلك تمام نعمته عليهم، فتوسلوا بإنعامه عليهم أولا إلى إنعامه عليهم آخرا، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته. بدائع الفوائد (٤/ ١٦٦).

وقال السعدي: {وتوفنا مع الأبرار} يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى الممات. تفسير السعدي (ص: ١٦١).

(ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة):

قال البغوي: فإن قيل: ما وجه قولهم: (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك)، وقد علموا أن الله لا يخلف الميعاد؟

قيل: لفظه دعاء ومعناه الخبر، أي: لتؤتينا ما وعدتنا على رسلك، تقديره: فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ولا تخزنا يوم القيامة، لتؤتينا ما وعدتنا على رسلك من الفضل والرحمة.

وقيل: معناه: ربنا واجعلنا ممن يستحقون ثوابك، وتؤتيهم ما وعدتهم على ألسنة رسلك؛ لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة، فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها.

وقيل: إنما سألوه تعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء، قالوا: قد علمنا أنك لا تخلف وعدك من النصر، ولكن لا صبر لنا على حلمك، فعجّل خزيهم وانصرنا عليهم. تفسير البغوي (١/ ٥٥٧).

وقال ابن القيم: الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته وألا يسلبه. والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله... فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم، وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: {ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا} فهذا الطلب لدفع الشر الموجود، فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه، ثم قال: {وتوفنا مع الأبرار} فهذا طلب لدوام الخير الموجود، وهو الإيمان، حتى يتوفاهم عليه، فهذان قسمان، ثم قال: {ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك} فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه، ثم قال: {ولا تخزنا يوم القيامة} فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم، وهو خزي يوم القيامة، فانتظمت الآيتان للمطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا، وهما: المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت، ثم أتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة، وهما: أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة. بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٨).

(إنك لا تخلف الميعاد):

قال برهان الدين الكرماني: قوله تعالى {إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد} أول السورة، وفي آخرها {إنك لا تخلف الميعاد} . فعدل من الخطاب إلى لفظ الغيبة في أول السورة، واستمر على الخطاب في آخرها، لأن ما في أول السورة لا يتصل بالكلام الأول كاتصال ما في آخرها، فإن اتصال قوله تعالى {إن الله لا يخلف الميعاد} بقوله {إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه} معنوي، واتصال قوله {إنك لا تخلف الميعاد} بقوله {ربنا وآتنا ما وعدتنا} لفظي ومعنوي جميعا، لتقدم لفظ الوعد. ويجوز أن يكون الأول استئنافا، والآخر من تمام الكلام. أسرار التكرار في القرآن (ص: ٨٨).

(فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى):

سبب النزول: عن أم سلمة، قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة. فأنزل الله تعالى: {فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض}. سنن الترمذي (٥/ ٨٧).

عن قتادة قال: المؤمنون هم العجاجون بالليل والنهار، والله ما زالوا يقولون: ربنا ربنا حتى استجيب لهم. تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١١١٧).

(فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم...):

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول ثلة تدخل الجنة لَفقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، إذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجةٌ إلى السلطان، لم تُقض حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وقتلوا، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة، فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار، ونقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب جل ثناؤه: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي. فتدخل الملائكة عليهم من كل باب: (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار). تفسير الطبري (٧/ ٤٩١)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٨١).

قال ابن كثير: {وأخرجوا من ديارهم} أي: ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: {وأوذوا في سبيلي} أي: إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: {يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم}، وقال تعالى: {وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد}.

وقوله: {وقاتلوا وقتلوا} وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله، فيعقر جواده، ويعفر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت في الصحيح أن رجلا قال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا

مقبلا غير مدبر، أيكفر الله عني خطاياي؟ قال: (نعم)، ثم قال: (كيف قلت؟): فأعاد عليه ما قال، فقال: (نعم، إلا الدين، قاله لي جبريل آنفا). تفسير ابن كثير (٢/ ١٩١).

(ثوابا من عند الله):

قال ابن كثير: أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلا كثيرا، كما قال الشاعر: إن يعذّب يكن غراما وإن يعـ ... طِ جزيلا فإنه لا يبالي ... تفسير ابن كثير (٢/ ١٩١).

(لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد):

قال ابن كثير: يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه، من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمُد لهم فيما هم فيه استدراجا، وجميع ما هم فيه {متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد}. وهذه الآية كقوله تعالى: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد}، وقال تعالى: {إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون}، وقال تعالى: {نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ}. تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٢).

وقال ابن جماعة: قوله تعالى هنا: (ثم مأواهم جهنم) بثم. وفي غيره: (ومأواهم جهنم) بالواو؟

جوابه: لما تقدم قوله تعالى: تقلبهم في البلاد و (متاع قليل)، والمراد في الدنيا، وجهنم إنما هي في الآخرة، فناسب: (ثم) التي للتراخي. وآية الرعد: عطف جهنم على (سوء الحساب)، وهما جميعا في الآخرة، فناسب العطف بالواو. كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١٣٦).

(لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها):

قال السعدي: وأما المتقون لربهم، المؤمنون به- فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها {لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها}. فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كلُ بؤس وشدة، وعناء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة نزرا يسيرا،

ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى: {وما عند الله خير للأبرار} وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من بره أجرا عظيما، وعطاء جسيما، وفوزا دائما. تفسير السعدي (ص: ١٦٢).

(وما عند الله خير للأبرار):

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جئت النبي صلى الله عليه وسلم وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظا مصبوبا، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: «ما يبكيك؟» فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة». صحيح البخاري (٦/ ١٥٧)، صحيح مسلم (٢/ ١١٠٩).

عن عبد الله بن مسعود قال: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها، ثم قرأ عبد الله: (وما عند الله خير للأبرار)، وقرأ هذه الآية: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم). تفسير الطبري (٧/ ٤٩٥).

وعن ابن عمر، قال: إنما سماهم الله أبرارا، لأنهم بروا الآباء والأبناء، كما أن لوالدك عليك حقا، كذلك لولدك عليك حقا...

وعن الحسن، قال: {للأبرار}: الذين لا يؤذون الذر. تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٦).

(وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله):

عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران). صحيح البخاري (١/ ٣١)، صحيح مسلم (١/ ١٣٤).

قال ابن تيمية: قال بعض المفسرين: إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه، كما نقل عن ابن جريج ومقاتل وابن زيد، يعني: قوله: {وإن من أهل الكتاب}.

وبعضهم قال: إنها في مؤمني أهل الكتاب، فهو كالقول الأول، وإن أراد العموم فهو كالثاني. وهذا قول مجاهد ورواه أبو صالح عن ابن عباس.

وقول من أدخل فيها ابن سلام وأمثاله ضعيف؛ فإن هؤلاء من المؤمنين ظاهرا وباطنا من كل وجه، لا يجوز أن يقال فيهم: {وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب}.

أما أولا: فإن ابن سلام أسلم في أول ما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وقال: فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وسورة آل عمران إنما نزل ذكر أهل الكتاب فيها لما قدم وفد نجران سنة تسع أو عشر.

وثانيا: أن ابن سلام وأمثاله هو واحد من جملة الصحابة والمؤمنين، وهو من أفضلهم، وكذلك سلمان الفارسي، فلا يقال فيه: إنه من أهل الكتاب، وهؤلاء لهم أجور مثل أجور سائر المؤمنين، بل يؤتون أجرهم مرتين، وهم ملتزمون جميع شرائع الإسلام، فأجرهم أعظم من أن يقال فيه: {أولئك لهم أجرهم عند ربهم}.

وأيضا: فإن أمر هؤلاء كان ظاهرا معروفا، ولم يكن أحد يشك فيهم، فأي فائدة في الإخبار بهم؟ وما هذا إلا كما يقال: الإسلام دخل فيه من كان مشركا أو كان كتابيا، وهذا معلوم لكل أحد بأنه دين لم يعرف قبل محمد صلى الله عليه وسلم، فكل من دخل فيه كان قبل ذلك إما مشركا وإما من أهل الكتاب، إما كتابيا وإما أميا، فأي فائدة في الإخبار بهذا؟ بخلاف أمر النجاشي وأصحابه ممن كانوا متظاهرين بكثير مما عليه النصارى؛ فإن أمرهم قد يشتبه، ولهذا ذَكروا في سبب نزول هذه الآية: أنه لما مات النجاشي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال قائل: تصلي على هذا العلج النصراني وهو في أرضه؟ فنزلت هذه الآية. هذا منقول عن جابر وأنس بن مالك وابن عباس، وهم من الصحابة الذين باشروا الصلاة على النجاشي، وهذا بخلاف ابن سلام وسلمان الفارسي؛ فإنه إذا صلى على واحد من هؤلاء لم ينكر ذلك أحد. مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٢١-٢٢٣).

وقال ابن تيمية: ولا يقول أحد: إن اليهود والنصارى بعد إسلامهم وهجرتهم ودخولهم في جملة المسلمين المهاجرين المجاهدين، يقال: إنهم من أهل الكتاب، كما لا يقال عن الصحابة الذين كانوا مشركين: وإن من المشركين لمن يؤمن بالله ورسوله، فإنهم بعد الإيمان ما بقوا يسمون مشركين ؛ فدل على أن هؤلاء قوم من أهل الكتاب، أي من جملتهم، وقد آمنوا بالرسول. منهاج السنة النبوية (٥/ ١١٥).

وقال السعدي: وإن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون بالله، ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وهذا الإيمان النافع، لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب، ويكفر ببعض. ولهذا -لما كان إيمانهم عاما حقيقيا- صار نافعا، فأحدث لهم خشية الله، وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده. تفسير السعدي (ص: ١٦٢).

(لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا):

قال السعدي: من تمام خشيتهم لله، أنهم {لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا}، فلا يقدمون الدنيا على الدين، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمنا قليلا، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران، الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو: أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فآثروا الحق وبينوه، ودعوا إليه، وحذروا من الباطل. تفسير السعدي (ص: ١٦٢).

(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا):

عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب، فذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: (أما بعد، فإنه مهما نزل بعبد مؤمن من منزلة شدة، يجعل الله بعدها فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله يقول في كتابه: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون). تفسير الطبري (٧/ ٥٠٣).

عن الحسن في قول الله: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا): قال: أمرهم أن يصبروا على دينهم، ولا يدعوه لشدة ولا رخاء ولا سراء ولا ضراء، وأمرهم أن يصابروا الكفار، وأن يرابطوا المشركين. تفسير الطبري (٧/ ٥٠٢).

قال الطبري: (وصابروا) يعني: وصابروا أعداءكم من المشركين. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن المعروف من كلام العرب في المفاعلة أن تكون من فريقين، أو اثنين فصاعدا، ولا تكون من واحد إلا قليلا في أحرف معدودة. فإذ كان ذلك كذلك، فإنما أُمر المؤمنون أن يصابروا غيرهم من أعدائهم، حتى يظفرهم الله بهم، ويعلي كلمته، ويخزي أعداءهم، وألا يكون عدوهم أصبر منهم. تفسير الطبري (٧/ ٥٠٨).

وقال البغوي: والربط الشد، وأصل الرباط أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم، ثم قيل ذلك لكل مقيم في ثغر يدفع عمن وراءه، وإن لم يكن له مركب... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، ولروحة يروحها العبد في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما عليها»... وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رابط يوما وليلة في سبيل الله كان له أجر صيام شهر مقيم، ومن مات مرابطا جرى له مثل ذلك الأجر، وأجري عليه الرزق، وأمن من الفتان».
وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم غزو يرابط فيه، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة، ودليل هذا التأويل ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط». تفسير البغوي (١/ ٥٦٠-٥٦١).

وقال ابن القيم: علم عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: {ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون}، ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة، فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو، وهو مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهي المرابطة، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلي مكانها فيصادف العدو الثغر خاليا فيدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر. الداء والدواء (ص: ٩٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١٩٠-٢٠٠

١- اقرأ هذه الآيات بتعقّل وتفكّر وتدبّر، لتكون نورا لك في سيرك إلى الله والدار الآخرة، فإن فيها من الدعوات والعِبر والعِظات ما يوقظ قلبك، ويزيد إيمانك، وينهض بعزيمتك للطاعات، واقرأهن إذا قمت من نومك لقيام الليل اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب).

٢- داوِم على ذكر الله تعالى في كل أحوالك، صباحا ومساء، وعند النوم، وأدبار الصلوات، بل اجعل لسانك رطبا بذكر الله، حتى تكون من أولي الألباب الذين يغتنمون أوقاتهم في أعظم الطاعات وأجلّ القربات (لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم).

٣- أكثر من التفكّر في مخلوقات الله من حولك، ومن أعظمها السماوات والأرض، وما فيهما من الأسرار، وما تضمناه من عجائب قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته، حتى يزيد إيمانك بالله، ويقينك بعظمته وجلاله، وخضوعك لكبريائه (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض).

٤- أكثر من الدعاء بما ورد في هذه الآيات من دعوات أولي الألباب، وخلاصتها: أن تقدّم بين يدي دعائك الثناء على الله بأسمائه وصفاته وأفعاله (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك)، والتوسل إليه بإيمانك وأعمالك الصالحة (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا)، وتسأله سبحانه أن يقيك عذاب النار، ويغفر ذنوبك، ويكفر سيئاتك، ويتوفاك مع الأبرار، ويؤتيك ما وعدك به على ألسنة الرسل من النصر والتمكين في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة، وألّا يخزيك يوم القيامة، فتكون بهذا قد طلبت حصول كل خير ودفع كل شر في الدنيا والآخرة، وأبشر برب كريم يعطيك سؤلك ويستجيب دعاءك (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار * ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار * ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * فاستجاب لهم ربهم).

٥- إذا تتابعت عليك الهموم، وتوالت عليك المصائب، وتسلّط عليك الأعداء، وأوذيت بسبب تمسّكك بدينك فلا تحزن، واصبر وصابر ورابط واتق الله، وأبشر بتكفير السيئات التي أثقلت

ظهرك، وبدخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار حيث تنسى كل هم ومصيبة بمجرد غمسة واحدة في نعيمها، وأبشر بثواب عظيم من عند الله يتضاعف بقدر مصابك وصبرك (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب)، (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون).

٦- لا تغترّ بنعيم الكفار في الدنيا، وتمتّعهم بزخرفها، وانغماسهم في زهرتها، فما هو إلا متاع قليل زائل، يعقبه عذاب أليم دائم، وفي المقابل فإن لك بإيمانك يوم القيامة متاعا عظيما باقيا، أعدّه الله لك، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد * لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار).

٧- لا يكن قصدك من حفظ القرآن ومدارسته تحقيق مكسب دنيوي، من مال أو منصب أو سمعة أو جاه، فيحبط عملك وتكون من الخاسرين، بل اجعله خالصا لله، لتنال الأجر عند الله سبحانه (لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (١-١٠) من التفسير الميسّر

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

يا أيها الناس خافوا الله والتزموا أوامره، واجتنبوا نواهيه؛ فهو الذي خلقكم من نفس واحدة هي آدم عليه السلام، وخلق منها زوجها وهي حواء، ونشر منهما في أنحاء الأرض رجالا كثيرًا ونساء كثيرات، وراقبوا الله الذي يَسْأل به بعضكم بعضًا، واحذروا أن تقطعوا أرحامكم. إن الله مراقب لجميع أحوالكم.

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)

وأعطوا مَن مات آباؤهم وهم دون البلوغ، -وكنتم عليهم أوصياء- أموالهم إذا وصلوا سن البلوغ، ورأيتم منهم قدرة على حفظ أموالهم، ولا تأخذوا الجيِّد من أموالهم، وتجعلوا مكانه الرديء من أموالكم، ولا تخلطوا أموالهم بأموالكم؛ لتحتالوا بذلك على أكل أموالهم. إن من تجرأ على ذلك فقد ارتكب إثمًا عظيمًا.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣)

وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت أيديكم بأن لا تعطوهن مهورهن كغيرهن، فاتركوهن وانكحوا ما طاب لكم من النساء من غيرهن: اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا، فإن خشيتم ألا تعدلوا بينهن فاكتفوا بواحدة، أو بما عندكم من الإماء. ذلك الذي شرعته لكم في اليتيمات والزواج من واحدة إلى أربع، أو الاقتصار على واحدة أو ملك اليمين، أقرب إلى عدم الجَوْرِ والتعدي.

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤)

وأعطوا -أيها الأزواج- النساء مهورهن، عطية واجبة وفريضة لازمة عن طيب نفس منكم. فإن طابت أنفسهن لكم عن شيء من المهر فوهَبْنه لكم فخذوه، وتصرَّفوا فيه، فهو حلال طيب.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥)

ولا تؤتوا -أيها الأولياء- من يُبَذِّر من الرجال والنساء والصبيان أموالهم التي تحت أيديكم فيضعوها في غير وجهها، فهذه الأموال هي التي عليها قيام حياة الناس، وأنفقوا عليهم منها واكسوهم، وقولوا لهم قولا معروفًا من الكلام الطيب والخلق الحسن.

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا (٦)

واختبروا مَن تحت أيديكم من اليتامى لمعرفة قدرتهم على حسن التصرف في أموالهم، حتى إذا وصلوا إلى سن البلوغ، وعَلمتم منهم صلاحًا في دينهم، وقدرة على حفظ أموالهم، فسلِّموها لهم، ولا تعتدوا عليها بإنفاقها في غير موضعها إسرافًا ومبادرة لأكلها قبل أن يأخذوها منكم. ومَن كان صاحب مال منكم فليستعفف بغناه، ولا يأخذ من مال اليتيم شيئًا، ومن كان فقيرًا فليأخذ بقدر حاجته عند الضرورة. فإذا علمتم أنهم قادرون على حفظ أموالهم بعد بلوغهم الحُلُم وسلمتموها إليهم، فأَشْهِدوا عليهم؛ ضمانًا لوصول حقهم كاملا إليهم؛ لئلا ينكروا ذلك. ويكفيكم أن الله شاهد عليكم، ومحاسب لكم على ما فعلتم.

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧)

للذكور -صغارًا أو كبارًا- نصيب شرعه الله فيما تركه الوالدان والأقربون من المال، قليلا كان أو كثيرًا، في أنصبة محددة واضحة فرضها الله عز وجل لهؤلاء، وللنساء كذلك.

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)

وإذا حضر قسمةَ الميراث أقاربُ الميت ممن لا حقَّ لهم في التركة، أو حضرها من مات آباؤهم وهم صغار دون سن البلوغ، أو مَن لا يملكون ما يكفيهم ويسد حاجتهم فأعطوهم شيئًا من المال على وجه الاستحباب قبل تقسيم التركة على أصحابها، وقولوا لهم قولا حسنًا غير فاحش ولا قبيح.

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)

ولْيَخَفِ الذين لو ماتوا وتركوا من خلفهم أبناء صغارًا ضعافًا خافوا عليهم الظلم والضياع، فليراقبوا الله فيمن تحت أيديهم من اليتامى وغيرهم، وذلك بحفظ أموالهم، وحسن تربيتهم، ودَفْع الأذى عنهم، وليقولوا لهم قولا موافقا للعدل والمعروف.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)

إن الذين يعْتَدون على أموال اليتامى، فيأخذونها بغير حق، إنما يأكلون نارًا تتأجّج في بطونهم يوم القيامة، وسيدخلون نارا يقاسون حرَّها.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (١-١٠)

الكلمة	المعنى
من نفس واحدة	من آدم عليه السلام
زوجها	حواء
وبثّ منهما	ونَشَرَ منهما بالتناسُل
تساءلون به	يسأل بعضكم بعضا به
رَقِيبا	مُراقبا لأعمالكم
حُوبًا كبيرًا	إثمًا عظيمًا
ألّا تُقسِطوا في اليتامى	ألّا تعدلوا في نكاح اليتامى بأن تعطوهن مهورا أقل من غيرهن
ما ملَكت أيْمانُكم	الإماء اللاتي تملكونهن
أدنى ألّا تعُولُوا	أقرب إلى عدم الجور والظلم
صدُقاتِهنّ	مهورَهنّ
نِحلَة	عطية واجبة بطِيب نفْس
طِبن لكم عن شيء منه نفْسًا	تنازلن عن بعضه لكم
هنيئا مَرِيئًا	حلالا طيبا سائغًا
السُّفهاء	الذين لا يُحسنون التصرّف في المال
قِيامًا	تقوم به حياتكم
وابتَلُوا	واختَبِروا
بلغُوا النكاح	وصلوا سنّ البلوغ
آنَسْتُم	علمتم
رُشْدًا	حسن تصرّف في الأموال
وبِدَارًا أن يكبَروا	ومبادرة لأكلها قبل أن يكبروا فيأخذوها منكم
فلْيَسْتعفِف	فليمتنع عن الأكل من مال اليتيم
حسِيبًا	محاسبا لعباده وشاهدا على أعمالهم
نصيبا مفروضا	مقدارا محددا واجبا

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ١-١٠

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية الأولى وحتى الآية العاشرة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني وقال: لاتّساق ما بعده على ما قبله، وذلك أن قوله (وخلق منها زوجها) تقديره: اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ، والذي خلق منها زوجها، والذي بث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً، فالله سبحانه وتعالى أمرنا بالتقوى لأنه خلقنا من نفسٍ واحدةٍ، وخلق من هذه النفس الواحدة زوجها، وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً، فهذا مقتضى وسبب طلب التقوى، فلذلك لم يصح الوقف على شيءٍ من هذا إلا على قوله (رجالاً كثيرًا ونساءً)، حيث نص على الوقف هنا عامة علماء والوقف والابتداء، ويصح الوقف هنا لأنه جاء بعده قوله (واتقوا الله)، فتكرر فعل الأمر وارتبط به شيءٌ آخر، فقال في البداية (اتقوا ربكم الذي خلقكم)، ثم قال (واتقوا الله الذي تساءلون به)، فصح الفصل بين الجملتين، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (واتقوا الله الذي تساءلون به)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (والأرحام) معطوفٌ على اسم الجلالة (الله) على قراءة الجمهور، وهي قراءة النصب، فتقدير الجملة: واتقوا الله الذي تساءلون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (والأرحام)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة مبدوءة بـ(إنّ) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وآتوا اليتامى أموالهم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوّزه الأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن هذه الجملة، أعني (وآتوا اليتامى أموالهم) جملة أمرٍ، وبعدها جملة نهيٍ مستقلة، وإن كانت معطوفةً عليها إلا أنها ليست مرتبطةً بهذا الأمر ارتباطًا وثيقًا، فصح الفصل بين الجملتين، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد عطف على هذا النهي نهيًا آخر في قوله (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم)، وهذا النهي الآخر نهيٌ عن أكل المال بصفةٍ خاصةٍ، بخلاف استبدال الخبيث بالطيب، فدل على أنه هاتين الجملتين المعطوفتين ليس بينهما ارتباطٌ وثيقٌ، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن جملة النهي قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إنه كان حوبًا كبيرًا)، والضمير في قوله (إنه) عائدٌ إلى أكل المال إلى المال، ويحتمل أن يعود إلى استبدال الخبيث بالطيب كذلك، فهي مرتبطةٌ بما قبلها معنًى لكنها مستقلةٌ لفظًا، لذلك صح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب (إنْ) الشرطية لم يأت بعد، وذلك أن فعل (إنْ) في قوله (خفتم ألا تقسطوا في اليتامى)، وجوابها في قوله (فانكحوا ما طاب لكم)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فانكحوا ما طاب لكم من النساء)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (مثنى وثلاث ورباع) حالٌ من (ما) في قوله (ما طاب لكم)، فلم يصح الوقف قبل الحال، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (مثنى وثلاث ورباع)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء تجويزًا وتحسينًا، ولم ينص عليه البقية، وإذا تأملنا فإن جملة الشرط في قوله (وإن خفتم) قد انتهت عند قوله (ورباع)، ثم جاءت جملة شرطٍ ثانيةٍ في قوله (فإن خفتم ألا تعدلوا)، وجملة الشرط الثانية هذه لها نوع ارتباطٍ بالجملة الأولى، وذلك أنه سبحانه لما أباح

نكاح ما طاب من النساء مثنى وثلاث ورباع اشترط ذلك بأنه مع العدل، فإن خاف عدم العدل فإنه يكتفي بواحدةٍ، فهنا نوع ارتباط بين الجملتين، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أو ما ملكت أيمانكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط الثانية قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ ابتدائيةٌ مكونةٌ من مبتدأ وخبر في قوله (ذلك أدنى ألا تعولوا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الأمر الأصلي هنا هو الأمر بإعطاء المرأة مهرها فريضةً واجبةً، وقد انتهى هذا الأمر هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ في ذكر حالٍ أخرى وهي إذا تنازلت المرأة عن شيءٍ من مهرها فإنه يجوز أخذه، وجاء ذلك في جملةٍ شرطيةٍ، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فإن طبن لكم عن شيءٍ منه نفسًا فكلوه)؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوّزه الأشموني على وجه، وهو اعتبار قوله (هنيئًا مريئًا) دعاءً، أي أن الجملة الشرطية في قوله (فإن طبن لكم عن شيءٍ منه نفسًا) جوابها في قوله (فكلوه) وانتهت الجملة هنا، ثم قال (هنيئًا مريئًا) على وجه الدعاء، أي: هنأكم الله وأمرأكم، وليس بوقفٍ عند الأكثر، لأنهم يجعلون قوله (هنيئًا) حالاً من الواو في (فكلوه) أي: فكلوه هانئين، أو من الهاء في (فكلوه) أي فكلوه أي المال مهناً لكم، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجعله الأنصاري صالحًا، والأشموني جائزًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن هنا نهيًا في قوله (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا) وارتبط بهذا النهي وصفٌ للأموال، وهو أن الله جعل الأموال هذه قيامًا لحال الناس ومعاشهم، وكأن هذا الوصف تعليلٌ للنهي عن إعطاء الأموال للسفهاء، ثم جاء بعد هذه الجملة الأمر بإطعامهم بدون إعطائهم المال وكسوتهم كذلك، وذلك في جمل أمرٍ بعد جملة النهي، فصح الفصل بين جملة النهي التي ارتبط بها وصفٌ وبين جمل الأمر، والله أعلم.

ثم لا وقف على قوله (وارزقوهم فيها)، ولا على قوله (واكسوهم)؛ لأن هذه الأوامر يتمم بعضها بعضًا، وذلك أن المطلوب عدم إعطاء السفهاء الأموال، مع إطعامهم وكسوتهم وقول المعروف لهم، فتوصل هذه الجمل ببعضها، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح) هل يصح الوقف هنا؟

جوّز الوقف هنا السجاوندي، وحسنه الأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الفاء في قوله (فإن آنستم منهم رشدًا) رابطةٌ لجواب (إذا) في قوله (إذا بلغوا النكاح) فتقدير الجملة: إذا بلغوا النكاح يعني اليتامى فإن علمتم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم، يعني أنه اشترط شرطًا في شرط حتى يستحق اليتيم أن يعطَى المال، فالأوجه هنا عدم الوقف، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فادفعوا إليهم أموالهم)؟

نص على الوقف هنا تجويزًا وتحسينًا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه البقية، وإذا تأملنا فإن الشرط لدفع المال إلى اليتيم قد انتهى هنا، وذلك في قوله (إذا بلغوا النكاح)، وفي قوله (فإن آنستم منهم رشدًا)، ثم جاء نهيٌ عن أكل مال اليتيم قبل بلوغه النكاح، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تأكلوها إسرافًا وبدارًا أن يكبروا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النهي قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ في قوله (ومن كان غنيًا) في بيان من يحق له الأكل من مال اليتم، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن كان غنيًا فليستعفف)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن هنا جملتي شرط، الجملة الأولى (ومن كان غنيًّا فليستعفف)، والجملة الثانية (ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف)، وهما جملتان في بيان حكمٍ واحدٍ، وهو: متى يحق لولي اليتيم أن يأكل من مال اليتيم ومتى لا يحق له؟ فمن نظر إلى هذا منع من الوقف على قوله (فليستعفف) وأمر بربط الجملتين ببعضهما، ومن نظر إلى الناحية اللفظية من كون كل جملةٍ مستقلةٌ بنفسها في كونها جملة شرطية تضمنت شرطًا وفعله وجوابه صحح الوقف على قوله (فليستعفف)، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملتي الشرط المتضادتين أو المتقابلتين قد انتهت هنا، ثم جاءت بعد ذلك جملةٌ شرطيةٌ جديدةٌ في قوله (فإذا دفعتم إليهم أموالهم) وهذه الجملة الشرطية راجعةٌ إلى (فادفعوا إليهم أموالهم) في أول الآية، فجاءت بينها وبين طلب الإشهاد على هذا الدفع جملٌ معترضةٌ، فصح الفصل بين الجمل المعترضة وبين هذا الشرط، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ جاءت بعد انتهاء جملة الشرط في قوله (وكفى بالله حسيبًا)، على أن هذه الجملة فيها نوع اتصالٍ معنويٍ بما قبلها، وذلك أن قوله (وكفى بالله حسيبًا) يعني: وراقبوا الله سبحانه وتعالى في دفع أموالهم إليهم، لكنها جملةٌ مستقلةٌ لفظًا، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (للرجال نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون) حصل الخلاف في هذه الآية أين موضع الوقف فيها؟

فمنهم من قال: موضع الوقف على قوله (مما ترك الوالدان والأقربون) الأولى، ثم على قوله (مما قل منه أو كثر)، ثم في نهاية الآية.

ومنهم من قال: موضع الوقف على قوله (مما ترك الوالدان والأقربون) الثانية، ثم على قوله (مما قل منه أو كثر)، ثم في نهاية الآية.

ومنهم من قال: موضع الوقف على قوله (مما قل منه أو كثر)، ثم في نهاية الآية.

ومنهم من قال: لا وقف في الآية.

فهذه أربعة أقوال.

فأما من صحح الوقف على (مما ترك الوالدان والأقربون) الأولى، فإنه نظر إلى أن هذه جملةٌ قد تمت في قوله (للرجال نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون)، وأن قوله (مما قل منه أو كثر) متعلقٌ بنصيب النساء، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إنما يمنعون النساء حقوقهن ولا يمنعون الرجال، فحتى لو قلّ المال فإن للمرأة نصيبًا منه، فجعلوا قوله (مما قل منه أو كثر) متعلقٌ بقوله (وللنساء نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون) لا متعلقًا بقوله (للرجال نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون) فصح عندهم الوقف على قوله (والأقربون) الأولى، ثم على قوله (أو كثر).

ومن لم يصحح الوقف على قوله (والأقربون) الأولى، وصحح الوقف على (والأقربون) الثانية ذهب إلى أن الجملتين في بيان أن للرجل نصيبًا وللمرأة نصيبًا ولا فرق بينهما، وكل واحدٍ له نصيبٌ محددٌ شرعًا، ثم قال (مما قل منه أو كثر) كأنه قال: سواءٌ قل المال أو كثر فإن لكل واحدٍ نصيبًا.

وأما من لم يصحح الوقف إلا على قوله (مما قل منه أو كثر) فإنه نظر إلى أن الجملة لا تستقيم إلا أن نقول: إن للرجال نصيبًا مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر، وللنساء نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر، فلا بد من وصلها بها حتى يظهر المعنى.

ومن وقف على قوله (مما قل منه أو كثر) فإنهم نظروا إلى أن قوله (نصيبًا مفروضًا) على تقدير: جعل الله لهم نصيبًا مفروضًا.

وهذه الأوجه في الآية كلها محتملةٌ من حيث الوقف، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب (إذا) لم يأت بعد، فـ(إذا) فِعلها في قوله (حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين) ما الذي يحصل؟ الجواب في قوله (فارزقوهم منه) فلا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فارزقوهم منه)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنهم اعتبروا جملة الشرط قد انتهت هنا، فالمطلوب أنه إذا حضر القسمة من لا يرث من أولي القربى ومن اليتامى والمساكين فإنهم يعطون من الميراث نصيبًا استحبابًا، ثم أمر بأمرٍ عامٍ بعد ذلك في قوله (وقولوا لهم قولاً معروفًا) يعني: وأحسنوا إليهم بالقول كذلك. وأما من نظر إلى أن قوله (وقولوا لهم) معطوفٌ على جواب الشرط في قوله (فارزقوهم منه) فإنه منع من الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريةً ضعافًا خافوا عليهم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (فليتقوا الله) يحتمل أن تكون مستأنفةً، كما نص على ذلك الأشموني، وهذا وجه من صحح الوقف هنا، ويحتمل أن تكون جوابًا للأمر في قوله (وليخش) يعني: وليخشوا لو تركوا من خلفهم ذريةً ضعافًا فليكن حالهم أن يتقوا الله وأن يقولوا قولاً سديدًا، أو: هي جواب شرطٍ مقدرٍ، فإذا كان كذلك، يعني أنهم يخافون على ذريتهم الضعاف بعد موتهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدًا، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن خبر (إنّ) لم يأت بعد، اسم (إنّ) في قوله (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا) هذا كله اسم (إنّ)، خبرها جملة (إنما يأكلون في بطونهم نارًا)، فلم يصح الوقف قبل الإتيان بخبر (إنّ).

وهل يصح الوقف على قوله (إنما يأكلون في بطونهم نارًا)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (وسيصلون سعيرًا) ذكرٌ للمصير الأخروي بعد ذكر حالهم في الدنيا في أنهم إنما يأكلون في بطونهم نارًا، هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى أن جملة (إنّ) قد انتهت هنا عند قوله (نارًا)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ١-١٠

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة):

خطبة الحاجة: عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: علمنا خطبة الحاجة: (الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ثم يقرأ ثلاث آيات: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون}، {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا}، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا}. مسند أحمد (٦/ ٢٦٢)، سنن النسائي (٣/ ١٠٤).

وقال الطبري: وصف تعالى ذكره نفسه بأنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد، معرفا عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة، ومنبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه، لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة، وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض، وإن بعد التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم، مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى، وعاطفا بذلك بعضهم على بعض، ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف على ما ألزمه الله له. تفسير الطبري (٧/ ٥١٢-٥١٣).

وقال ابن تيمية: سورة النساء: الغالب عليها مخاطبة الناس في الصلات التي بينهم بالنسب والعقد وأحكام ذلك، فافتتحها الله سبحانه بقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} لعموم أحكامها وقال: {اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ}، فذكر اشتراك جميع الناس في الأصل، وأمرهم بتقوى الله الذي به يتعاقدون ويتعاهدون؛ فإن

كل واحدٍ من المتعاقدين يطلب من الآخر ما قصده بالعقد، وهو بالله يعقده؛ إذ قد جعلوا الله عليهم كفيلاً، وبصلة الأرحام التي خلقها الله سبحانه وتعالى. المسائل والأجوبة (ص: ٢٠٣).

(وخلق منها زوجها):

عن السدي قال: أسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة، فاستيقظ، فإذا عند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولِمَ خُلقت؟ قالت: لتسكن إلي. تفسير الطبري (٧/ ٥١٥-٥١٦).

وقال ابن كثير: {وخلق منها زوجها} وهي حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه.

وقال ابن أبي حاتم:... عن ابن عباس قال: خلقت المرأة من الرجل، فجعل نهمتها في الرجل، وخلق الرجل من الأرض، فجعل نهمته في الأرض، فاحبسوا نساءكم.

وفي الحديث الصحيح: (إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج). تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٦).

وقال السعدي: وفي قوله: {وخلق منها زوجها} تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج، فبينهم وبينهن أقرب نسب، وأشد اتصال، وأقرب علاقة. تفسير السعدي (ص: ١٦٣).

(واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام):

قال الطبري: واتقوا الله، أيها الناس، الذي إذا سأل بعضكم بعضا سأل به، فقال السائل للمسؤول: أسألك بالله، وأنشدك بالله، وأعزم عليك بالله، وما أشبه ذلك. يقول تعالى ذكره: فكما تعظمون -أيها الناس- ربكم بألسنتكم حتى تروا أن من أعطاكم عهده فأخفركموه فقد أتى عظيما. فكذلك فعظموه

بطاعتكم إياه فيما أمركم، واجتنابكم ما نهاكم عنه، واحذروا عقابه من مخالفتكم إياه فيما أمركم به أو نهاكم عنه. تفسير الطبري (٧/ ٥١٧).

وقال البغوي: (والأرحام)، قراءة العامة بالنصب، أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقرأ حمزة بالخفض، أي: به وبالأرحام، كما يقال: سألتك بالله والأرحام، والقراءة الأولى أفصح؛ لأن العرب لا تكاد تنسُق بظاهر على مكنّى إلا بعد أن تعيد الخافض فتقول: مررت به وبزيد، إلا أنه جائز مع قلته. تفسير البغوي (١/ ٥٦١).

وقال ابن تيمية: {واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام}. فعلى قراءة الجمهور بالنصب: إنما يسألون بالله وحده لا بالرحم، وتساؤلهم بالله تعالى يتضمن إقسام بعضهم على بعض بالله وتعاهدهم بالله. وأما على قراءة الخفض فقد قال طائفة من السلف: هو قولهم أسألك بالله وبالرحم... ومعنى قوله أسألك بالرحم ليس إقساما بالرحم - والقسم هنا لا يسوغ - لكن بسبب الرحم، أي: لأن الرحم توجب لأصحابها بعضهم على بعض حقوقا، كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة. مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٩).

وقال أيضا: الرحم توجب على صاحبها حقا لذي الرحم، كما قال الله تعالى: {واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم {الرحم شجنة من الرحمن، من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله}... وقال صلى الله عليه وسلم {يقول الله تعالى: أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته}... وحق ذي الرحم باق بعد موته، كما في الحديث أن رجلا قال: يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: (نعم، الدعاء لهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ وعدهما من بعدهما، وصلة رحمك التي لا رحم لك إلا من قبلهما)، وفي الحديث الآخر حديث ابن عمر {من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي}. فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بره. مجموع الفتاوى (١/ ٢٢١-٢٢٢).

وقال ابن القيم: وقد ذم الله تبارك وتعالى قاطعي الرحم، وعظم قطيعتها، وأوجب حقها وإن كانت كافرة، قال تعالى: {واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام}، وقال تعالى: {والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل}، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»، «والرحم معلقة بساق العرش تقول: يا رب، صل من وصلني، واقطع من قطعني». أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٩٢).

وقال السعدي: وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها، ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصا الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به. تفسير السعدي (ص: ١٦٣).

وقال أيضا: تأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عموما، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها. فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم. تفسير السعدي (ص: ١٦٣).

(إن الله كان عليكم رقيبا):

قال ابن جزي: إذا تحقق العبد بهذه الآية وأمثالها استفاد مقام المراقبة، وهو مقام شريف، أصله علم وحال، ثم يثمر حالين: أما العلم: فهو معرفة العبد بأن الله مطلع عليه، ناظر إليه، يرى جميع أعماله، ويسمع جميع أقواله، ويعلم كل ما يخطر على باله، وأما الحال: فهي ملازمة هذا العلم للقلب بحيث يغلب عليه، ولا يغفل عنه، ولا يكفي العلم دون هذه الحال، فإذا حصل العلم والحال: كانت ثمرتها عند أصحاب اليمين: الحياء من الله، وهو يوجب بالضرورة ترك المعاصي والجد في الطاعات، وكانت ثمرتها عند المقربين: الشهادة التي توجب التعظيم والإجلال لذي الجلال، وإلى هاتين الثمرتين أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فقوله (أن تعبد الله كأنك تراه): إشارة إلى الثمرة الثانية، وهي المشاهدة الموجبة للتعظيم: كمن يشاهد ملكا عظيما، فإنه يعظمه إذ ذاك بالضرورة، وقوله (فإن لم تكن تراه فإنه يراك): إشارة إلى الثمرة الأولى،

ومعناه: إن لم تكن من أهل المشاهدة التي هي مقام المقربين، فاعلم أنه يراك، فكن من أهل الحياء الذي هو مقام أصحاب اليمين. التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٧٦).

(وآتوا اليتامى أموالهم):

قال البقاعي: قد تقدم في السورة الماضية ذكر قصة أحد التي انكشفت عن أيتام، ثم ذكر في قوله تعالى: {كل نفس ذائقة الموت} أن الموت مَشرع لا بد لكل نفس من وروده؛ عُلم أنه له بد من وجود الأيتام في كل وقت، فدعا إلى العفة والعدل فيهم؛ لأنهم بعد الأرحام أولى من يُتقى الله فيه ويُخشى مراقبته بسببه. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ١٧٧).

وقال السيوطي: تسمية الشيء باسم ما كان عليه، نحو: {وآتوا اليتامى أموالهم} أي: الذين كانوا يتامى، إذ لا يتم بعد البلوغ. الإتقان في علوم القرآن (٣/ ١٢٥).

وقال السعدي: وفيه الولاية على اليتيم، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله، ثبوت ولاية المؤتي على ماله.

وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم، لأن تمام إيتائه ماله حفظه، والقيام به بما يصلحه وينميه، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار. تفسير السعدي (ص: ١٦٣).

(ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب):

قال البغوي: قال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي: كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلونه مكانه الرديء، فربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ويجعل مكانها المهزولة، ويأخذ الدرهم الجيد ويجعل مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم، فنهوا عن ذلك. تفسير البغوي (١/ ٥٦٢).

(وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع):

عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلا كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عذق، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه: {وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى} أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله. صحيح البخاري (٦/ ٤٣).

عن عروة بن الزبير، أنه سأل عائشة رضي الله عنها، عن قول الله تعالى: {وإن خفتم ألا تقسطوا} إلى {ورباع}، فقالت: «يا ابن أختي، هي اليتيمة تكون في حجر وليها، تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها، بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن». قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية، فأنزل الله: {ويستفتونك في النساء} إلى قوله {وترغبون أن تنكحوهن}، والذي ذكر الله أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى، التي قال فيها: {وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فانكحوا ما طاب لكم من النساء}، قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: {وترغبون أن تنكحوهن}، يعني: هي رغبة أحدكم ليتيمته التي تكون في حجره، حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن. صحيح البخاري (٣/ ١٣٩)، صحيح مسلم (٤/ ٢٣١٣).

وقال الطبري: فإن قال قائل: وكيف قيل: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء)، ولم يقل: فانكحوا من طاب لكم؟ وإنما يقال: (ما) في غير الناس.

قيل: معنى ذلك على غير الوجه الذي ذهبت إليه، وإنما معناه: فانكحوا نكاحا طيبا، فالمعني بقوله: (ما طاب لكم)، الفعل، دون أعيان النساء وأشخاصهن، فلذلك قيل (ما) ولم يقل (مَن)، كما يقال: خذ من رقيقي ما أردت، إذا عنيت: خذ منهم إرادتك. ولو أردت: خذ الذي تريد منهم، لقلت: خذ من رقيقي من أردت منهم. تفسير الطبري (٧/ ٥٤٢-٥٤٣).

وقال أيضا: فإن قال قائل: فإن أمر الله ونهيه على الإيجاب والإلزام حتى تقوم حجة بأن ذلك على التأديب والإرشاد والإعلام، وقد قال تعالى ذكره: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء)، وذلك أمر، فهل من دليل على أنه من الأمر الذي هو على غير وجه الإلزام والإيجاب؟

قيل: نعم، والدليل على ذلك قوله: (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة). فكان معلوما بذلك أن قوله: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء)، وإن كان مخرجه مخرج الأمر، فإنه بمعنى الدلالة على النهي عن نكاح ما خاف الناكح الجور فيه من عدد النساء، لا بمعنى الأمر بالنكاح، فإن المعني به: وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى، فتحرجتم فيهن، فكذلك فتحرجوا في النساء، فلا تنكحوا إلا ما أمنتم الجور فيه منهن، ما أحللته لكم من الواحدة إلى الأربع. تفسير الطبري (٧/ ٥٤٧).

وقال البغوي: اختلفوا في تأويلها:

فقال بعضهم: معناه: إن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن فانكحوا غيرهن من الغرائب مثنى وثلاث ورباع. فبين الله تعالى في هذه الآية أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال أو مال، رغبوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها بإكمال الصداق، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء، قال: فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها الأوفى من الصداق ويعطوها حقها...

قال عكرمة: كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء والأكثر فإذا صار معدما من مؤن نسائه مال إلى مال يتيمه الذي في حجره فأنفقه، فقيل لهم: لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم إلى أخذ أموال اليتامى، وهذه رواية طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال بعضهم: كانوا يتحرجون عن أموال اليتامى، ويترخصون في النساء فيتزوجون ما شاؤوا، وربما عدلوا وربما لم يعدلوا، فلما أنزل الله تعالى في أموال اليتامى (وآتوا اليتامى أموالهم)، وأنزل هذه الآية: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى)، يقول كما خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهن، فلا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقهن، لأن النساء في الضعف كاليتامى، وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي. تفسير البغوي (١/ ٥٦٢-٥٦٣).

وقال أيضا: وهذا إجماع أن أحدا من الأمة لا يجوز له أن يزيد على أربع نسوة، وكانت الزيادة من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم، لا مشاركة معه لأحد من الأمة فيها. تفسير البغوي (١/ ٥٦٤).

وقال السعدي: {ما طاب لكم من النساء} أي: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين والمال والجمال والحسب والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك).

وفي هذه الآية – أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل قد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها ليكون على بصيرة من أمره...

{مثنى وثلاث ورباع} أي: من أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل، أو ثلاثا فليفعل، أو أربعا فليفعل، ولا يزيد عليها، لأن الآية سيقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعا.

وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعا، لأن في الأربع غنية لكل أحد، إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن، فإن خاف شيئا من هذا فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه. فإنه لا يجب عليه القسم في ملك اليمين...

وفي قوله: {فانكحوا ما طاب لكم من النساء} دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهي عنه كالمشركة، وكالفاجرة، كما قال تعالى: {ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن}، وقال: {والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك}. تفسير السعدي (ص: ١٦٤).

(فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة):

قال الزركشي: قوله تعالى: {فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة} مع قوله في أواخر السورة: {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم}، فالأولى تفهم إمكان العدل والثانية تنفيه؟

والجواب: أن المراد بالعدل في الأولى: العدل بين الأزواج في توفية حقوقهن، وهذا ممكن الوقوع وعدمه، والمراد به في الثانية: الميل القلبي، فالإنسان لا يملك ميل قلبه إلى بعض زوجاته دون بعض،

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ثم يقول: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني بما لا أملك)، يعني: ميل القلب. البرهان في علوم القرآن (٢/ ٥٨).

(ذلك أدنى ألا تعولوا):

قال ابن تيمية: أي: لا تجوروا في القَسْم. هكذا قال السلف وجمهور العلماء، وظن طائفة من العلماء أن المراد ألا تكثر عيالكم؛ وقالوا: هذا يدل على وجوب نفقة الزوجة؛ وغلّط أكثر العلماء من قال ذلك لفظا ومعنى؛ أما اللفظ فلأنه يقال عال يعول إذا جار، وعال يعيل إذا افتقر، وأعال يعيل إذا كثر عياله، وهو سبحانه قال (تعولوا) لم يقل تعيلوا؛ وأما المعنى فإن كثرة النفقة والعيال يحصل بالتسرّي، كما يحصل بالزوجات، ومع هذا فقد أباح مما ملكت اليمين ما شاء الإنسان بغير عدد؛ لأن المملوكات لا يجب لهن قسم، ولا يستحققن على الرجل وطئا. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٤/ ١٥٢).

وقال السعدي: وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحا- أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد. تفسير السعدي (ص: ١٦٤).

(وآتوا النساء صدقاتهن نحلة):

عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج». صحيح البخاري (٣/ ١٩١)، صحيح مسلم (٢/ ١٠٣٥)

عن ابن زيد في قوله: (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة)، قال: النحلة في كلام العرب: الواجب، يقول: لا ينكحها إلا بشيء واجب لها، صدقة يسميها لها واجبة، وليس ينبغي لأحد أن ينكح امرأة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذبا بغير حق. تفسير الطبري (٧/ ٥٥٣).

وقال البغوي: قال الحضرمي: وكان أولياء النساء يعطي هذا أخته على أن يعطيه الآخر أخته، ولا مهر بينهما، فنهوا عن ذلك وأمروا بتسمية المهر في العقد...

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الشغار، والشغار: أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، وليس بينهما صداق.

وقال آخرون: الخطاب للأزواج أمروا بإيتاء نسائهم الصداق، وهذا أصح، لأن الخطاب فيما قبل مع الناكحين. تفسير البغوي (١/ ٥٦٥).

(فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا):

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: إذا اشتكى أحدكم فليسأل امرأته ثلاثة دراهم أو نحوها فليشتر بها عسلا وليأخذ من ماء السماء فيجمع هنيئا مريئا وشفاء ومباركا. الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ٤٣٢).

وعن إبراهيم النخعي قال: دخل رجل على علقمة وهو يأكل من طعام بين يديه، من شيء أعطته امرأته من صداقها أو غيره، فقال له علقمة: ادن فكل من الهنيء المريء! تفسير الطبري (٧/ ٥٥٥).

عن ابن عباس: (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا)، يقول: إذا كان غير إضرار ولا خديعة فهو هنيء مريء كما قال الله جل ثناؤه. تفسير الطبري (٧/ ٥٥٦).

وقال البغوي: الهنيء: الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء، والمريء: المحمود العاقبة التام الهضم الذي لا يضر. تفسير البغوي (١/ ٥٦٦).

وقال السعدي: وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها -ولو بالتبرع- إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به. تفسير السعدي (ص: ١٦٤).

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما):

عن أبي موسى الأشعري أنه قال: (ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيها وقد قال الله: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم)، ورجل كان له على رجل دين فلم يُشهد عليه). تفسير الطبري (٧/ ٥٦٤)، المستدرك على الصحيحين (٢/ ٣٣١).

وعن ابن عباس في قوله: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) يقول الله سبحانه: لا تعمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم. ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم ورزقهم ومؤونتهم. تفسير الطبري (٧/ ٥٧٠).

وقال الطبري: عم بقوله: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم)، فلم يخصص سفيها دون سفيه. فغير جائز لأحد أن يؤتي سفيها ماله، صبيا صغيرا كان أو رجلا كبيرا، ذكرا كان أو أنثى. والسفيه الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله: هو المستحق الحجر بتضييعه ماله وفساده وإفساده وسوء تدبيره ذلك. تفسير الطبري (٧/ ٥٦٥).

وقال ابن تيمية: بذل المال لا يجوز إلا لمنفعة في الدين أو الدنيا، وهذا أصل متفق عليه بين العلماء، ومن خرج عن ذلك كان سفيها، وحُجر عليه عند جمهور العلماء الذين يحجرون على السفيه، وكان مبذرا لماله، وقد نهى الله في كتابه عن تبذير المال: {ولا تبذر تبذيرا}، وهو إنفاقه في غير مصلحة، وكان مضيعا لماله، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال في الحديث المتفق عليه، عن المغيرة بن شعبة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال». وقد قال الله تعالى في كتابه: {ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما}... وصرف المال فيما لا ينفع في الدين ولا الدنيا من أعظم السفه، فيكون ذلك منهيا عنه في الشرع. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٤/ ٢٥١-٢٥٢).

وقال السعدي: وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار.

وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله: {وارزقوهم فيها واكسوهم}.

وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمنا على مالهم، فلزم قبول قول الأمين. تفسير السعدي (ص: ١٦٤).

وقال ابن عاشور: أضاف الله تعالى الأموال إلى ضمير المخاطبين في قوله: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما)، ولم يقل: أموالهم، مع أنها أموال السفهاء، لقوله بعده: (فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) فأضافها إليهم حين صاروا رشداء. التحرير والتنوير (١٥/ ٨٠).

(وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم):

قال ابن زيد في قوله: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح)، قال: اختبروه في رأيه وفي عقله كيف هو؟ إذا عرف أنه قد أنس منه رشد، دفع إليه ماله. قال: وذلك بعد الاحتلام. تفسير الطبري (٧/ ٥٧٤).

وقال الطبري: وأولى هذه الأقوال عندي بمعنى الرشد في هذا الموضع: العقل وإصلاح المال؛ لإجماع الجميع على أنه إذا كان كذلك لم يكن ممن يستحق الحجر عليه في ماله، وحوز ما في يده عنه، وإن كان فاجرا في دينه. تفسير الطبري (٧/ ٥٧٧).

وقال الزركشي: النكاح في القرآن التزوج إلا قوله جل ثناؤه: {حتى إذا بلغوا النكاح} فإنه يعني الحُلُم. البرهان في علوم القرآن (١/ ١٠٩).

وقال البغوي: البلوغ يكون بأحد أشياء أربعة: اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء، واثنان مختصان بالنساء، فما يشترك فيه الرجال والنساء أمران: أحدهما السن، والثاني الاحتلام.

أما السن فإذا استكمل المولود خمس عشرة سنة حكم ببلوغه غلاما كان أو جارية... وهذا قول أكثر أهل العلم... وأما الاحتلام فنعني به نزول المني سواء كان بالاحتلام أو بالجماع، أو غيرهما، فإذا وجد ذلك بعد استكمال تسع سنين من أيهما كان حكم ببلوغه، لقوله تعالى: (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا)...

وأما الإنبات، وهو نبات الشعر الخشن حول الفرج، فهو بلوغ في أولاد المشركين... وهل يكون ذلك بلوغا في أولاد المسلمين؟ فيه قولان، أحدهما: يكون بلوغا كما في أولاد الكفار، والثاني: لا يكون بلوغا لأنه يمكن الوقوف على مواليد المسلمين بالرجوع إلى آبائهم، وفي الكفار لا يوقف على مواليدهم، ولا يقبل قول آبائهم فيه لكفرهم، فجعل الإنبات الذي هو أمارة البلوغ بلوغا في حقهم.

وأما ما يختص بالنساء: فالحيض والحبَل، فإذا حاضت المرأة بعد استكمال تسع سنين يحكم ببلوغها، وكذلك إذا ولدت يحكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر؛ لأنها أقل مدة الحمل. تفسير البغوي (١/ ٥٦٧).

(ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف):

عن عائشة رضي الله عنها: {ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف}، أنزلت في والي اليتيم الذي يقيم عليه ويصلح في ماله، إن كان فقيرا أكل منه بالمعروف. صحيح البخاري (٣/ ٧٩)، صحيح مسلم (٤/ ٢٣١٥).

عن عبد الله بن عمرو، أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني فقير ليس لي شيء ولي يتيم. قال: فقال: «كل من مال يتيمك غير مسرف، ولا مبادر، ولا متأثل». مسند أحمد (١١/ ٣٥٩)، وسنن أبي داود (٣/ ١١٥)، سنن النسائي (٦/ ٢٥٦).

وقال البغوي: واختلفوا في أنه هل يلزمه القضاء؟

فذهب قوم إلى أن يقضي إذا أيسر، وهو المراد من قوله: (فليأكل بالمعروف)، والمعروف: القرض، أي: يستقرض من مال اليتيم إذا احتاج إليه، فإذا أيسر قضاه، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى بمنزلة ولي اليتيم: إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت.

وقال الشافعي: لا يأكله إلا أن يُضطر إليه كما يضطر إلى الميتة.

وقال قوم: لا قضاء عليه. ثم اختلفوا في كيفية هذا الأكل بالمعروف، قال النخعي: لا يلبس الكتان ولا الحلل، ولكن ما سد الجوعة ووارى العورة.

وقال الحسن وجماعة: يأكل من تمر نخيله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه، فأما الذهب والفضة فلا فإن أخذ شيئا منه فعليه رده...

وقال بعضهم: والمعروف أن يأخذ من جميع ماله بقدر قيامه وأجرة عمله، ولا قضاء عليه، وهو قول عائشة وجماعة من أهل العلم. تفسير البغوي (١/ ٥٧٠-٥٧١).

(وكفى بالله حسيبا):

قال ابن كثير: أي: وكفى بالله محاسبا وشهيدا ورقيبا على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال: هل هي كاملة موفرة، أو منقوصة مبخوسة مدخلة مروج حسابها مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله. ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يا أبا ذر، إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمّرن على اثنين، ولا تلِينّ مال يتيم). تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٩).

(للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون...):

سبب النزول: عن عكرمة قال: نزلت في أم (كُجة) وابنة (كُجة)، وثعلبة وأوس بن سويد، وهم من الأنصار. كان أحدهم زوجها والآخر عم ولدها، فقالت: يا رسول الله، توفي زوجي وتركني وابنته، فلم نورث! فقال عم ولدها: يا رسول الله، لا تركب فرسا، ولا تحمل كلا، ولا تنكي عدوا، يُكسب عليها ولا

تكتسب! فنزلت: (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا). تفسير الطبري (٧/ ٥٩٨).

وقال السعدي: كان العرب في الجاهلية من جبروتهم وقسوتهم لا يورثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء لأنهم -بزعمهم- أهل الحرب والقتال والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعا، يستوي فيه رجالهم ونساؤهم، وأقوياؤهم وضعفاؤهم. وقدم بين يدي ذلك أمرا مجملا لتتوطن على ذلك النفوس. فيأتي التفصيل بعد الإجمال، قد تشوفت له النفوس، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: {للرجال نصيب} : أي: قسط وحصة {مما ترك} أي: خلّف {الوالدان} أي: الأب والأم {والأقربون} عموم بعد خصوص، {وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون} . فكأنه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاءون؟ أو شيئا مقدرا؟ فقال تعالى: {نصيبا مفروضا} : أي: قد قدره العليم الحكيم. وسيأتي -إن شاء الله- تقدير ذلك. وأيضا فهاهنا توهم آخر، لعل أحدا يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: {مما قل منه أو كثر} فتبارك الله أحسن الحاكمين. تفسير السعدي (ص: ١٦٥).

(وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا):

عن أبي سعيد قال، سألت سعيد بن جبير، عن هذه الآية: (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) قال: إن كان الميت أوصى لهم بشيء، أنفذت لهم وصيتهم، وإن كان الورثة كبارا رضخوا لهم، وإن كانوا صغارا قال وليهم: إني لست أملك هذا المال وليس لي، وإنما هو للصغار. فذلك قوله: (وقولوا لهم قولا معروفا). تفسير الطبري (٧/ ١٥).

وقال ابن كثير: إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يعطون،

فأمر الله تعالى -وهو الرءوف الرحيم - أن يُرضخ لهم شيء من الوسط يكون برا بهم، وصدقة عليهم، وإحسانا إليهم، وجبرا لكسرهم. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢١).

وقال السعدي: {فارزقوهم منه} أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء ولا نصب، فإن نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم.

ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين) أو كما قال. وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا بدأت باكورة أشجارهم أتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرّك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علما منه بشدة تشوفه لذلك. تفسير السعدي (ص: ١٦٥).

(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا):

عن ابن عباس قوله: (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) يعني بذلك الرجل يموت وله أولاد صغار ضعاف، يخاف عليهم العيلة والضيعة، ويخاف بعده ألّا يُحسن إليه من يليهم، يقول: فإن ولي مثل ذريته ضعافا يتامى، فليحسن إليهم، ولا يأكل أموالهم إسرافا وبدارا خشية أن يكبروا. تفسير الطبري (٧/ ٢٤).

وقال ابن كثير: عن ابن عباس: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة. وهكذا قال مجاهد وغير واحد.

وثبت في الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده، قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: (لا). قال: فالشطر؟ قال: (لا).

قال: فالثلث؟ قال: (الثلث، والثلث كثير). ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس).

وفي الصحيح أن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الثلث، والثلث كثير).

قال الفقهاء: إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي الثلث في وصيته، وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص من الثلث. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٢).

وقال ابن عطية: الرجل إذا ترك ورثة مستقلين بأنفسهم أغنياء حسن أن يُندب إلى الوصية، ويُحمل على أن يقدّم لنفسه، وإذا ترك ورثة ضعفاء مقلين حسُن أن يُندب إلى الترك لهم والاحتياط فإن أجره في قصد ذلك كأجره في المساكين، فالمراعى إنما هو الضعف، فيجب أن يمال معه. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ١٣-١٤).

(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا):

عن ابن عباس، قال: (لما أنزل الله عز وجل: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن}، و {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما}، الآية انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل: {ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم}، فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه). سنن أبي داود (٣/ ١١٤)، سنن النسائي (٦/ ٢٥٦).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». صحيح البخاري (٤/ ١٠)، صحيح مسلم (١/ ٩٢).

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة). مسند أحمد (١٥/ ٤١٦)، سنن ابن ماجه (٢/ ١٢١٣).

وفي لفظ: «أحرج مال الضعيفين: اليتيم والمرأة». صحيح ابن حبان (١٢/ ٣٧٦)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ١٤٢).

وقال ابن تيمية: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} هذا ونحوه من نصوص الوعيد حق، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد، فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار لجواز ألّا يلحقه الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريم بلغه، وقد يتوب من فعل المحرم، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم، وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه، وقد يَشفع فيه شفيع مطاع. مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٥).

وقال ابن القيم: فهمت الأمة من قوله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما}، جميع وجوه الانتفاع من اللبس والركوب والمسكن وغيرها. إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٦٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ١-١٠

١- تكرّر في هذه الآيات الأمر بتقوى الله وبيان أنه سبحانه مطّلع على أعمال عباده وشاهد عليها وسيحاسبهم عليها، إذ بتقوى الله ومراقبته تستقيم تعاملاتنا فيما بيننا، ولولاها لأكل بعضنا حقوق بعض، فاتق الله في نفسك، وراقبه في تعاملك مع الناس، وفي أداء حقوق الضعفاء منهم من النساء واليتامى والخدم والعاملين وغيرهم (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا)، (وكفى بالله حسيبا)، (فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا).

٢- احرص على صلة رحمك بما يتيسّر لك من أنواع الصلة الكثيرة المتاحة اليوم، ولو زدت على الصلة بالإحسان إلى ضعيفهم وفقيرهم ومواساة مصابهم فذاك بر فوق بر (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام).

٣- لا يجوز أن يليَ مال اليتيم إلا من كان راشدا عدلا قويا، فلا يأكل مال اليتيم إسرافا ومبادرة لأكله قبل أن يكبر فيطالب بماله، ولا يتزوّج اليتيمة طمعا في مالها، أو رغبة في جمالها بدون إعطائها مهر مثلها، ولا يستبدل ماله الرديء بمال اليتيم الطيب، ولا يخلط مال اليتيم مع ماله ليتحايل على أكله، ولا يأكل من مال اليتيم إلا إذا كان فقيرا مضطرا (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا * وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)، (ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف).

٤- يجب على من تزوّج بأكثر من واحدة أن يعدل بينهنّ في المبيت والنفقة والسكن والكسوة، إلا أن تتنازل إحداهن عن شيء من حقها بطيب نفس منها، ومن ظلم إحدى زوجاته وبخسها حقّها عوقب على ذلك في الدنيا وفي الآخرة، ومن خشي من نفسه عدم القدرة على العدل فليكتفِ بزوجة واحدة (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألّا تعولوا).

٥- يجب إعطاء المرأة مهرها المتّفق عليه، وعدم مماطلتها في ذلك، وعدم بخسها حقها في ذلك إن كانت يتيمة، بل تعطى مهر مثلها، كما لا يجوز أخذ شيء من مهر المرأة إلا بطيب نفس منها، لا مخادعة ولا إكراها، فإن أعطتك عن طيب نفس فذاك الهنيء المريء (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا).

٦- لا يجوز أن تُعطي المال للسفيه الذي يصرفه في اللهو واللعب والعبث، ولا يُحسن البيع والشراء به، ولا يُحسن حفظه وخزانته عنده، فإن هذا المال هو قِوام معاشك، وأنت مسؤول عنه بين يدي الله، ولكن إن طلب شيئا فإن رأيته محتاجا إليه أو فيه مصلحته فاصرف عليه بنفسك دون أن تجعل المال في يده يتصرف فيه كيف شاء، وإن كان يتيما تحت ولايتك فبيّن له بالحسنى أنك إنما تحفظ ماله لمصلحته، فإن بلغ الحلُم وصار راشدا دفعت ماله إليه بعد اختباره في تعاملاته بإعطائه شيئا من ماله ومراقبة تصرّفه في ذلك، فإن كان محافظا على ماله، حسن التصرف فيه، فإنه يُعطى جميع ماله مع إشهاد الشهود على ذلك (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا * وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم)، (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا).

٧- من إكرام الله للمرأة ورحمته بها أن جعل لها حقا محددا في الميراث بعد أن كانت في الجاهلية لا ترث، مع أن الله سبحانه لم يوجب عليها من النفقة ما أوجبه على الرجل، فلتحمد الله كل امرأة مسلمة، ولتفخر بدينها، ولتدافع عن دينها وعن شرع ربها أمام تشكيك المشككين وطعن الطاعنين، ولتعلم أن الله أحكم الحاكمين فيما شرعه لعباده، وأنه لا صلاح للبشرية إلا بشرع الله سبحانه (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا).

٨- إذا يسّر الله لك رزقا ما من مال أو طعام أو كسوة أو غير ذلك وعندك أحد قد حضر ذلك وتعلقت نفسه به فأعطه منه شيئا، يكون بركة لك في رزقك، وطردا للعين والحسد عنه (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا).

٩- أهل الفضل يكرمون اليتامى ويكفلونهم ويحسنون إليهم، وأهل العدل يعطونهم حقوقهم، وأهل الظلم يأكلون أموالهم ويبخسونهم حقوقهم ويستغلون ضعفهم ويخادعونهم، فاحرص على أن تكون من أهل الفضل والإحسان إلى اليتامى بحفظ أموالهم إذا كنت وليا عليهم، وإعطائهم إياها متى صاروا راشدين، وبالسعي في استخراج حقوقهم ممن ظلمهم، وبكفالتهم إذا كانوا فقراء محتاجين، وعاملهم كما تحب أن يعامل الناس أيتامك من بعدك، حتى تفوز بالأجر العظيم وبمرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة، واحذر من ظلم اليتامى والإساءة إليهم وأكل أموالهم حتى لا يسلَّط على أيتامك من بعدك من يسيء إليهم ويأكل أموالهم، واعلم أن من أكل أموال اليتامى فإنه إنما يأكل نارا تتأجّج في بطنه، وسيصلى نارا يوم القيامة (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا * إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (١١-١٨) من التفسير الميسّر

يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)

يوصيكم الله ويأمركم في شأن أولادكم: إذا مات أحد منكم وترك أولادًا: ذكورًا وإناثًا، فميراثه كله لهم: للذكر مثل نصيب الأنثيين، إذا لم يكن هناك وارث غيرهم. فإن ترك بنات فقط فللبنتين فأكثر ثلثا ما ترك، وإن كانت ابنة واحدة، فلها النصف. ولوالِدَي الميت لكل واحد منهما السدس إن كان له ولد: ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو أكثر. فإن لم يكن له ولد وورثه والداه فلأمه الثلث ولأبيه الباقي. فإن كان للميت إخوة اثنان فأكثر، ذكورًا كانوا أو إناثًا، فلأمه السدس، وللأب الباقي ولا شيء للإخوة. وهذا التقسيم للتركة إنما يكون بعد إخراج وصية الميت في حدود الثلث أو إخراج ما عليه من دَيْن. آباؤكم وأبْناؤكم الذين فُرِض لهم الإرث لا تعرفون أيهم أقرب لكم نفعًا في دنياكم وأخراكم، فلا تفضلوا واحدًا منهم على الآخر. هذا الذي أوصيتكم به مفروض عليكم من الله. إن الله كان عليمًا بخلقه، حكيمًا فيما شرعه لهم.

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)

ولكم -أيها الرجال- نصف ما ترك أزواجكم بعد وفاتهن إن لم يكن لهن ولد ذكرًا كان أو أنثى، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن، ترثونه من بعد إنفاذ وصيتهن الجائزة، أو ما يكون عليهن من دَيْن لمستحقيه. ولأزواجكم -أيها الرجال- الربع مما تركتم، إن لم يكن لكم ابن أو ابنة منهن أو من غيرهن، فإن كان لكم ابن أو ابنة فلهن الثمن مما تركتم، يقسم الربع أو الثمن بينهن، فإن كانت زوجة واحدة كان هذا ميراثًا لها، من بعد إنفاذ ما كنتم أوصيتم به من الوصايا الجائزة، أو قضاء ما يكون عليكم من دَيْن. وإن

مات رجل أو امراة وليس له أو لها ولد ولا والد، وله أو لها أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس. فإن كان الإخوة أو الأخوات لأم أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث يقسم بينهم بالسوية لا فرق بين الذكر والأنثى، وهذا الذي فرضه الله للإخوة والأخوات لأم يأخذونه ميراثًا لهم من بعد إنفاذ وصيته إن كان قد أوصى بشيء، أو قضاء ديون الميت، لا ضرر فيه على الورثة. بهذا أوصاكم ربكم وصية نافعة لكم. والله عليم بما يصلح خلقه، حليم لا يعاجلهم بالعقوبة.

تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣)

تلك الأحكام الإلهية التي شرعها الله في اليتامى والنساء والمواريث، شرائعه الدالة على أنها مِن عند الله العليم الحكيم. ومَن يطع الله ورسوله فيما شرع لعباده من هذه الأحكام وغيرها، يدخله جنات كثيرة الأشجار والقصور، تجري من تحتها الأنهار بمياهها العذبة، وهم باقون في هذا النعيم، لا يخرجون منه، وذلك الثواب هو الفلاح العظيم.

وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤)

ومَن يَعْصِ الله ورسوله، بإنكاره لأحكام الله، وتجاوزه ما شرعه الله لعباده بتغييرها، أو تعطيل العمل بها، يدخله نارًا ماكثًا فيها، وله عذاب يخزيه ويهينه.

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥)

واللاتي يزنين من نسائكم، فاستشهدوا -أيها الولاة والقضاة- عليهن أربعة رجال عدول من المسلمين، فإن شهدوا عليهن بذلك فاحبسوهن في البيوت حتى تنتهي حياتهن بالموت، أو يجعل الله لهن طريقًا للخلاص من ذلك.

وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦)

واللذان يقعان في فاحشة الزنى، فآذُوهما بالضرب والهجر والتوبيخ، فإن تابا عمَّا وقع منهما وأصلحا بما يقدِّمان من الأعمال الصالحة فاصفحوا عن أذاهما. ويستفاد من هذه الآية والتي قبلها أن الرجال إذا فعلوا الفاحشة يُؤْذَوْن، والنساء يُحْبَسْنَ ويُؤْذَيْنَ، فالحبس غايته الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والصلاح. وكان هذا في صدر الإسلام، ثم نُسخ بما شرع الله ورسوله، وهو الرجم للمحصن والمحصنة، وهما

الحران البالغان العاقلان، اللذان جامعا في نكاح صحيح، والجلدُ مائة جلدة، وتغريب عام لغيرهما. إن الله كان توابا على عباده التائبين، رحيمًا بهم.

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧)

إنَّما يقبل الله التوبة من الذين يرتكبون المعاصي والذنوب بجهل منهم لعاقبتها، وإيجابها لسخط الله -فكل عاص لله مخطئًا أو متعمِّدًا فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالمًا بالتحريم- ثم يرجعون إلى ربهم بالإنابة والطاعة قبل معاينة الموت، فأولئك يقبل الله توبتهم. وكان الله عليمًا بخلقه، حكيمًا في تدبيره وتقديره.

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

وليس قَبول التوبة للذين يُصِرُّون على ارتكاب المعاصي، ولا يرجعون إلى ربهم إلى أن تأتيهم سكرات الموت، فيقول أحدهم: إني تبت الآن، كما لا تُقبل توبة الذين يموتون وهم جاحدون، منكرون لوحدانية الله ورسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. أولئك المصرُّون على المعاصي إلى أن ماتوا، والجاحدون الذين يموتون وهم كفار، أعتدنا لهم عذابًا موجعًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (١١-١٨)

الكلمة	المعنى
حكيما	يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها
إن كان له ولد	إن كان له ابن أو بنت
كَلَالة	من لا والد له ولا ولد
حليم	لا يعاجل من عصاه بالعقوبة
حدودُ الله	فرائضه وشرائعه
الفاحشة	الزنا
سبيلا	مخرجا من ذلك
توّابا	كثيرَ التوبة لمن تاب إليه
بِجَهالة	بسفه وجهل منهم بعاقبتها، فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار
من قريب	قبل معاينة الموت

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ١١-١٨

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية الحادية عشرة وحتى الآية الثامنة عشرة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ونص الأشموني على أنه حسن على استئناف ما بعده، يعني أن قوله (للذكر مثل حظ الأنثيين) مستأنفٌ غير متعلقٌ بالوصية، فيكون الجار والمجرور في قوله (للذكر) متعلقٌ بمحذوف، هذا احتمال، وأكثر علماء الوقف والابتداء لم ينصوا على وقفٍ هنا، لأنهم اعتبروا أن الجار والمجرور في قوله (للذكر مثل حظ الأنثيين) متعلقٌ بالوصية في قوله (يوصيكم الله) فكأنه قال: يوصيكم الله في أولادكم، ووصيته أن للذكر مثل حظ الأنثيين، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

ثم بدأ في تفصيل الأحكام فقال (للذكر مثل حظ الأنثيين)، هنا وقفٌ، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، لأنه انتهى من الحكم الأصلي عند اجتماع الأولاد ذكورًا وإناثًا، ثم بدأ في حكم البنات إذا انفردن - بمعنى أنه ليس معهن ذَكر - بجملةٍ شرطيةٍ فصح الوقف هنا.

ثم قال (فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك)، وهنا وقفٌ أيضًا، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أنه انتهى من حكم البنات إذا كن فوق اثنتين، وانتهت هنا جملة الشرط الأولى بفعلها وجوابها، ثم بدأ في حكم البنت الواحدة بجملةٍ شرطيةٍ جديدةٍ، فصح الوقف هنا.

ثم قال (وإن كانت واحدةً فلها النصف)، وهنا وقفٌ أيضًا، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، لأنه انتهى هنا حكم الأولاد جميعًا ذكورًا وإناثًا، ثم جاء حكم الوالدين في جملةٍ مستأنفةٍ فصح الوقف هنا.

ثم قال (ولأبويه لكل واحدٍ منهما السدس مما ترك) لا يصح الوقف هنا، لأن شرط الإرث لم يأت بعد، وشرطه في قوله (إن كان له ولد)، فالأبوان يرثان السدس إن كان للميت ولد، فالوقف على قوله (إن كان له ولد)، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، لأنه انتهى هنا حكم الوالدين عند وجود الولد، ثم بدأ حكمهما إذا لم يكن له ولد بجملةٍ شرطيةٍ، فصح الوقف هنا.

ثم قال (فإن لم يكن له ولدٌ وورثه أبواه فلأمه السدس)، ويصح الوقف هنا أيضًا، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أنه انتهى من حكم الوالدين عند عدم وجود الولد بجملةٍ شرطيةٍ قد انتهت بفعلها وجوابها، ثم بدأ في حكم الوالدين عند وجود الإخوة بجملةٍ شرطيةٍ جديدةٍ فصح الوقف هنا.

ثم قال (فإن كان له إخوةٌ فلأمه السدس) وهنا وقع الاختلاف هل يصح الوقف أو لا؟ وذلك أنه قال بعدها (من بعد وصيةٍ يوصي بها أو دين) فهذه الجملة هل هي متعلقةٌ بآخر حكم وهو (فإن كان له إخوةٌ فلأمه السدس)، أو بجميع الأحكام الواردة في الآية؟

الجواب: متعلقة بجميع الأحكام الواردة في الآية، ونحن قد وقفنا في نهاية كل حكمٍ في الآية، ثم إذا وصلنا هنا فإنه يوهم أن قوله (من بعد وصيةٍ يوصي بها أو دين) متعلقٌ بآخر حكمٍ فقط، وهذا خطأ، فالأصح هنا الوقف على قوله (فلأمه السدس)، وجملة (من بعد وصية يوصي بها أو دين) تقرأ مستقلة حتى يتضح أن جميع الأحكام السابقة شرطها أنها إنما تقسّم بعد الوصية والدين.

ثم يصح الوقف على قوله (أو دين)، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، لأن الأحكام قد انتهت هنا، وشرطها - أنها تكون بعد الوصية والدين - أيضًا قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (آباؤكم وأبناؤكم)، و (آباؤكم) هنا مرفوعٌ بالابتداء، وخبره (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا) هذا على قول، أو (آباؤكم) خبر مبتدأ محذوف أي: هم آباؤكم وأبناؤكم، فهذه الآية قد اشتملت على إرث الآباء والأبناء، وعلى كلا التقديرين يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (آباؤكم وأبناؤكم)؟

جوّز الوقف هنا السجاوندي، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (آباؤكم وأبناؤكم) يحتمل أن يكون التقدير: هم آباؤكم وأبناؤكم، أو: آباؤكم وأبناؤكم هم المقسَم لهم، فيصح الوقف هنا، وتكون جملة (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا) جملة مستقلة، لكن هذا الاحتمال فيه نوع بعدٍ، والأقرب منه أن يقال: أن جملة (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا) خبر المبتدأ في قوله (آباؤكم)، وبناءً عليه لا وقف هنا كما ذهب إليه عامة علماء الوقف والابتداء، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه البقية، والاختلاف هنا راجعٌ إلى إعراب قوله (فريضةً من الله) بأي شيءٍ نصبت؟ فمن نصبها على المصدرية أي: فرض ذلك فريضةً، أو

نصبها بفعلٍ مقدرٍ فإنه يصح الوقف هنا عنده، ومن نصبها على الحال مما قبلها، فإنه لا يصح الوقف هنا عنده، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فريضةً من الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة مبدوءة بـ(إنّ) في قوله (إن الله كان عليمًا حكيمًا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد) هنا وقفٌ، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وذلك أنه انتهى من حكم الزوج عند عدم وجود الولد، ثم بدأ بذكر حكمه مع وجود الولد بجملةٍ شرطيةٍ، فصح الوقف هنا.

ثم قال (فإن كان لهن ولدٌ فلكم الربع مما تركن) هل يصح الوقف هنا؟

لم ينص على الوقف هنا أحدٌ من علماء الوقف والابتداء، لكن وضعت علامة الوقف الجائز هنا في مصحف الشمرلي والمصحف الشامي ومصحف المدينة، وكأنهم تتابعوا على ذلك مما وضع في مصحف الشمرلي، وإذا تأملنا فإن قوله هنا (من بعد وصيةٍ يوصين بها أو دين) كما ذكرت في الآية السابقة، هذه الجملة ليست مرتبطةً بالحكم الأخير الذي هو (فإن كان لهن ولد) إنما هي مرتبطةٌ بالحكمين، سواءٌ كان لهن ولد أو لم يكن لهن ولد، وبالتالي فالوقف هنا له وجهٌ، لكن الأحوط عدم الوقف لأنه لم نجد أحدًا من علماء الوقف والابتداء قد نص عليه، والله أعلم.

ثم قال (من بعد وصيةٍ يوصين بها أو دين) يصح الوقف هنا أيضًا كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، لأن ميراث الزوج قد انتهى هنا، ثم بدأ بميراث الزوجة بجملةٍ معطوفةٍ قد استقلت بنفسها، فصح الوقف هنا.

ثم يصح الوقف على قوله (ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد) كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وذلك أنه انتهى من حكم الزوجة عند عدم وجود الولد، ثم بدأ في حكمها عند وجود الولد بجملةٍ شرطيةٍ، فصح الوقف هنا.

ثم هل يصح الوقف على قوله (فإن كان لكم ولدٌ فلهن الثمن مما تركتم)؟

يقال هنا ما قيل في الوقف على قوله (فلكم الربع مما تركن)، لم ينص عليه أحدٌ من علماء الوقف والابتداء، وإنما وضعت علامة الوقف الجائز هنا في مصحف الشمرلي والمصحف الدمشقي ومصحف المدينة، والأمر في هذا محتملٌ، والوصل أولى، والله أعلم.

ثم يصح الوقف على قوله (من بعد وصيةٍ توصون بها أو دين) كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أن ميراث الزوجة قد انتهى هنا، ثم بدأ في ميراث الأخوة والأخوات لأم في مسألة الكلالة، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

ثم هل يصح الوقف على قوله (وإن كان رجلٌ يورث كلالةً أو امرأةٌ وله أخٌ أو أختٌ)؟

الجواب: لا يصح، لأن جواب الشرط لم يأت بعد، جوابه في قوله (فلكل واحدٍ منها السدس)، وهو الحكم، فلا وقف إلا على قوله (السدس)، كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وذلك أن ميراث الأخ لأم أو الأخت لأم عند انفرادهم قد انتهى هنا، ثم بدأ في ميراثهم إذا كانوا عددًا بجملةٍ شرطيةٍ، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

ثم يقال نفس الكلام في الوقف على قوله (فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث)، قال بعدها (من بعد وصيةٍ يوصى بها أو دينٍ غير مضارّ) هنا أيضًا لم ينص على الوقف أحدٌ من علماء الوقف والابتداء، لكن وضعت علامة الوقف الجائز في مصحف الشمرلي والمصحف الدمشقي ومصحف المدينة، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

ثم لا يصح الوقف على قوله (من بعد وصيةٍ يوصى بها أو دين) كما نص على ذلك السجاوندي، لأن قوله (غير مضارّ) حالٌ من (يوصى)، أي: يوصى وصيةً غير مضارٍّ بها، فلا يصح الوقف قبل الحال، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (غير مضارّ)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ومنع منه البعض، وذلك أن قوله (وصيةً من الله) منصوبٌ، فما الذي نصبه؟ فمن صحح الوقف هنا قالوا: منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديره: أوصى الله بذلك وصيةً، أو: يوصيكم الله بذلك وصيةً، ومن منع من الوقف هنا جعل (وصيةً) منصوبةً بما قبلها بقوله (غير مضار) أي: بوصيته، أو: غير مضارٍ بورثته بما يوصي به، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وصيةً من الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (والله عليمٌ حليمٌ) جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف قبلها، والله أعلم.

الآية التي تليها: (تلك حدود الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الابتدائية في قوله (تلك حدود الله) بمبتدئها وخبرها قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ بعدها، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

ثم لا وقف في قوله (ومن يطع الله ورسوله يدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) إلا هنا، وذلك أنها جملةٌ شرطيةٌ، شرطها في قوله (مَن)، وفعل الشرط (يطع الله ورسوله)، جواب الشرط (يدخله جنات)، ثم جاءت صفة هذه الجنات أنها تجري من تحتها الأنهار، ثم جاء حالٌ من مفعول (يدخله) أن حالهم أنهم خالدون في هذه الجنات، فلا وقف إلا على قوله (خالدين فيها)، كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (وذلك الفوز العظيم) جملةٌ مستأنفةٌ مكونةٌ من مبتدأ وخبر، تضمنت وصف الجزاء السابق بصفةٍ عامةٍ، وليست هي جزءًا من الجزاء، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارًا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (خالدًا فيها) حالٌ من مفعول (يدخله)، فحاله في دخوله النار أنه خالد فيها، فلا وقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (خالدًا فيها)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه البعض، وإذا تأملنا فإن قوله (وله عذابٌ مهينٌ) هو من تتمة عقابه، وليست جملةً مستأنفةً، بل هي معطوفةٌ من تتمة الجزاء، فالأقرب هنا والله أعلم عدم الوقف.

الآية التي تليها: (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لأن خبر المبتدأ في قوله (واللاتي) لم يأت بعد، والخبر في قوله (فاستشهدوا عليهن).

وهل يصح الوقف على قوله (فاستشهدوا عليهن أربعةً منكم)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وذلك أن الجملة الاسمية قد انتهت بمبتدئها وخبرها، ثم جاءت بعدها جملةٌ شرطيةٌ، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت)؟

الجواب: لا يصح، ووجه ذلك أن قوله (حتى يتوفاهن الموت) للغاية التي تحبس فيها في البيت، ولا يصح الوقف قبل الغاية.

وهل يصح الوقف على قوله (حتى يتوفاهن الموت)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (أو) هنا عاطفةٌ، فالغاية مرتبطةٌ بأمرين: يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا، فلا وقف إلا في نهاية الآية، والله أعلم.

الآية التي تليها: (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الحكم الأصلي للزاني والزانية قد انتهى هنا، ثم بدأ في حكمهما إذا تابا بجملةٍ شرطيةٍ، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، كما نص على ذلك الأشموني، وذلك أن قوله (ثم يتوبون من قريب) تضمنت عطفًا لترتيب الفعل، فلا وقف هنا، هذا من الناحية اللفظية، ومن ناحيةٍ معنويةٍ الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين هنا أنه يتوب على من عمل السوء بجهالةٍ ثم تاب من هذا السوء من قريب، ولم يرد بيان أنه يتوب على من عمل السوء بجهالةٍ فقط، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثم يتوبون من قريب)؟

نص على الوقف هنا الهبطي دون غيره من علماء الوقف والابتداء، ومنع منه الأشموني، وعلل ذلك بأنه لمكان الفاء في قوله (فأولئك يتوب الله عليهم)، والفاء هنا كأنها واقعةٌ في النتيجة والحكم، فلما قال (إنما التوبة) وذكر وصفهم قال (فأولئك) يعني الذين يستحقون أن يتوب الله عليهم، والأمر في هذا محتملٌ، والوصل أولى، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فأولئك يتوب الله عليهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أنه انتهى من ذكر حكم التوبة المقبولة وحال صاحبها، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان)، ومتضمنةٌ اسمها وخبرها، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) هل يصح الوقف هنا؟

جوز الوقف هنا السجاوندي، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، بل منع منه الأشموني، وعلل الأشموني التجويز بأن (حتى) في قوله (حتى إذا حضر أحدهم الموت) تحتمل أن تكون ابتدائيةً وليست غائيةً، وجوابها في قوله (قال إني تبت الآن)، وتحتمل أن تكون غائيةً أيضًا، وإذا تأملنا فإن الوقف هنا قد يوهم أنه لا توبة لمن يعمل السيئات مطلقًا، (وليست التوبة للذين يعملون السيئات)، فيكون الوقف هنا قبيحًا، لأن هذا مخالفٌ لما هو مقررٌ ومعلومٌ بالضرورة من دين الإسلام، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن)؟

نص على الوقف هنا الأخفش وأحمد بن جعفر، ومنع منه ابن الأنباري والنحاس والأشموني، ولم ينص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أن قوله (ولا الذين يموتون وهم كفار) معطوفٌ على ما قبله، وهو معطوفٌ على مجرور في قوله (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) أي: ولا للذين يموتون وهم كفار، فقوله (ليست التوبة) متضمنٌ لحالين: الحال الأولى: الذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن، والحال الثانية: الذين يموتون وهم كفار، فالأقرب عدم الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا الذين يموتون وهم كفار)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه انتهى من ذكر حال من لا تقبل توبته، ثم جاءت بعد ذلك جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (أولئك أعتدنا لهم عذابًا أليمًا) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ١١-١٨

(يوصيكم الله في أولادكم):

أخرج ابن جرير وعبد بن حميد والبيهقي في سننه عن قتادة قال: ذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته: ألا إن الآية التي أنزلت في سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، مما جرت به الرحم من العصبة. الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ٧٥٩).

وقال السعدي: هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هن آيات المواريث المتضمنة لها، فإنها مع حديث عبد الله بن عباس الثابت في صحيح البخاري (ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر) مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات فإنه غير مذكور في ذلك. لكنه قد ثبت في السنن عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك. تفسير السعدي (ص: ١٦٦).

وقال ابن كثير: ورد الترغيب في تعلم الفرائض، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك. وقد روى أبو داود وابن ماجه... أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة)...

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا هريرة، تعلموا الفرائض وعلموه، فإنه نصف العلم، وهو ينسى، وهو أول شيء ينتزع من أمتي). رواه ابن ماجه، وفي إسناده ضعف... قال سفيان بن عيينة: إنما سمى الفرائض نصف العلم؛ لأنه يبتلى به الناس كلهم. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٤).

سبب النزول: قال ابن كثير: عن جابر بن عبد الله قال: عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي صلى الله عليه وسلم لا أعقل شيئا، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رش علي،

فأفقت، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: {يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين}. وكذا رواه مسلم والنسائي...

وعن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في أحد شهيدا، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال. قال: فقال: (يقضي الله في ذلك). قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال: (أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك)...

والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كلالة، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعا للبخاري، رحمه الله، فإنه ذكره هاهنا. والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، والله أعلم. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٥).

وقال ابن قدامة: إذا أوصى لولده أو لولد فلان، فإنه للذكور والإناث والخناثى، لا خلاف في ذلك؛ لأن الاسم يشمل الجميع. قال الله تعالى: {يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين}، وقال تعالى: {ما اتخذ الله من ولد}، نفى الذكر والأنثى جميعا، وإن قال: لبنيّ، أو بني فلان. فهو للذكور دون الإناث والخناثى. هذا قول الجمهور... لفظ البنين يختص بالذكور، قال الله تعالى: {أصطفى البنات على البنين}، وقال تعالى: {أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين}. المغني لابن قدامة (٦/ ١٧٥-١٧٦).

وقال ابن كثير: وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: {يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين} أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح وقد رأى امرأة من السبي تدور على ولدها، فلما وجدته أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟) قالوا: لا يا رسول الله: قال: (فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها). تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٦).

وقال السعدي: {يوصيكم الله في أولادكم} أي: أولادكم -يا معشر الوالدين- عندكم ودائع، قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدبونهم وتكفونهم عن المفاسد، وتأمرونهم بطاعة الله وملازمة التقوى على الدوام، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة}، فالأولاد عند والديهم موصى بهم، فإما أن يقوموا بتلك الوصية، وإما أن يضيعوها فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب، وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم عليهم. تفسير السعدي (ص: ١٦٦).

(للذكر مثل حظ الأنثيين):

عن ابن عباس: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين، كرهها الناس أو بعضهم، وقالوا: تعطى المرأة الربع والثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة!! اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينساه، أو نقول له فيغيره. فقال بعضهم: يا رسول الله، أنعطي الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تركب الفرس ولا تقاتل القوم، ونعطي الصبي الميراث وليس يغني شيئا؟! وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، لا يعطون الميراث إلا من قاتل، يعطونه الأكبر فالأكبر. تفسير الطبري (٧/ ٣٢).

وقال ابن كثير: {يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين} أي: يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤونة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتجشم المشقة، فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٥).

وقال السعدي: {للذكر مثل حظ الأنثيين} أي: الأولاد للصلب، والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين، إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه -مع وجود أولاد الصلب- فالميراث لهم. وليس لأولاد الابن شيء، حيث كان أولاد الصلب ذكورا وإناثا، هذا مع اجتماع الذكور والإناث. تفسير السعدي (ص: ١٦٦).

(فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف):

قال ابن كثير: قال بعض الناس: قوله: {فوق} زائدة، وتقديره: فإن كن نساء اثنتين كما في قوله تعالى: {فاضربوا فوق الأعناق}، وهذا غير مسلم لا هنا ولا هناك؛ فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه، وهذا ممتنع، ثم قوله: {فلهن ثلثا ما ترك} لو كان المراد ما قالوه لقال: فلهما ثلثا ما ترك. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٦).

وقال السعدي: من أين يستفاد أن للابنتين الثنتين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟

فالجواب: أنه يستفاد من قوله: {وإن كانت واحدة فلها النصف}، فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة انتقل الفرض عن النصف، ولا ثم بعده إلا الثلثان.

وأيضا: فقوله: {للذكر مثل حظ الأنثيين} إذا خلف ابنا وبنتا، فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبنتين الثلثين.

وأيضا: فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها - وهو أزيد ضررا عليها من أختها، فأخذها له مع أختها من باب أولى وأحرى.

وأيضا: فإن قوله تعالى في الأختين: {فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك} نص في الأختين الثنتين، فإذا كان الأختان الثنتان -مع بُعدهما- يأخذان الثلثين فالابنتان -مع قربهما- من باب أولى وأحرى.

وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ابنتي سعد الثلثين كما في الصحيح.

بقي أن يقال: فما الفائدة في قوله: {فوق اثنتين}؟

قيل: الفائدة في ذلك -والله أعلم- أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على الثنتين، بل من الثنتين فصاعدا. تفسير السعدي (ص: ١٦٦).

وقال أيضا: دلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة، وبنت ابن أو بنات ابن، فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن، أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين. ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن اللاتي أنزل منها.

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط من دونهن من بنات الابن لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم، فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص. وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، ولله الحمد. تفسير السعدي (ص: ١٦٦-١٦٧).

(ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد):

قال السعدي: دل قوله: {مما ترك} أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار وأثاث وذهب وفضة وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمم. تفسير السعدي (ص: ١٦٧).

وقال أيضا: {لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد} أي: ولد صلب أو ولد ابن ذكرا كان أو أنثى، واحدا أو متعددا. تفسير السعدي (ص: ١٦٧).

(فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث):

قال السعدي: (فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث) أي: والباقي للأب؛ لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك على أن الباقي للأب.

وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصيبا المال كله، أو ما أبقت الفروض. تفسير السعدي (ص: ١٦٧).

(فإن كان له إخوة فلأمه السدس):

عن قتادة قوله: (فإن لم يكن له ولد ورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس)، أضروا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث، ويحجبها ما فوق ذلك. وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم من الثلث لأن أباهم يلي نكاحهم والنفقة عليهم دون أمهم. تفسير الطبري (٧/ ٤٤).

وقال ابن كثير: الأبوان لهما في الميراث أحوال:

أحدها: أن يجتمعا مع الأولاد، فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة، فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له -والحالة هذه -بين هذا الفرض والتعصيب.

الحال الثاني: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم -والحالة هذه -الثلث، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، ويكون قد أخذ ضعفي ما فرض للأم، وهو الثلثان...

والحال الثالث من أحوال الأبوين: وهو اجتماعهما مع الإخوة، وسواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئا، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقي. وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٧-٢٢٨).

(من بعد وصية يوصي بها أو دين):

قال البغوي: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إنكم تقرؤون الوصية قبل الدين، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدين قبل الوصية)، وهذا إجماع أن الدين مقدم على الوصية، ومعنى الآية الجمع لا الترتيب، وبيان أن الميراث مؤخر عن الدين والوصية جميعا، معناه: من بعد وصية إن كانت أو دين إن كان، والإرث مؤخر عن كل واحد منهما. تفسير البغوي (١/ ٥٧٩-٥٨٠).

وقال السعدي: وقدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين؛ للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها شاقا على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال. وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل

للأجنبي الذي هو غير وارث، وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة. تفسير السعدي (ص: ١٦٧-١٦٨).

(آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا):

عن ابن عباس في قوله: (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا)، يقول: أطوعكم لله من الآباء والأبناء، أرفعكم درجة يوم القيامة، لأن الله سبحانه يشفع المؤمنين بعضهم في بعض. تفسير الطبري (٧/ ٤٩).

وقال ابن كثير: {آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا} أي: إنما فرضنا للآباء وللأبناء، وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللوالدين الوصية، كما تقدم عن ابن عباس، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا، ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم؛ لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي أو هما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس؛ فلهذا قال: {آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا} أي: كأن النفع متوقع ومرجو من هذا، كما هو متوقع ومرجو من الآخر؛ فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٩).

(إن الله كان عليما حكيما):

قال الطبري: (عليما) يعني جل ثناؤه: إن الله لم يزل ذا علم بما يصلح خلقه، أيها الناس، فانتهوا إلى ما يأمركم، يصلح لكم أموركم. (حكيما) يقول: لم يزل ذا حكمة في تدبيره، وهو كذلك فيما يقسم لبعضكم من ميراث بعض، وفيما يقضي بينكم من الأحكام، لا يدخل حكمه خلل ولا زلل، لأنه قضاء من لا تخفى عليه مواضع المصلحة في البدء والعاقبة. تفسير الطبري (٧/ ٥١).

وقال البقاعي: {حكيما} أي: فوضع لكم هذه الأحكام على غاية الإحكام في جلب المنافع لكم ودفع الضر عنكم، ورتبها سبحانه وتعالى أحسن ترتيب، فإن الوارث يتصل بالميت تارة بواسطة وهو الكلالة،

وأخرى بلا واسطة، وهذا تارة يكون بنسب، وتارة بصهر ونسب، فقدم ما هو بلا واسطة لشدة قربه، وبدأ منه بالنسب لقوته، وبدأ منهم بالولد لمزيد الاعتناء به. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٢٠٨).

(ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهنّ ولد):

قال السعدي: يدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه، ولد الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعا. تفسير السعدي (ص: ١٦٨).

(وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس):

قال ابن كثير: وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه:

أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم.

الثاني: أن ذكرهم وأنثاهم سواء.

الثالث: أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلالة، فلا يرثون مع أب، ولا جد، ولا ولد، ولا ولد ابن.

الرابع: أنهم لا يزادون على الثلث، وإن كثر ذكورهم وإناثهم. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٠).

وقال السعدي: دل قوله: {فهم شركاء في الثلث} أن ذكرهم وأنثاهم سواء، لأن لفظ التشريك يقتضي التسوية. تفسير السعدي (ص: ١٦٨).

وقال أيضا: {وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت} أي: من أم، كما هي في بعض القراءات، وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم، فإذا كان يورث كلالة أي: ليس للميت والد ولا ولد، أي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا. وهذه هي الكلالة كما فسرها بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق، ولله الحمد... ودل لفظ {الكلالة} على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم، لأن الله

لم يورثهم إلا في الكلالة، فلو لم يكن يورث كلالة، لم يرثوا منه شيئا اتفاقا. تفسير السعدي (ص: ١٦٨).

(من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار):

عن ابن عباس قال: الضرار في الوصية من الكبائر. تفسير الطبري (٨/ ٦٥).

وقال ابن تيمية: الله سبحانه إنما قدم على الميراث وصية من لم يضارّ الورثة بها، فإذا وصى ضرارا كان ذلك حراما، وكان للورثة إبطاله، وحرم على الموصى له أخذه بدون رضاهم، ولذلك قال بعد ذلك: {تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله} إلى قوله: {ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا} .
وإنما ذكر الضرار في هذه الآية دون التي قبلها؛ لأن الأولى تضمنت ميراث العمودين، والثانية تضمنت ميراث الأطراف من الزوجين والإخوة، والعادة أن الموصي قد يضار زوجته وإخوته، ولا يكاد يضار ولده (ووالده)، لكن الضرار نوعان: حيف وإثم، فإنه قد يقصد مضارتهم، وهو الإثم، وقد يضارهم من غير قصد، وهو الحيف، فمتى أوصى بزيادة على الثلث فهو مضار قصد أو لم يقصد. فترد هذه الوصية.
وإن وصى بدونه ولم يُعلم أنه قصد الضرار فيمضيها، فإن علم الموصى له أنه إنما أوصى له ضرارا لم يحل له الأخذ. ولو اعترف الموصي: إني إنما أوصيت ضرارا لم تجز إعانته على إمضاء هذه الوصية، ووجب ردها في مقتضى هذه الآية. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ٥٥).

(والله عليم حليم):

قال الطبري: (والله عليم) يقول: والله ذو علم بمصالح خلقه ومضارهم، ومن يستحق أن يعطى من أقرباء من مات منكم وأنسبائه من ميراثه، ومن يُحرم ذلك منهم، ومبلغ ما يستحق به كل من استحق منهم قسما، وغير ذلك من أمور عباده ومصالحهم.
(حليم) يقول: ذو حلم على خلقه، وذو أناة في تركه معاجلتهم بالعقوبة على ظلم بعضهم بعضا في إعطائهم الميراث لأهل الجلد والقوة من ولد الميت، وأهل الغناء والبأس منهم، دون أهل الضعف والعجز من صغار ولده وإناثهم. تفسير الطبري (٨/ ٦٨).

(تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها):

قال الطبري: (تلك حدود الله) معناه: هذه القسمة التي قسمها لكم ربكم، والفرائض التي فرضها لأحيائكم من موتاكم في هذه الآية على ما فرض وبين في هاتين الآيتين، (حدود الله) يعني: فصول ما بين طاعة الله ومعصيته في قسمكم مواريث موتاكم. تفسير الطبري (٨/ ٦٩).

وقال السعدي: وفي ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصباء الوارثين. ثم قوله تعالى: {تلك حدود الله} فالوصية للوارث بزيادة على حقه يدخل في هذا التعدي، مع قوله صلى الله عليه وسلم: (لا وصية لوارث). تفسير السعدي (ص: ١٧٠-١٧١).

(ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين):

قال الطبري: فإن قال قائل: أو مخلد في النار من عصى الله ورسوله في قسمة المواريث؟

قيل: نعم، إذا جمع إلى معصيتهما في ذلك شكا في أن الله فرض عليه ما فرض على عباده في هاتين الآيتين، أو علم ذلك فحادّ الله ورسوله في أمرهما. تفسير الطبري (٨/ ٧٢).

وقال السعدي: ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي، فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة - يدخل فيها الشرك فما دونه - دخل النار وخُلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها. تفسير السعدي (ص: ١٧١).

وقال الألوسي: أفرد هنا (خالدا فيها) وجمع هناك (خالدين فيها):

لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة، وإذا شَفع أحدهم في غيره دخلها معه، وأهل المعاصي لا يُشفّعون فلا يدخل بهم غيرهم، فيبقون فرادى.
أو للإيذان بأن الخلود في دار الثواب بصيغة الاجتماع الذي هو أجلب للأنس، والخلود في دار العقاب بصيغة الانفراد الذي هو أشد في استجلاب الوحشة. روح المعاني (٢/ ٤٤٣).

(واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم):
قال ابن تيمية: قوله {فاستشهدوا عليهن أربعة منكم} دل على شيئين: على أن نصاب الشهادة على الفاحشة أربعة، وعلى أن الشهداء بها على نسائنا يجب أن يكونوا منا، فلا تقبل شهادة الكفار على المسلمين، وهذا لا نزاع فيه. مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٩٧).

وقال السعدي: بينة الزنا لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة سترا لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات، ولا مع الرجال، ولا ما دون أربعة.
ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وتومئ إليه هذه الآية لما قال: {فاستشهدوا عليهن أربعة منكم}، لم يكتف بذلك حتى قال: {فإن شهدوا} أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عيانا، من غير تعريض ولا كناية. تفسير السعدي (ص: ١٧١).

(فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا):
عن ابن عباس قوله: (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم) إلى (أو يجعل الله لهن سبيلا)، كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت، ثم أنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)، فإن كانا محصنين رجما. فهذا سبيلهما الذي جعل الله لهما. تفسير الطبري (٨/ ٧٤).

قال عمر: (لقد خشيت أن يطول بالناس زمان، حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن، إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف، ألا وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده). صحيح البخاري (٨/ ١٦٨)، صحيح مسلم (٣/ ١٣١٧).

وقال ابن تيمية: لم يثبت أن شيئا من القرآن نُسخ بسنة بلا قرآن، وقد ذكروا من ذلك قوله تعالى: {فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا}، وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {خذوا عني؛ خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم}. وهذه الحجة ضعيفة لوجهين:
أحدهما: أن هذا ليس من النسخ المتنازع فيه؛ فإن الله مد الحكم إلى غاية، والنبي صلى الله عليه وسلم بيّن تلك الغاية، لكن الغاية هنا مجهولة، فصار هذا يقال: إنه نسخ، بخلاف الغاية المبينة في نفس الخطاب، كقوله: {ثم أتموا الصيام إلى الليل}، فإن هذا لا يسمى نسخا بلا ريب.
الوجه الثاني: أن جلد الزاني ثابت بنص القرآن، وكذلك الرجم كان قد أنزل فيه قرآن يتلى، ثم نسخ لفظه وبقي حكمه، وهو قوله: والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم، وقد ثبت الرجم بالسنة المتواترة وإجماع الصحابة. وبهذا يحصل الجواب عما يدعى من نسخ قوله: {واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم} الآية؛ فإن هذا إن قدّر أنه منسوخ فقد نسخه قرآن جاء بعده؛ ثم نسخ لفظه وبقي حكمه منقولا بالتواتر، وليس هذا من موارد النزاع؛ فإن الشافعي وأحمد وسائر الأئمة يوجبون العمل بالسنة المتواترة المحكمة وإن تضمنت نسخا لبعض آي القرآن، لكن يقولون: إنما نُسخ القرآن بالقرآن لا بمجرد السنة، ويحتجون بقوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها}، ويرون من تمام حرمة القرآن أن الله لم ينسخه إلا بقرآن. مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٩٨-٣٩٩).

وقال البغوي: وجملة حد الزنا: أن الزاني إذا كان محصنا – وهو الذي اجتمعت فيه أربعة أوصاف: العقل والبلوغ والحرية والإصابة بالنكاح الصحيح – فحده الرجم، مسلما كان أو ذميا، وهو المراد من الثيب المذكور في الحديث... وإن كان الزاني غير محصن بأن لم تجتمع فيه هذه الأوصاف نُظر إن كان غير

بالغ أو كان مجنونا فلا حد عليه، وإن كان حرا عاقلا بالغا غير أنه لم يحصن بنكاح صحيح فعليه جلد مائة وتغريب عام. تفسير البغوي (١/ ٥٨٥).

(إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة):

عن ابن زيد في قول الله: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب)، قال: الجهالة: كل امرئ عمل شيئا من معاصي الله فهو جاهل أبدا حتى ينزع عنها، وقرأ: (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون)، وقرأ: (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين). قال: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته. تفسير الطبري (٨/ ٩٠).

وقال ابن تيمية: قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي: (كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب)، وكذلك قال سائر المفسرين. قال مجاهد: كل عاص فهو جاهل حين معصيته. وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدي وغيرهم: إنما سموا جهالا لمعاصيهم لا أنهم غير مميزين. وقال الزجاج: ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء؛ لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءا؛ وإنما يحتمل أمرين: أحدهما: أنهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه. والثاني: أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة، وآثروا العاجل على الآجل؛ فسموا جهالا لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة. فقد جعل الزجاج الجهل إما عدم العلم بعاقبة الفعل وإما فساد الإرادة؛ وقد يقال: هما متلازما... والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله؛ وإنما يكون جاهلا لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص. ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: (كفى بخشية الله علما، وكفى بالاغترار بالله جهلا). وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه، وتصور المحبوب يوجب طلبه، فإذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على أنه لم يتصوره تصورا تاما؛ ولكن قد يتصور الخبر عنه، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبَر عنه. وكذلك إذا لم يكن المتصور محبوبا له ولا مكروها؛ فإن الإنسان يصدّق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ولا يورثه ذلك هربا ولا طلبا، وكذلك إذا أُخبر بما هو محبوب

له ومكروه ولم يكذّب المخبِر، بل عرف صدقه؛ لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أُخبر به؛ فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب. مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢-٢٣).

وقال أيضا: ومما يبين ذلك: قوله تعالى {إنما يخشى الله من عباده العلماء} وكل من خشيه وأطاعه وترك معصيته: فهو عالم. كما قال تعالى {أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} . وقال رجل للشعبي: أيها العالم. فقال: إنما العالم من يخشى الله. مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٩٢).

(ثم يتوبون من قريب):

عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر). مسند أحمد (١٠/ ٣٠٠)، سنن الترمذي (٥/ ٤٣٨)، سنن ابن ماجه (٢/ ١٤٢٠).

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قال إبليس: أي رب، لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب عز وجل: لا أزال أغفر لهم ما استغفروني). مسند أحمد (١٨/ ٢٥٣).

وقال الطبري: تأويله: ثم يتوبون قبل مماتهم، في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تبارك وتعالى ونهيه، وقبل أن يُغلبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكرب الحشرجة وغم الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله ونهيه، ولا يعقلوا التوبة، لأن التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف منه، وعزم على ترك المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعاودة: فأما إذا كان بكرب الموت مشغولا وبغم الحشرجة مغمورا، فلا إخاله إلا عن الندم على ذنوبه مغلوبا. تفسير الطبري (٨/ ٩٦-٩٧).

وقال زكريا الأنصاري: (ثم يتوبون من قريب) ليس المراد بـ (القريب) مقابلة البعيد، إذ حكمهما هنا واحد، بل المراد من قوله (من قريب) من قبل معاينة سبب الموت، بقرينة قوله تعالى (حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١٠٩).

(فأولئك يتوب الله عليهم):

قال السعدي: توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد. تفسير السعدي (ص: ١٧١).

(وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن):

قال ابن كثير: فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم -فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص؛ ولهذا قال تعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن}، وهذا كما قال تعالى: {فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا}، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها كما قال تعالى: {يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا}. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٨).

(ولا الذين يموتون وهم كفار):

قال ابن كثير: يعني: أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض ذهبا. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ١١-١٨

١- من رحمة الله سبحانه أنه تكفّل بتقسيم الميراث بنفسه بما يحقق العدل بين الورثة؛ لأن المال كثيرا ما يسبب النزاع بين الناس، ومن رحمته سبحانه أنه فرض للنساء من البنات والأمهات والزوجات والأخوات من الميراث مقدارا محددا ونصيبا مقدرا بعد أن كنّ لا يرثن شيئا، ومن رحمته سبحانه أنه بيّن ذلك في كتابه بيانا واضحا شافيا حتى لا يكابر مكابر أو يعاند معاند، ولو سلّم الأرحام كلهم لحكم الله لازدادوا ألفة ومحبة (يوصيكم الله في أولادكم)، (فريضة من الله)، (وصية من الله).

٢- احرص على سداد ديونك في حياتك، فإنك لا تدري هل يقوم ورثتك بالسداد بعد موتك أو تبقى في ذمتك إلى يوم القيامة، فيكون السداد من حسناتك في يوم أحوج ما تكون فيه إلى كل حسنة لتنجو من العذاب (من بعد وصية يوصِي بها أو دين).

٣- اعلم أنك لا تدري أي الأقارب أنفع لك في الدنيا والآخرة، فلا تفضّل أو تقدّم أحدا على أحد، بل أعطِ كل ذي حق حقه (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا).

٤- لو كانت عليك حقوق للناس فاكتبها حتى لا تضيع بعد موتك، ولو كان لديك مال كثير فاحرص على أن توصي بشيء منه ليُصرف في وجوه الخير والإحسان، واحذر أن توصي وصية تضرّ بورثتك أو بعضهم، بأن توصي بأكثر من الثلث، أو توصي لوارث، أو تقصد بالوصية إضرارهم بتقليل أنصبتهم من الميراث، أو توصي وتركتك قليلة فتترك ورثتك عالة يتكففون الناس، أو تدّعي دينا عليك لأحد من الناس كذبا لحرمان الورثة، فراقب الله واعلم أنه مطّلع على عملك وقصدك (من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار).

٥- الله سبحانه عليم بما يستحقه كل أحد من الميراث، وبما يُصلح خلقه، وبما تستقيم به الحياة، وهو سبحانه حكيم يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها، فيعطي كل أحد ما يستحقه حسب ما جبله عليه، وحسب ما ألزمه به من النفقات، وهو سبحانه حليم لا يعاجل بالعقوبة من عصاه وتجرّأ على أموال الضعفاء من النساء والصبيان، تأمل قوله في ختام آيات المواريث: (إن الله كان عليما حكيما)، (والله عليم حليم).

٦- المؤمنون المتّقون المعظّمون لأمر الله يرضون بما قسم الله، ويلتزمون حدود الله، ولا يخالفون أمر الله، ولا يتعدّون ما فرض الله، فكن منهم تسعد وتسلم، واحذر مخالفة ذلك بالاعتراض على حكم الله، أو الامتناع عن تنفيذه، فتبوء بعذاب النار (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين).

٧- الزنى من أكبر الكبائر، ومن أعظم الفواحش، ومن أشد المعاصي خطرا على الفرد والمجتمع، لذلك كانت عقوبته من أعظم العقوبات، فاحذر الزنى، وابتعد عن وسائله وأسبابه من النظرة والخُلطة والخلوة وغير ذلك، واحفظ دينك وعفافك وشرفك وعرضك وأهلك (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا * واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما).

٨- ما منا من أحد إلا وله ذنوب، ولولا ستر الله لافتضحنا، والمؤمن بصير بذنوبه صغيرها وكبيرها، وضعيف الإيمان يحاول تبرير ذنوبه حتى يُقنع نفسه أنه لم يُذنب، فكن بصيرا بذنوبك حتى تتوب إلى الله توبة نصوحا، وبادر بالتوبة قبل أن يفجأك الموت وأنت مفرّط مقصّر مضيّع متساهل، وكرّر التوبة والاستغفار كل يوم أكثر من مائة مرة حتى تطهّر صحيفة أعمالك، فيأتيك الموت وأنت تقي نقيّ طاهر من الذنوب، واعلم أن الدمعة الصادقة من خشية الله عند التوبة إليه في الغيب دليل على صدق التوبة، ونقاء السريرة (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما * وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (١٩-٢٤) من التفسير الميسّر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)

يا أيها الذين آمنوا لا يجوز لكم أن تجعلوا نساء آبائكم من جملة تَرِكتهم، تتصرفون فيهن بالزواج منهن، أو المنع لهن، أو تزويجهن للآخرين، وهن كارهات لذلك كله، ولا يجوز لكم أن تضارُّوا أزواجكم وأنتم كارهون لهن؛ ليتنازلن عن بعض ما آتيتموهن من مهر ونحوه، إلا أن يرتكبن أمرا فاحشا كالزنى، فلكم حينئذ إمساكهن حتى تأخذوا ما أعطيتموهن. ولتكن مصاحبتكم لنسائكم مبنية على التكريم والمحبة، وأداء ما لهن من حقوق. فإن كرهتموهن لسبب من الأسباب الدنيوية فاصبروا؛ فعسى أن تكرهوا أمرًا من الأمور ويكون فيه خير كثير.

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠)

وإن أردتم استبدال زوجة مكان أخرى، وكنتم قد أعطيتم مَن تريدون طلاقها مالا كثيرًا مهرًا لها، فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئًا، أتأخذونه كذبًا وافتراءً واضحًا؟

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١)

وكيف يحلُّ لكم أن تأخذوا ما أعطيتموهن من مهر، وقد استمتع كل منكما بالآخر بالجماع، وأخَذْنَ منكم ميثاقًا غليظًا من إمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان؟

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢)

ولا تتزوجوا مَن تزوجه آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف منكم ومضى في الجاهلية فلا مؤاخذة فيه. إن زواج الأبناء من زوجات آبائهم أمر قبيح يفحش ويعظم قبحه، وبغيض يمقت الله فاعله، وبئس طريقًا ومنهجًا ما كنتم تفعلونه في جاهليتكم.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ

اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣)

حرَّم الله عليكم نكاح أمهاتكم، ويدخل في ذلك الجدَّات مِن جهة الأب أو الأم، وبناتكم: ويشمل بنات الأولاد وإن نزلن، وأخواتكم الشقيقات أو لأب أو لأم، وعماتكم: أخوات آبائكم وأجدادكم، وخالاتكم: أخوات أمهاتكم وجداتكم، وبنات الأخ، وبنات الأخت: ويدخل في ذلك أولادهن، وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم، وأخواتكم من الرضاعة -وقد حرَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع ما يحرم من النسب- وأمهات نسائكم، سواء دخلتم بنسائكم، أم لم تدخلوا بهن، وبنات نسائكم من غيركم اللاتي يتربَّيْنَ غالبًا في بيوتكم وتحت رعايتكم، وهن مُحرَّمَات وإن لم يكنَّ في حجوركم، ولكن بشرط الدخول بأمهاتهن، فإن لم تكونوا دخلتم بأمهاتهن وطلقتموهن أو متْنَ قبل الدخول فلا جناح عليكم أن تنكحوهن، كما حرَّم الله عليكم أن تنكحوا زوجات أبنائكم الذين من أصلابكم، ومن أُلحق بهم مِن أبنائكم من الرضاع، وهذا التحريم يكون بالعقد عليها، دخل الابن بها أم لم يدخل، وحرَّم عليكم كذلك الجمع في وقت واحد بين الأختين بنسب أو رضاع إلا ما قد سلف ومضى منكم في الجاهلية. ولا يجوز كذلك الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها كما جاء في السنة. إن الله كان غفورًا للمذنبين إذا تابوا، رحيمًا بهم، فلا يكلفهم ما لا يطيقون.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)

ويحرم عليكم نكاح المتزوجات من النساء، إلا مَنْ سَبَيْتُم منهن في الجهاد، فإنه يحل لكم نكاحهن، بعد استبراء أرحامهن بحيضة، كتب الله عليكم تحريم نكاح هؤلاء، وأجاز لكم نكاح مَن سواهن، ممَّا أحله الله لكم أن تطلبوا بأموالكم العفة عن اقتراف الحرام. فما استمتعتم به منهن بالنكاح الصحيح، فأعطوهن مهورهن، التي فرض الله لهن عليكم، ولا إثم عليكم فيما تمَّ التراضي به بينكم، من الزيادة أو النقصان في المهر، بعد ثبوت الفريضة. إن الله تعالى كان عليمًا بأمور عباده، حكيما في أحكامه وتدبيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (١٩-٢٤)

الكلمة	المعنى
تَرِثُوا النساء	تتوارثوهن كما يورث المال
ولا تَعضُلوهُنّ	ولا تَحبِسوهنّ إضرارا بهن
بِفَاحِشَة مُبَيّنة	بِفِعلٍ فاحشٍ كالزنى
قِنطَارا	مالا كثيرا
بُهتَانا	كَذِبا وافتراء
أَفْضَى بعضُكم إلى بعض	استمتع بعضكم ببعض بالجماع
مِيثَاقا غليظا	عهدا وثيقا حين عقدتم عليهن
إلا ما قد سلف	إلا ما مضى منكم قبل العلم بالتحريم
ومَقْتا	وشيئا مبغوضا
ورَبائبُكم	وبناتُ زوجاتكم من غيركم
وحَلائلُ أبنائِكم	وزوجاتُهم
والمُحصَنات	والمتزوّجات
ما ملكت أيمانُكم	المأخوذاتُ من نساء الكفار في الجهاد
أن تبتغوا بأموالكم	أن تطلبوهن بدفع المهر
محصِنين غير مسافحين	طالبين إحصان أنفسكم لا الوقوع في الزنى
أُجورَهنّ	مُهورَهنّ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ١٩-٢٤

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية التاسعة عشرة وحتى الآية الرابعة والعشرين.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا) هل يصح الوقف هنا؟

الوقف هنا يحتاج إلى تأملٍ في الجملة التي تليها، وهي قوله (ولا تعضلوهن) هل هي في موضع جزمٍ على النهي؟ يعني أن (لا) هنا ناهية، وبناءً عليه يصح الوقف هنا، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، أو هي في موضع نصبٍ عطفًا على قوله (ترثوا) فيكون تقدير الجملة: لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا ولا أن تعضلوهن، فلا يصح الوقف هنا، والوقف أوجه، وحمل الجملة على النهي أقرب، وفيها أيضًا انتقالٌ من جملة خبرٍ إلى جملة نهيٍ، وذلك أن الخبر في قوله (لا يحل لكم) في جملة النفي، ثم النهي في قوله (ولا تعضلوهن)، فالوقف هنا أقرب، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعده استثناء في قوله (إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينةٍ)، ولا يصح الوقف قبل الاستثناء.

وهل يصح الوقف على قوله (بفاحشةٍ مبينةٍ)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ونص السجاوندي رحمه الله على جواز الوقف هنا للعارض بين المتفقتين، ومعنى قوله: أن جملة (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينةٍ) جملةٌ عارضةٌ بين جملتين خبريتين متفقتين، وذلك في قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا)، وقوله (وعاشروهن بالمعروف)، والأمر في قوله (وعاشروهن بالمعروف) هو أمرٌ عامٌ في معاملة النساء والزوجات جاء بعد نهيٍ خاصٍ عن العضل، فالوقف هنا له وجهٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وعاشروهن بالمعروف)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الأمر قد انتهت في قوله (وعاشروهن بالمعروف)، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ في قوله (فإن كرهتموهن) في ذكر حالةٍ جديدةٍ، وهي حالة الكره للزوجة، وكيفية التعامل مع ذلك، فصح الابتداء بهذه الجملة الشرطية، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك السجاوندي، ووجه ذلك أن الواو في قوله (وآتيتم) واوٌ حاليةٌ، تقديرها: أي: وقد آتيتم إحداهن قنطارًا، فلم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (وآتيتم إحداهن قنطارًا)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ في قوله (إنْ) في أول الآية، فعل الشرط (أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ)، وارتبط بفعل الشرط الحال في قوله (وآتيتم إحداهن قنطارًا)، جواب الشرط (فلا تأخذوا منه شيئًا)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فلا تأخذوا منه شيئًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة الشرط قد انتهت، وجاءت بعدها جملةٌ استفهاميةٌ في قوله: (أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وأخذن منكم) معطوفةٌ على جملة الحال في قوله (وقد أفضى بعضكم)، والتقدير: وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وقد أخذن منكم ميثاقًا غليظًا، فالاستفهام الإنكاري في قوله (كيف تأخذونه) متعلقٌ بالجملتين، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، لماذا؟ لأن جملة النهي قد انتهت هنا، ثم جاءت بعدها جملةٌ استئنافيةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إنه كان فاحشةً)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إنه كان فاحشةً ومقتًا)؟

نص على الوقف هنا الهبطي والسجاوندي، ولم ينص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (وساء سبيلاً) جملةٌ معطوفةٌ على مفردٍ في قوله (فاحشةً ومقتًا)، هاتان كلمتان مفردتان معطوفتان على بعضٍ، ثم عطف عليها جملة فعلية في قوله (وساء سبيلاً)، فمن نظر إلى أنه يصح الفصل بين الجملة

المعطوفة وما عطفت عليه صحح الوقف هنا، ومن نظر إلى أن العطف هنا أشبه بعطف الكلمات المفردة وأنه من قبيل وصف هذا الفعل بأنه فاحشة، وبأنه مقت، وبأنه ساء طريقًا وسبيلاً، لم يصحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والوصل أولى، والله أعلم.

الآية التي تليها: (حرمت عليكم أمهاتكم) هذه الآية مليئة بالمعطوفات، وعامتها من قبيل عطف الكلمات المفردة على بعضها التي لا يصح الفصل بينها، وفيها شيءٌ من عطف الجمل سيأتي التنبيه عليه، لكن من العلماء من صحح الوقف على بعض هذه المعطوفات لنظرةٍ خاصةٍ.

وذلك مثل الوقف على قوله (وبنات الأخت)، نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، للفصل بين المحرمات من النساء بالنسب وبين المحرمات بالرضاع، لأنه قال بعدها (وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم)، وهذا وقفٌ له وجهٌ.

وكذلك نصوا على الوقف على قوله (وأخواتكم من الرضاعة) للفصل بين المحرمات بالرضاع والمحرمات بالمصاهرة، وهذا له وجهٌ أيضًا.

ثم نص بعض العلماء على الوقف على قوله (وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن)، جاء هنا وصفٌ للربيبة وشرطٌ متعلقٌ بذلك (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن)، ثم ذكر الحالة الأخرى وهي عدم الدخول بالنساء بجملةٍ شرطيةٍ فصحح بعض العلماء الوقف هنا، والابتداء بقوله (فإن لكم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم)، وهذا الوقف له وجهٌ، والله أعلم.

كذلك صحح بعض العلماء الوقف على قوله (فلا جناح عليكم)، لأنه نهاية جملة الشرط ونهاية حكم الربائب اللاتي فصِّل في حكمهن.

ثم صحح بعض علماء الوقف والابتداء الوقف على قوله (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم)، ومنع منه آخرون، وذلك أن قوله (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) وإن كان معطوفًا على ما قبله، إلا أن ما قبله قد اشتمل على وصفٍ خاصٍ متعلقٍ بالمحرمة وهي حليلة الابن يعني زوجته، قال (الذين من أصلابكم) فالوقف هنا له وجهٌ، والله أعلم.

ثم يصح الوقف على قوله (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) لأنه نهاية المحرمات اللاتي ذكرن في هذه الآية، وجاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ(إنّ) في قوله (إن الله كان غفورًا رحيمًا)، فصح الوقف هنا كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا عامة علماء الوقف والابتداء على اعتبار أن قوله (كتاب الله عليكم) منصوبٌ على الإغراء، كأنه قال: الزموا كتاب الله عليكم، أو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديره: كتب الله كتابًا عليكم، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (كتاب الله عليكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أنه قد انتهى هنا ذكر المحرمات من النساء وذكر أن ذلك مفروضٌ علينا، ثم بدأ بذكر ما أحل من النساء في قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك النحاس، لأن (أنْ) في قوله (أن تبتغوا) بدلٌ من (ما) في قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم)، يعني الذي أحل لكم هو أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أن تبتغوا بأموالكم)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (محصنين) حالٌ، ولا يصح الوقف قبل الحال.

وهل يصح الوقف على قوله (غير مسافحين)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ذكر ما أحل من النساء وشرطه قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ مبدوءةٌ بـ (ما) الشرطية في ذكر وجوب إعطائهن مهورهن، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة)؟

الجواب: نعم، لأن جملة الشرط قد انتهت هنا، الشرط في قوله (ما)، اسم شرطٍ جازم، وفعله (استمتعتم به منهن)، وجوابه (فآتوهن أجورهن فريضة)، ثم جاءت بعد جملة الشرط جملة نفيٍ، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة)؟

الجواب: نعم، لأن جملة النفي قد انتهت هنا، ثم جاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إن الله كان عليمًا حكيمًا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ١٩-٢٤

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية التاسعة عشرة وحتى الآية الرابعة والعشرين.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا) هل يصح الوقف هنا؟

الوقف هنا يحتاج إلى تأملٍ في الجملة التي تليها، وهي قوله (ولا تعضلوهن) هل هي في موضع جزمٍ على النهي؟ يعني أن (لا) هنا ناهية، وبناءً عليه يصح الوقف هنا، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، أو هي في موضع نصبٍ عطفًا على قوله (ترثوا) فيكون تقدير الجملة: لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا ولا أن تعضلوهن، فلا يصح الوقف هنا، والوقف أوجه، وحمل الجملة على النهي أقرب، وفيها أيضًا انتقالٌ من جملة خبرٍ إلى جملة نهيٍ، وذلك أن الخبر في قوله (لا يحل لكم) في جملة النفي، ثم النهي في قوله (ولا تعضلوهن)، فالوقف هنا أقرب، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعده استثناء في قوله (إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينةٍ)، ولا يصح الوقف قبل الاستثناء.

وهل يصح الوقف على قوله (بفاحشةٍ مبينةٍ)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ونص السجاوندي رحمه الله على جواز الوقف هنا للعارض بين المتفقتين، ومعنى قوله: أن جملة (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينةٍ) جملةٌ عارضةٌ بين جملتين خبريتين متفقتين، وذلك في قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا)، وقوله (وعاشروهن بالمعروف)، والأمر في قوله (وعاشروهن بالمعروف) هو أمرٌ عامٌ في معاملة النساء والزوجات جاء بعد نهيٍ خاصٍ عن العضل، فالوقف هنا له وجهٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وعاشروهن بالمعروف)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الأمر قد انتهت في قوله (وعاشروهن بالمعروف)، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ في قوله (فإن كرهتموهن) في ذكر حالةٍ جديدةٍ، وهي حالة الكره للزوجة، وكيفية التعامل مع ذلك، فصح الابتداء بهذه الجملة الشرطية، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك السجاوندي، ووجه ذلك أن الواو في قوله (وآتيتم) واوٌ حاليةٌ، تقديرها: أي: وقد آتيتم إحداهن قنطارًا، فلم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (وآتيتم إحداهن قنطارًا)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ في قوله (إنْ) في أول الآية، فعل الشرط (أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ)، وارتبط بفعل الشرط الحال في قوله (وآتيتم إحداهن قنطارًا)، جواب الشرط (فلا تأخذوا منه شيئًا)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فلا تأخذوا منه شيئًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة الشرط قد انتهت، وجاءت بعدها جملةٌ استفهاميةٌ في قوله: (أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وأخذن منكم) معطوفةٌ على جملة الحال في قوله (وقد أفضى بعضكم)، والتقدير: وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وقد أخذن منكم ميثاقًا غليظًا، فالاستفهام الإنكاري في قوله (كيف تأخذونه) متعلقٌ بالجملتين، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، لماذا؟ لأن جملة النهي قد انتهت هنا، ثم جاءت بعدها جملةٌ استئنافيةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إنه كان فاحشةً)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إنه كان فاحشةً ومقتًا)؟

نص على الوقف هنا الهبطي والسجاوندي، ولم ينص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (وساء سبيلاً) جملةٌ معطوفةٌ على مفردٍ في قوله (فاحشةً ومقتًا)، هاتان كلمتان مفردتان معطوفتان على بعضٍ، ثم عطف عليها جملة فعلية في قوله (وساء سبيلاً)، فمن نظر إلى أنه يصح الفصل بين الجملة

المعطوفة وما عطفت عليه صحح الوقف هنا، ومن نظر إلى أن العطف هنا أشبه بعطف الكلمات المفردة وأنه من قبيل وصف هذا الفعل بأنه فاحشة، وبأنه مقت، وبأنه ساء طريقًا وسبيلاً، لم يصحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والوصل أولى، والله أعلم.

الآية التي تليها: (حرمت عليكم أمهاتكم) هذه الآية مليئة بالمعطوفات، وعامتها من قبيل عطف الكلمات المفردة على بعضها التي لا يصح الفصل بينها، وفيها شيءٌ من عطف الجمل سيأتي التنبيه عليه، لكن من العلماء من صحح الوقف على بعض هذه المعطوفات لنظرةٍ خاصةٍ.

وذلك مثل الوقف على قوله (وبنات الأخت)، نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، للفصل بين المحرمات من النساء بالنسب وبين المحرمات بالرضاع، لأنه قال بعدها (وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم)، وهذا وقفٌ له وجهٌ.

وكذلك نصوا على الوقف على قوله (وأخواتكم من الرضاعة) للفصل بين المحرمات بالرضاع والمحرمات بالمصاهرة، وهذا له وجهٌ أيضًا.

ثم نص بعض العلماء على الوقف على قوله (وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن)، جاء هنا وصفٌ للربيبة وشرطٌ متعلقٌ بذلك (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن)، ثم ذكر الحالة الأخرى وهي عدم الدخول بالنساء بجملةٍ شرطيةٍ فصحح بعض العلماء الوقف هنا، والابتداء بقوله (فإن لكم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم)، وهذا الوقف له وجهٌ، والله أعلم.

كذلك صحح بعض العلماء الوقف على قوله (فلا جناح عليكم)، لأنه نهاية جملة الشرط ونهاية حكم الربائب اللاتي فصِّل في حكمهن.

ثم صحح بعض علماء الوقف والابتداء الوقف على قوله (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم)، ومنع منه آخرون، وذلك أن قوله (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) وإن كان معطوفًا على ما قبله، إلا أن ما قبله قد اشتمل على وصفٍ خاصٍ متعلقٍ بالمحرمة وهي حليلة الابن يعني زوجته، قال (الذين من أصلابكم) فالوقف هنا له وجهٌ، والله أعلم.

ثم يصح الوقف على قوله (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) لأنه نهاية المحرمات اللاتي ذكرن في هذه الآية، وجاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إن الله كان غفورًا رحيمًا)، فصح الوقف هنا كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا عامة علماء الوقف والابتداء على اعتبار أن قوله (كتاب الله عليكم) منصوبٌ على الإغراء، كأنه قال: الزموا كتاب الله عليكم، أو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديره: كتب الله كتابًا عليكم، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (كتاب الله عليكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أنه قد انتهى هنا ذكر المحرمات من النساء وذكر أن ذلك مفروضٌ علينا، ثم بدأ بذكر ما أحل من النساء في قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك النحاس، لأن (أنْ) في قوله (أن تبتغوا) بدلٌ من (ما) في قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم)، يعني الذي أحل لكم هو أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أن تبتغوا بأموالكم)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (محصنين) حالٌ، ولا يصح الوقف قبل الحال.

وهل يصح الوقف على قوله (غير مسافحين)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ذكر ما أحل من النساء وشرطه قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ مبدوءةٌ بـ (ما) الشرطية في ذكر وجوب إعطائهن مهورهن، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة)؟

الجواب: نعم، لأن جملة الشرط قد انتهت هنا، الشرط في قوله (ما)، اسم شرطٍ جازم، وفعله (استمتعتم به منهن)، وجوابه (فآتوهن أجورهن فريضة)، ثم جاءت بعد جملة الشرط جملة نفيٍ، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة)؟

الجواب: نعم، لأن جملة النفي قد انتهت هنا، ثم جاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إن الله كان عليمًا حكيمًا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ١٩-٢٤

(يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها):

عن ابن عباس: قال: «كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك». صحيح البخاري (٦/ ٤٤).

عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا مات وترك جارية، ألقى عليها حميمُه ثوبَه فمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها. تفسير الطبري (٨/ ١٠٩).

(ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة):

عن ابن عباس قوله: (ولا تعضلوهن)، يقول: لا تقهروهن، (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) يعني: الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر، فيضر بها لتفتدي. تفسير الطبري (٨/ ١١١).

وقال الطبري: وأولى ما قيل في تأويل قوله: (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) أنه معني به كل (فاحشة): من بذاء باللسان على زوجها، وأذى له، وزنا بفرجها. وذلك أن الله جل ثناؤه عم بقوله: (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة)، كل فاحشة متبينة ظاهرة. فكل زوج امرأة أتت بفاحشة من الفواحش التي هي زنا أو نشوز فله عضلها على ما بين الله في كتابه، والتضييق عليها حتى تفتدي منه، بأي معاني الفواحش أتت، بعد أن تكون ظاهرة مبينة بظاهر كتاب الله تبارك وتعالى، وصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. تفسير الطبري (٨/ ١١٨).

عن جابر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع: اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. صحيح مسلم (٢/ ٨٨٩).

(وعاشروهن بالمعروف):

قيل: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»، قال أبو داود: (ولا تقبح) أن تقول: قبحك الله. سنن أبي داود (٢/ ٢٤٤)، مسند أحمد (٣٣/ ٢١٣).

وقال القرطبي: (وعاشروهن بالمعروف) هو مثل قوله تعالى: (فإمساك بمعروف) وذلك توفية حقها من المهر والنفقة، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقا في القول، لا فظا ولا غليظا، ولا مظهرا ميلا إلى غيرها. تفسير القرطبي (٥/ ٩٧).

وقال ابن تيمية: الصواب المقطوع به عند جمهور العلماء أن نفقة الزوجة مرجعها إلى العرف، وليست مقدرة بالشرع؛ بل تختلف باختلاف أحوال البلاد والأزمنة وحال الزوجين وعادتهما؛ فإن الله تعالى قال: {وعاشروهن بالمعروف}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» وقال: «لهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٣٨٢).

وقال ابن كثير: {وعاشروهن بالمعروف} أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: {ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف}، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)، وكان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يتودد إليها بذلك. قالت: سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني، فقال: (هذه بتلك)، ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأكل معهن العَشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام، يؤانسهم

بذلك صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٢).

(فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا):

عن ابن عباس: (ويجعل الله فيه خيرا كثيرا)، والخير الكثير: أن يعطف عليها، فيرزق الرجل ولدها، ويجعل الله في ولدها خيرا كثيرا. تفسير الطبري (٨/ ١٢٣).

وقال السعدي: {فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا} أي: ينبغي لكم -أيها الأزواج- أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيرا كثيرا:

من ذلك: امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها: أن إجباره نفسه -مع عدم محبته لها- فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة.

وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك.

وربما رزق منها ولدا صالحا نفع والديه في الدنيا والآخرة.

وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور. تفسير السعدي (ص: ١٧٢).

(وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا):

عن الشعبي قال: خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ألا لا تغالوا في صدق النساء، فإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سيق إليه إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال، ثم نزل، فعرضت له امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين! كتاب الله عز وجل أحق أن يتبع أو قولك؟ قال: بل كتاب الله عز وجل، فما ذلك؟ قالت: نهيت الناس آنفا أن يغالوا في صدق النساء، والله عز وجل يقول في كتابه {وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا}، فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر، مرتين أو ثلاثا، ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: «إني نهيتكم أن تغالوا في صدق النساء ألا فليفعل رجل في ماله ما بدا له». سنن سعيد بن منصور (١/ ١٩٥)، السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٣٨٠).

وقال البغوي: اعلم أنه لا تقدير لأكثر الصداق لقوله تعالى: (وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا)، والمستحب أن لا يغالى فيه: قال عمر بن الخطاب: (ألا لا تغالوا في صدقة النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبي الله صلى الله عليه وسلم، ما علمت رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئا من نسائه، ولا أنكح شيئا من بناته، على أكثر من اثنتي عشرة أوقية)... وعن أبي سلمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها: كم كان صداق النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه؟ قالت: (كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونشا، قالت: أتدري ما النش؟ قلت: لا، قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمائة درهم، هذا صداق النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه).

أما أقل الصداق فقد اختلفوا فيه، فذهب جماعة إلى أنه لا تقدير لأقله، بل ما جاز أن يكون مبيعا أو ثمنا جاز أن يكون صداقا، وهو قول ربيعة وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق، قال عمر بن الخطاب: ثلاث قبضات زبيب مهر، وقال سعيد بن المسيب: لو أصدقها سوطا جاز، وقال قوم: يتقدر بنصاب السرقة، وهو قول مالك وأبي حنيفة، غير أن نصاب السرقة عند مالك ثلاثة دراهم وعند أبي حنيفة عشرة دراهم، والدليل على أنه لا يتقدر... عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله! إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياما طويلا، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم تكن لك فيها حاجة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل عندك من شيء تصدقها»؟ قال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أعطيتها إياه جلست لا إزار لك، فالتمس شيئا»، فقال: ما أجده، فقال: «فالتمس ولو خاتما من حديد»، فالتمس فلم يجد شيئا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل معك من القرآن شيء»؟ قال: نعم سورة كذا وسورة كذا لسور سماها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قد زوجتها بما معك من القرآن».

وفيه دليل على أن لا تقدير لأقل الصداق، لأنه قال: «التمس شيئا» وهذا يدل على جواز أي شيء كان من المال، ولأنه قال: «ولو خاتما من حديد»، ولا قيمة لخاتم الحديد إلا القليل التافه، وفي الحديث دليل على أنه يجوز تعليم القرآن صداقا، وهو قول الشافعي رحمه الله... وكل عمل جاز الاستئجار عليه مثل البناء والخياطة وغير ذلك من الأعمال جاز أن يجعل صداقا. تفسير البغوي (١/ ٥٩٧-٥٩٨).

وقال ابن تيمية: والأولى تعجيل الصداق كله للمرأة قبل الدخول إذا أمكن، فإن قدم البعض وأخر البعض: فهو جائز. وقد كان السلف الصالح الطيب يرخصون الصداق. فتزوج عبد الرحمن بن عوف في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على وزن نواة من ذهب. قالوا: وزنها ثلاثة دراهم وثلث. وزوّج سعيد بن المسيب بنته على درهمين، وهي من أفضل أيم من قريش، بعد أن خطبها الخليفة لابنه فأبى أن يزوجها به. والذي نقل عن بعض السلف من تكثير صداق النساء فإنما كان ذلك لأن المال اتسع عليهم، وكانوا يجعلون الصداق كله قبل الدخول، فلم يكونوا يؤخرون منه شيئا. ومن كان له يسار ووجد فأحب أن يعطي امرأته صداقا كثيرا فلا بأس بذلك، كما قال تعالى: {وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا}، أما من يشغل ذمته بصداق لا يريد أن يؤديه، أو يعجز عن وفائه: فهذا مكروه. كما تقدم وكذلك من جعل في ذمته صداقا كثيرا من غير وفاء له: فهذا ليس بمسنون. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ١٩٥).

(وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا):

عن ابن عباس قال: الإفضاء المباشرة، ولكن الله كريم يكني عما يشاء. تفسير الطبري (٨/ ١٢٦).

عن قتادة قوله: (وأخذن منكم ميثاقا غليظا): والميثاق الغليظ الذي أخذه للنساء على الرجال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وقد كان في عقد المسلمين عند إنكاحهم: آلله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن بإحسان. تفسير الطبري (٨/ ١٢٧).

(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف):

عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يحرّمون ما يحرُم إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين. قال: فأنزل الله: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف)، (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف). تفسير الطبري (٨/ ١٣٣).

وقال ابن كثير: {ومقتا} أي: بغضا، أي: هو أمر كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجُها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على

الأمة؛ لأنهن أمهات، لكونهن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كالأب للأمة، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٦).

(إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا):

قال زكريا الأنصاري: إن قلت: كيف جاء بلفظ الماضي، مع أن نكاح منكوحة الأب، فاحشة في الحال والاستقبال؟

قلت: (كان) تستعمل تارة للماضي المنقطع نحو: كان زيد غنيا، وتارة للماضي المتصل بالحال نحو (وكان الله غفورا رحيما)، (وكان الله بكل شيء عليما)، ومنه (إنه كان فاحشة). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١١١).

(حرمت عليكم أمهاتكم...):

عن ابن عباس: «حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع» ثم قرأ: {حرمت عليكم أمهاتكم}. صحيح البخاري (٧/ ١٠).

وقال البغوي: وجملة المحرمات في كتاب الله تعالى أربع عشرة: سبع بالنسب، وسبع بالسبب، فأما السبع بالسبب فمنها اثنتان بالرضاع وأربع بالصهرية والسابعة المحصنات، وهن ذوات الأزواج، وأما السبع بالنسب فقوله تعالى: حرمت عليكم أمهاتكم... تفسير البغوي (١/ ٥٩٠).

وقال السعدي: هذه الآيات الكريمات مشتملات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحللات من النساء. تفسير السعدي (ص: ١٧٣).

وقال ابن تيمية: {حرمت عليكم أمهاتكم...} فدخل في الأمهات أم أبيه وأم أمه وإن علت، بلا نزاع أعلمه بين العلماء. وكذلك دخل في البنات بنت ابنه وبنت ابن ابنته وإن سفلت، بلا نزاع أعلمه. وكذلك دخل في

الأخوات الأخت من الأبوين والأب والأم. ودخل في العمات والخالات عمات الأبوين وخالات الأبوين. وفي بنات الأخ والأخت ولد الإخوة وإن سفلن. فإذًا حرم عليه أصوله وفروعه وفروع أصوله البعيدة؛ دون بنات العم والعمات وبنات الخال والخالات.

وأما المحرمات بالصهر فيقول: كل نساء الصهر حلال له إلا أربعة أصناف بخلاف الأقارب. فأقارب الإنسان كلهن حرام؛ إلا أربعة أصناف، وأقارب الزوجين كلهن حلال إلا أربعة أصناف، وهن: حلائل الآباء والأبناء وأمهات النساء وبناتهن. فيحرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه. ويحرم على الرجل أم امرأته؛ وأم أمها وأبيها وإن علت. وتحرم عليه بنت امرأته وهي الربيبة وبنت بنتها وإن سفلت، وبنت الربيب أيضا حرام؛ كما نص عليه الأئمة المشهورون: الشافعي وأحمد وغيرهما، ولا أعلم فيه نزاعا. ويحرم عليه أن يتزوج بامرأة أبيه وإن علا؛ وامرأة ابنه وإن سفل. فهؤلاء الأربعة هن المحرمات بالمصاهرة في كتاب الله؛ وكل من الزوجين يكون أقارب الآخر أصهارا له، وأقارب الرجل أحماء المرأة؛ وأقارب المرأة أختان الرجل. وهؤلاء الأصناف الأربعة يحرُمن بالعقد؛ إلا الربيبة فإنها لا تحرم حتى يدخل بأمها، فإن الله لم يجعل هذا الشرط إلا في الربيبة، والبواقي أطلق فيهن التحريم. فلهذا قال الصحابة: أبهموا ما أبهم الله. وعلى هذا الأئمة الأربعة وجماهير العلماء. مجموع الفتاوى (٣٢/ ٦٥).

(وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة):

عن عائشة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة). صحيح البخاري (٣/ ١٧٠)، صحيح مسلم (٢/ ١٠٦٨).

وقال البغوي: إنما تثبت حرمة الرضاع بشرطين:

أحدهما: أن يكون قبل استكمال المولود حولين، لقوله تعالى: (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين). وروي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يحرّم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء». وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا رضاع إلا ما أنشز العظم وأنبت اللحم». وإنما يكون هذا في حال الصغر...

والشرط الثاني: أن يوجد خمس رضعات متفرقات، يروى ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وبه قال عبد الله بن الزبير، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله تعالى، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره محرم... واحتج من ذهب إلى أن القليل لا يحرم بما... عن عبد الله بن الزبير يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تحرم المصة من الرضاع والمصتان»... وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل في القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات. تفسير البغوي (١/ ٥٩١-٥٩٢).

(وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن):

قال ابن كثير: وأما قوله: {وربائبكم اللاتي في حجوركم} فجمهور الأئمة على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له، كقوله تعالى: {ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا}، وفي الصحيحين أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان -وفي لفظ لمسلم: عزة بنت أبي سفيان-قال: (أو تحبين ذلك؟) قالت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. قال: (فإن ذلك لا يحل لي). قالت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة. قال: (بنت أم سلمة؟) قالت: نعم. قال: (إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لبنت أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن). وفي رواية للبخاري: (إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي). فجعل المناط في التحريم مجرد تزويجه أم سلمة، وحكم بالتحريم لذلك، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥١).

وقال السعدي: قال الجمهور: الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان:

إحداهما: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت، فمن المستقبح إباحتها.

والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم. تفسير السعدي (ص: ١٧٣).

(فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم):

قال زكريا الأنصاري: قوله تعالى: (فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) إن قلت: ما فائدة ذلك مع أنه مفهوم من قوله: (وأحل لكم ما وراء ذلكم)، ومن مفهوم قوله (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن).

قلت: فائدته رفع توهم أن قيد الدخول خرج مخرج الغالب، كما قيل في (حجوركم). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١١١-١١٢).

(وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم):

قال الطبري: فإن قال قائل: فما أنت قائل في حلائل الأبناء من الرضاع، فإن الله تعالى إنما حرم حلائل أبنائنا من أصلابنا؟

قيل: إن حلائل الأبناء من الرضاع، وحلائل الأبناء من الأصلاب، سواء في التحريم. وإنما قال: (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم)، لأن معناه: وحلائل أبنائكم الذين ولدتموهم، دون حلائل أبنائكم الذين تبنيتموهم، كما... قال عطاء: كنا نحدث - والله أعلم - أنها نزلت في محمد صلى الله عليه وسلم حين نكح امرأة زيد بن حارثة، قال المشركون في ذلك، فنزلت: (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم)، ونزلت: (وما جعل أدعياءكم أبناءكم)، ونزلت: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم). تفسير الطبري (٨/ ١٤٩).

(وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف):

قال السعدي: وأما المحرمات بالجمع فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمه، وحرم النبي صلى الله عليه وسلم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم لو قدر إحداهما ذكرا والأخرى أنثى حرمت عليه فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام. تفسير السعدي (ص: ١٧٤).

(والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم):

سبب النزول: عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين بعث جيشا إلى أوطاس، فلقوا عدوا، فقاتلوهم فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناسا من أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله عز وجل في ذلك: {والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم}، أي: فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن. صحيح مسلم (٢/ ١٠٧٩).

عن ابن عباس في قوله: (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم)، يقول: كل امرأة لها زوج فهي عليك حرام، إلا أمة ملكتها ولها زوج بأرض الحرب، فهي لك حلال إذا استبرأتها. تفسير الطبري (٨/ ١٥٢).

وقال ابن تيمية: (المحصنات) قد قال أهل التفسير: هن العفائف. هكذا قال الشعبي والحسن والنخعي والضحاك والسدي. وعن ابن عباس: هن الحرائر.

ولفظ المحصنات إن أريد به الحرائر فالعفة داخلة في الإحصان بطريق الأولى؛ فإن أصل المحصنة هي العفيفة التي أُحصن فرجها قال الله تعالى: {ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها}، وقال تعالى: {إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات}، وهن العفائف، قال حسان بن ثابت:

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

ثم عادة العرب أن الحرة عندهم لا تُعرف بالزنا؛ وإنما تُعرف بالزنا الإماء، ولهذا لما بايع النبي صلى الله عليه وسلم هند امرأة أبي سفيان على ألا تزني قالت: أو تزني الحرة؟ فهذا لم يكن معروفا عندهم.

والحرة خلاف الأمة، صارت في عرف العامة أن الحرة هي العفيفة؛ لأن الحرة التي ليست أمة كانت معروفة عندهم بالعفة، وصار لفظ الإحصان يتناول الحرية مع العفة؛ لأن الإماء لم تكن عفائف، وكذلك الإسلام ينهى عن الفحشاء والمنكر، والمرأة المتزوجة زوجها يُحصّنها لأنها تستكفي به، ولأنه يغار عليها. فصار لفظ الإحصان يتناول: الإسلام والحرية والنكاح. وأصله إنما هو العفة؛ فإن العفيفة هي التي أُحصن فرجها من غير صاحبها، كالمحصَن الذي يمتنع من غير أهله، وإذا كان الله إنما أباح من المسلمين وأهل الكتاب نكاح المحصنات، والبغايا لسن محصنات: فلم يبح الله نكاحهن. مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٢١).

(وأُحل لكم ما وراء ذلكم):

قال السعدي: كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب، فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفا من الله ورحمة وتيسيرا للعباد. تفسير السعدي (ص: ١٧٤).

(أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين):

قال زكريا الأنصاري: قوله تعالى: (أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين...) اقتصر عليه هنا، لأنه في الحرائر المسلمات، وهن إلى الخيانة أبعد من بقية النساء.

وزاد بعد في قوله (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) لأنه في الإماء وهن إلى الخيانة أقرب من حرائر المسلمات.

وزاد أيضا في المائدة في قوله (محصنين غير مسافحين) قوله (ولا متخذي أخدان) لأنه في الكتابيات الحرائر، وهن إلى الخيانة أقرب من الحرائر المسلمات. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١١٢).

وقال السعدي: {غير مسافحين} والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصّن زوجته لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصّنا لزوجته. وفيها دلالة على أنه لا يزوّج غير العفيف، لقوله تعالى: {الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك}. تفسير السعدي (ص: ١٧٤).

(فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة):

عن ابن عباس قوله: (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة)، يقول: إذا تزوج الرجل منكم المرأة، ثم نكحها مرة واحدة، فقد وجب صداقها كله، والاستمتاع هو النكاح، وهو قوله: (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة). تفسير الطبري (٨/ ١٧٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ١٩-٢٤

١- ما ألطف الله وأرحمه بالضعفاء من عباده! يأمر أمرا صريحا بحفظ حقوق النساء في النكاح والزواج، وينهى عن الاعتداء على أموالهن ومهورهن بأي حجة، حتى لا يتجرأ على حقوقهن أحد بغير حق، فاحذر من ظلم المرأة لضعفها أو عجزها، واعلم أن الله أقدر عليك منك عليها (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة).

٢- أيها الزوج: يجب عليك أن تعاشر زوجتك بالمعروف، تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، وتحسن إليها بالقول والفعل، وتكفّ أذاك عنها، وتعطيها حقوقها كما تحب أن تعطيك حقوقك، وقدوتك في ذلك رسولك صلى الله عليه وسلم، فاقرأ في سيرته مع زوجاته لتقتدي به في ذلك، فإن كرهت من زوجتك شيئا، فقد ترضى منها شيئا آخر، وإن كرهتها حينا فقد تحبها حينا آخر، فقد يقلب الله الكراهة حبا، وقد ترزق منها بولد صالح بار، وقد تكون سببا للرزق والبركة في حياتك (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا).

٣- اعلم أن عقد النكاح ميثاق غليظ، والشروط المتفق عليها في هذا العقد أحق الشروط بالوفاء، والمهر المحدد المتفق عليه يجب لها بدخولك بها، ولا يجوز لك أن تأخذ منه شيئا إذا أردت تطليقها، إلا إذا تنازلت عنه برضاها بدون إكراه (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا). (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة).

٤- أباح الله نكاح كل النساء لطفا ورحمة وفضلا وإحسانا، ولم يحرّم إلا من تتّفق العقول السليمة والفطر السويّة على استهجان نكاحها، أو من قد يترتّب على نكاحها مشكلة من قطيعة رحم أو نحو ذلك (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا * حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم... وأحلّ لكم ما وراء ذلكم).